الدفاع الوطني اللبناني

LEBANESE NATIONAL DEFENCE

- إنقلاب الصورة في معارك الصورة العربية ـ الإسرائيلية

- الصهيونية المقنّعة بالمسيحية في خدمة إسرائيل

- النفط في لبنان: الإحتمالات، الإنعكاسات

- الديموغرافيا الفلسطينية في حسابات الأمن القومي الإسرائيلي

- **The aftermath of Saddam: Arab aprehensiveness about the United States**
- **Qu’est-ce qu’une Grande Puissance? Un parcours théorique remis à jour**

الدفاع الوطني اللبناني

مجلة
الدفاع الوطني اللبناني
LEBANESE NATIONAL DEFENCE

العدد الخامس والأربعون – تموز ٢٠٠٣

وضع غريب أم ماذا؟

لو نظرنا إلى الوضع في المنطقة العربية، وحكّمنا عقولنا واستخدمنا المقارنات السياسية والتاريخية، لخرجنا بنتيجة أن الوضع غريب فعلاً وقولاً، ولا شبيه له في أي مكان من العالم. ففي العراق توجد دولة، وتوجد قوة احتلال دخلت تحت شعار التحرير، ولا توجد حكومة، لا دائمة ولا مؤقتة، كما لا توجد أجهزة حكومية أو إدارية، ويوجد فقط ما اصطلح على تسميته إدارة مدنية للإحتلال تتألف من ٦٠٠ موظف يديرون بلداً يبلغ عدد سكانه ٢٤ مليون نسمة، بلد كثير المشكلات في الإدارة والسياسة وما إليهما، ولا دلائل فيه حتى الآن على إنشاء سلطة وطنية، أو إجراء انتخابات حرة، أو بناء قوة مسلحة وطنية شرعية. لقد جرت انتخابات مجالس محلية في بعض المدن، ومجالس عشائر في بعض المناطق، لكن ليس هناك ما يؤذن بولادة سلطة وطنية على الدولة التي لا تزال موجودة بشعبها وأرضها وحدودها.

هذا في العراق، أما في فلسطين، فتطورت رؤية الرئيس الأميركي بوش حول دولتين: فلسطينية وإسرائيلية، وأكتسبت هذه الرؤية شكلها السياسي بمبادرة " خريطة الطريق" نحو السلام. والدولة الفلسطينية الموعودة مؤقتة المواصفات، والمؤقت لا يدوم. إنها دولة يمكن لها أن تلغى أو تتوسع أو تتقلص حسب التطورات، كما أن حدودها غير واضحة، فهل هي حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ كما ينص القرار ٢٤٢، أم هي حدود شارون التي تستثني المستوطنات والقدس والأراضي التي تشكل حاجة أمنية لإسرائيل؟ صحيح أن الشعب في فلسطين موجود، والسلطة الوطنية موجودة، والقوى السياسية واضحة، لكن الدولة غير موجودة، بل هي في مهب الوعد والانتظار.

الراعي الاساسي في فلسطين أميركي، والمحتل – المحرر في العراق أميركي أيضاً. هنا دولة من دون سلطة، وهناك سلطة من دون دولة... وهنا وهناك وعود بضرب الدكتاتورية، ونشر الديموقراطية، وخلق نموذج سياسي واجتماعي وحضاري.

..... انه وضع غريب، أم هو شيء آخر ؟

العميد الركن الياس فرحات
مديـــر التـــوجيـــه

الهيئة الاستشارية

د. نسيم الخوري　　د. عبدالله فرحات　　د. حسن منيمنة

د. ميشال نعمه　　د. عدنان الأمين　　د. إلهام منصور

رئيس التحرير: محمود برّي

شروط النشر

١ ـ «الدفاع الوطني اللبناني» مجلة فصلية تعنى بالأبحاث والدراسات الفكرية والعسكرية، وسائر النشاطات الثقافية ذات الاختصاص.

٢ ـ تشترط المجلة في الأعمال الواردة إليها الا تكون قد نشرت سابقاً او مقدمة للنشر في مطبوعات أخرى.

٣ ـ تشترط المجلة في الأعمال المقدمة إليها، الأصالة والابتكار ومراعاة الأصول العلمية المعهودة، خاصة ما يتعلق منها بالإحالات والتوثيق وذكر المصادر والمراجع. كما تتمنى على الكاتب ان يُرفق عمله ببيان سيرة C.V. (التخصص، الدرجة العلمية، العمل، المؤلفات، الخ) وبملخص لمقاله المرسل بالانكليزية او بالفرنسية.

٤ ـ تحيل المجلة الأعمال المقدمة إليها قبل نشرها على لجنة من ذوي الاختصاص تقرر مدى صلاحية هذه الأعمال للنشر.

٥ ـ تُعلم المجلة الكاتب خلال شهرين من تسلمها عمله ما إذا كان مقرُراً للنشر، محتفظة بخيار إدراجه في العدد الذي تراه مناسباً. كما تحتفظ المجلة بحقها في ان تقترح على الكاتب اجراء اي تعديلات في النص تزكيها هيئة التحكيم.

٦ ـ تتوقع المجلة في الكتابات المرسلة أن تكون مطبوعة او مكتوبة بوضوح مع اعتماد الوجه الواحد من الورقة والفسحات المزدوجة بين الأسطر.

٧ ـ لا تلتزم المجلة إعادة الأعمال غير المقررة للنشر إلى أصحابها.

٨ ـ تعتبر «الدفاع الوطني اللبناني» جميع ما يُنشر فيها ناطقاً باسم اصحابه، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو قيادة الجيش.

٩ ـ تحتفظ المجلة بجميع حقوق النشر والتوزيع، ولا يجوز الإقتباس من المواد المنشورة كلياً أو جزئياً إلّا بإذن منها.

عنوان المجلة: قيادة الجيش اللبناني ـ مديرية التوجيه ـ اليرزة ـ لبنان. **العنوان الالكتروني:** *tawjih@lebarmy.gov.lb* **ـ تلفون:** ٤٢٨٨٠٠ ـ ٤٢٠٤٠٠ ـ ٤٥٢٤٠٠(٠١) **السعر:** ٣٠٠٠ ليرة لبنانية.

الاشتراك السنوي: في لبنان: للأفراد ٣٥,٠٠٠ ليرة لبنانية. للمؤسسات ٧٥,٠٠٠ ليرة لبنانية.

في الخارج: ١٥٠ دولاراً أميركياً بما فيه رسوم البريد.

الإعلانات والاشتراكات: مجلة «الدفاع الوطني اللبناني».

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات ش.م.ل.

الفهرست

العدد الخامس والأربعون – تموز ٢٠٠٣

إنقلاب الصورة في معارك الصورة العربية ـ الإسرائيلية ـــــــــ د. نسيم الخوري ٥

الصهيونية المقنّعة بالمسيحية في خدمة إسرائيل ـــــــــ الأب ميشال سبع ٣٩

النفط في لبنان: الإحتمالات، الإنعكاسات ـــــــــ د. مصطفى مروة، د. غسان الشلوق ٦٩

الديموغرافيا الفلسطينية في حسابات الأمن القومي الإسرائيلي ـــــــــ إحسان مرتضى ١٠٥

الحفل الوطني

إنقلاب الصورة في معارك الصورة العربية - الأميركية

د. نسيم الخوري*

تعتبر الحرب الأميركية على العراق الاولى في العالم بعد ثورة الإتصالات التي حققت ابعاداً تكنولوجية غير معروفة من قبل. فقد بان الاعلام سلاحاً موازياً للسلاح النووي والحروب الالكترونية والتكنو إقتصادية في أوجهها المختلفة.

وبفضل هذه المنجزات بدا الرأي العام العالمي وكأنه في قلب المعارك التي بدت أخف وطأة من حروب الاعلام بالصورة والمشاهد. فقد دفعت كثرة الصور وضراوتها ونقاوتها وسرعتها الى جعل المشاهد شريكاً فيها، وكأنه هو من يقاتل أو يقترف الجرائم أو يبكي الضحايا أو يتعاطف مع الأبرياء... إنها الحرب الكاملة في عين الدنيا.

وقد لا نبالغ في الافتراض ان صفة المتلقي التي طبعت العملية الاعلامية في عناصرها الثلاثة الى جانب المرسل والرسالة قد سقطت دفعة واحدة في تشظيات الشاشة، فغاب المتلقي الى مرسل جديد له أفعال وردود أفعال إعلامية.

وقد ظهرت الإنترنت للمرة الاولى شاشة قتالية مهمة، ،ومساحة غير خاضعة فعليا لأية رقابة سياسية بقدر ما هي معرض موسوعي مفتوح للصور التي تناقلها

(* استاذ ومدير سابق لكلية الاعلام والتوثيق - الفرع الثاني. الجامعة اللبنانية

وتبادلها جمهور العالم.

يمكن القول في فرضية أولى بأن تبدلاً، ربما، يطول استراتيجيات الحروب ومفاهيمها العامة المعروفة، اذ تخطت الحروب الجديدة «الرقمية» المكان والميدان لتبدو حروبا بالصوت والصورة ولها وقعها المباشر في نسيج حركة الإستقطاب العالمي ودورها في تبديل التحالفات او اتخاذ القرارات وتعديلها وفقا لما تبثه الشاشات.

وتبرز الفرضية الثانية في دخول العرب الإعلامي تجربة الحرب محققين بذلك أول اختراق ملحوظ في صلابة الجدار الإعلامي الأميركي والإسرائيلي، والذي أسّس على مدى العقود السابقة لعقدة العرب الفعلية في هزائمهم المتتالية، والحجة التي كانت تستخدمها الأنظمة لتبرير عدم إيصال صوتها الى العالم.

للمرّة الأولى في تاريخ الصراعات العربية، بدا الإعلام العربي يلاحق بالصوت والصورة تفاصيل المعارك وعلى مستوى معقول من المهنية والإحتراف. وباتت الفضائيات العربية على مستوى الأحداث من حيث التغطية أو التعرية الفورية، فقد دخلت لعبة الشاشة العالمية وساهمت في إبراز الصور والحقائق التي لم تتمكن دوائر النفوذ العالمية من طمسها كما اعتدنا في السابق، فرضت الشاشة العربية مشاهد المعارك والأسرى والجرحى والقتلى من قوات التحالف وشاهدها العالم بأسره، وولّدت ردود فعل فائقة الأهمية.

هذه التجربة الجديدة المغرية التي خاضها ويخوضها الاعلام العربي في المواجهة تعني العرب كلهم، ولا تقتصر جدواها او انعكاساتها أياً تكن طبيعتها على العراق وحده أو غيره من البلدان العربية.

تطرح هذه التجربة في أهميتها الحيّز الذي تشغله الصور في استراتيجيات الحروب، فقد يمكن نسيان الحروب لكنّ الصور تبقى أدلة للتاريخ. وعندما يلتقط المصور مشهداً أو لحظة من المأساة، فإنما يحاول تأبيد اللحظة التي تجعل العين لا تنسى، وتصبح الصورة «جوهرة» قابلة للإشعاع الدائم وحافزاً على الموقف والعقل والإنخراط في العصر الرقمي.

فما هي الصورة أساساً؟ وما هو دورها كمؤشر حضاري متقدم أو متأخر؟ هل أننا نعيش عصر استرجاع قيمة الصور التي منها انبثقت الحضارات الكتابية المجرّدة؟ وما هو الفرق بين حضارتي العين والأذن؟ واذا كانت الصورة بمعانيها وأبعادها المعاصرة هي ابنة الغرب وقد كان يصعب هضمها في الشرق، فكيف تحولت إلى وسيلة للهجوم المعاكس وما هي الأسباب؟

أليس في المفارقة بين عين الغرب وعين الشرق يكمن هذا التحدي الخاص بتقنيات العصر الحديث أو العولمة التي هي من ابتكار الغرب؟ هل هي صدفة أم مهنة؟

وهل نحن بعد ما حصل في بدايات هذه الألفية الجديدة على أبواب الصراخ بنهايات العولمة أو سقوطها؟

ما علاقة الصور بالموت من حيث قدرتها على التأثير، وكيف تكون الصورة المعاصرة هي القنبلة «الرقمية» التي غيّرت كل شيء بفضل الشاشة؟

ما هي العصور الفعلية للصورة وكيف نؤرّخ لأمّهات صور القرن الماضي تدليلاً على قيمة الصور الاستراتيجية في ذاكرات الدول؟ وكيف تخدم الذاكرة في مخزونها وتجاربها منعة المستقبل؟

هذه الأسئلة وأسئلة اخرى كثيرة تدفعنا الى طرح السؤال الأول: هل نرى الصورة أم نسمعها؟ سؤال نطرحه من واقع الغزو الأميركي للعراق وللمنطقة بحثاً عن الصورة الرمزية للحرب.

١ - الصورة المسموعة

ألحّ أحد أباطرة الصين الأقدمين على كبير الفنانين في بلاطه بالإسراع في تهميش صورة الشلاّل المتدفق في لوحة جدارية كبرى من الفسيفساء تزيّن الجدار الغربي من قصره. والسبب عزاه إلى صورة هذا الشلاّل التي تبعث خريراً للمياه قوياً يزعجه وأصواتاً تقلقه وتحول دون رقاده[1].

قد تطربنا هذه الطرفة - القصة المستّلة من تاريخ الشرق الاقصى القديم

لأنها تعود الى زمنٍ لم يكن الغرب قد قرع فيه باب الشرق بعد، والناحية الغربية التي رفعت فيها اللوحة لا تعنى شيئاً من هذا القبيل. وينبع طربنا من «إيماننا» بمدى السكوت في الفسيفساء وبرودته وجماله بالطبع، وخصوصاً في شرقنا الزاخر بهذا الفن، لكنها طرفة قد تبعث فينا القلق لأمرين:

أ - لأنها تحمل منطقاً مسترجعاً يتناقض مع طبيعة الصين والشرق الاقصى بشكل عام، ولو أنه لا يتناقض مع طبيعة الأباطرة وعدد كبير من الحكام الأقدمين والمعاصرين على تعددية أنظمة الحكم في بلادهم غرباً وشرقاً.

ب - ولأنها تؤشر إلى منطق قديم جديد يتكرّر في الصراع الدولي، تبدو فيه الصين، تتحفز، في نهاية المطاف نحو صورة الغرب، وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية، وهي اليوم مسكونة بقلق مرض السارس SARS [٢] المرعب إذ تبدو هي منبعه ومصدره، الأمر الذي يزيد من عزلتها وضمور أسواقها التي أغرقت الغرب والعالم بضجيج منتوجاتها وقدراتها التنافسية وضآلة اسعارها.

يأتي المرض «الماحق» من الشرق هذه المرَّة في أعقاب «جنون البقر» ومرض «السيدا» وأمراض أخرى غربية معاصرة وكثيرة وكأنها على ارتباط كمفهوم بالموضة La Mode تدخل في أنساقها وترعب البشرية.

ويرتفع القلق الى متسويات خارقة غريبة كانت تمهّد لها وسائل الاعلام الغربية من أن نهاية العالم مرتبطة، بالوجوه السلبية لتقدم العلوم. ويتقدم مفهوم الصراع الدولي في حلَّة محشوة بالتهويل تجعل العالم مهدداً في أجناسه بالإنقراض التام، على اعتبار أن الانسان المعاصر قد أدخل نفسه في جدلية «اليوم الأخير» ومخاطره ووضعت الأرض كلها «في الميزان»[٣].

تندرج في هذا الإطار، تحولات التلوث التي تلف الكرة الارضية ومعضلة الأوزون، والرعب من الاسلحة الجرثومية والكيماوية وسلطات «الليزر» في الحروب المعاصرة الى ما تقدّم من أمراض، ترفع كلها من شأن النهايات والانهيارات الكلّية. وبهذا يظهر الاختلاط بيّناً بين الديني والعلمي والاسطوري في النظرة الى مستقبل البشر.

٢ - «أيقونة» الرئيس الأميركي

تسوقنا هذه المسألة إلى تجلّياتها العملية التي صاحبت الحرب الاميركية على العراق في العشرين من آذار ٢٠٠٣، وتستمر تداعياتها فتهزّ القارة الاسيوية والعالم إلى زمن طويل.

لماذا؟

لأن الرئيس الاميركي جورج دبليو بوش قد أصابه الأرق وهو لم يخلد إلى هدأة النوم بعد عشر سنوات، إلاّ بعد أن أزالت قواته «الرقمية» Digital الرسم الفسيفسائي الذي كان يمثّل صورة والده الرئيس الأسبق جورج بوش، والذي أقيم أمام مدخل فندق الرشيد أشهر فنادق العاصمة العراقية بغداد بعد حرب «عاصفة الصحراء» (١٩٩١). فقد أمر الرئيس العراقي آنذاك بإقامة هذا الرسم. وكان يدوس فوقه الداخلون الى الفندق والخارجون منه.

كان الرئيس الأميركي يسمع صوت اللوحة لا وقع الأقدام فوقها وحسب.

حتى أن مفتشي اسلحة الدمار الشامل في العراق كانوا يبدون ضيقاً وحرجاً لدى مرورهم فوق رسم الرئيس الاميركي.

وكان لا بدّ من تقديس سرعة الوقت في الوصول الى الرسم (الساعة ١٧,٠٠ بتوقيت بغداد) لإرسال صورة رقمية بواسطة الأقمار الإصطناعية تظهر فيها صورة الجندي الأميركي أمام الفندق بعدما أزيلت معالم وجه الرئيس الأب كلياً وبقي عنقه وكتفاه[٤]. كانت تلك الصورة «أيقونة» الرئيس الأميركي الذي اخلد بعدها إلى النوم، كان لا يواجه أرقه إلاّ في الاستغراق في تأمل صورة المياه التخيلية، خلافاً لإمبراطور الصين، تتدفق من جداريات البيت الأبيض.

ألم يقل كبير مهندسي النهضة الأوروبية ألبرتي Alberti بأن «النوم لا يحضر إلاّ عن طريق صورة المياه»؟[٥].

يقودنا هذا الربط بين الصورتين الجداريتين الى «ربط الصورة بالعقيدة الداخلية كي نتمكن من سماعها بشكل افضل»[٦]. واذا ما اتخذت صورة فندق الرشيد الخط الشخصي الذي يفصل بين الحرب والسلم، فإن صوت الماء المزعج

لإمبراطور الصين في الرسم الأول يحتل دور المهدئ والمعالج للغرب فينقل معالجة المشهد أيٌّ مشهدمن مستوى البصر إلى مستوى البصيرة حيث تحتل صورة الأب ما يشابه العقيدة في قناعة الرئيس الإبن.

وقد يخرج مصطلح العقيدة، هنا، خارج المساحات الدينية أو العلاقات «المقدسة» ليحلّ في دوائر العلاقات العائلية وحيث العائلة ملازمة لمفهوم السلطة في أميركا، فتندفع الرؤية إلى ان تصبح نوعاً من التوسط العاطفي العميق الذي يثبت القرار بالحرب ويمضي به.

٣ - الجندي «الرقمي» ورائحة الصورة

وقد يسعف الباحث التأمل ببعض التفاصيل المتعلقة بصورة بوش الأب ووقعها في نفس الرئيس الأميركي بوش الإبن.

فالصورة والعَلَم رمزان للأمة، الأول حي والثاني تاريخ، وفي الثقافة الشخصية والوطنية يرمز كلاهما الى كرامة قطب العولمة:

أ - كان فندق الرشيد مقراً للإعلام أساساً، استعمله الصحافيون الأجانب إبان «عاصفة الصحراء» (١٩٩١). وقد غادره الصحافيون الذين قصدوا بغداد في انتظار اندلاع غزو العراق ولأسباب أمنية ليعتلوا سطح وزارة الاعلام وينصبوا «خيماً» للبث الاعلامي.

ب - لماذا اختير فندق فلسطين على ضفاف دجلة بدلاً من فندق الرشيد الذي تمّ قصفه بعد بدء الحرب مباشرة في العشرين من آذار ٢٠٠٣. وذلك لإيواء الإعلاميين؟[٧].

ج - لماذا تعرض فندق الرشيد للنهب؟ وهل يمكن التغاضي عن الرؤية المنقولة عن أحد كبار السياسيين اللبنانيين الذي التقاه الرئيس الأميركي في منزله في واشنطن وبحضور الرئيس الأب ليهمس في أذنه ما مختصره: **«ان صورة والده أمام فندق الرشيد تقلقه وأن لا أحد يقبل بمثلها أبداً»**.

د - إن الصورة التي تمثل الجندي قرب فسيفساء الرشيد وقد ازيلت معالمها هي الصورة الأولى التي بثتها الفرقة العسكرية وفق تقنيات عالية الدقة. فقد ورد أن المؤسسة العسكرية الأميركية تعمل على تطوير مفهوم الجندي ووظائفه في أثناء القتال فتسميه «الجندي المنشود» أو جندي البر land warrior أو جندي المستقبل Future warrior الذي يمثل نظاماً من الاسلحة العسكرية والاعلامية متكاملاً، والذي تركّز عليه برامج وزارة الدفاع الاميركية لتطوير الأنظمة التي تسمح لأي جندي في المستقبل من التزود بأجهزة خاصة بالتصوير الحراري في الظلام أو بالاشعة ما تحت الحمراء، كما تزوده بأجهزة خفيفة تمنحه من قدرات العولمة الاستشعار عن بعد بما فيها رصد الاخطار الكيمائية والبيولوجية والقدرة على الإتصال بطائرات الاستطلاع وبث **«الصورة الطازجة» أو الحارة والتي تشتم فيها رائحة الدخان بواسطة لمسة زر بسيط** Remote control **وهو ما تمت تجربته للمرة الأولى.**[٨] **إننا أمام واقع الجندي غير المرئي.**

طبعاً لا تنبعث رائحة الحريق من الصورة، وإنما نقدم هذه الصورة لربطها بالحقائق الخيالية Les realités Virtuelles التي حققتها ووسائل الاتصال الحديثة، ولتبيان ما نقترح تسميته «بالجندي الرقمي» Le Soldat Numérique ابن المجتمع الاميركي الرقمي La Société Numérique Américaine.

هكذا نفهم إذن، بالمعنى الثقافي، الأسباب والظروف والدوافع التي تثير فينا صورة النبع أو الشلال الهدوء المفترض، كما تتقدم أو تتراجع صورة النيران والحرائق (الحروب)، في اثارة السخط فينا او متعة الدفء.

طبعاً يرتفع الحيّز الشخصي الذي غالباً ما تغفله الدراسات الأكاديمية، ولكن الأسئلة التي نستوحيها من صورتين متباعدتين إلى مئات ألوف الاسئلة والصور التي فرضتها الحرب الاميركية على العراق، لا تزيح الشخصي بل تجعله أكثر استغراقا وحضوراً، لأن تغيراً حصل في أغراض الحرب ومراميها.

كيف؟

٤ - صورة التمثال الرمزية

لقد أبطلت فاعلية الصورة وتأثيراتها النفسية والاجتماعية مفاهيم الاعلام في الحروب، على الأقل على المستوى اللغوي، فما عادت مهمة الاعلام تغطية الحروب بل رفع الأغطية وكشفها في خباياها وعوراتها وأهوالها ومسبباتها الفعلية. وهذا ما يقودنا الى الخفايا والأسرار التي قد تختزنها النزاعات الدولية والتي كان يسهل تغطيتها في أثناء القيام بنقلها إعلامياً وهو ما تسمح به الكلمة. لكن حضارة الصورة التي عادت تتقدم الكلام او تلازمه او تستغني عنه كليا قد تخضع بدورها الى تحولات وتشوهات تحدّ ربما من قدراتها التأثيرية.

فالصورة محكومة بحبل ليس طويلاً من الكذب والخداع والتضليل، بل بالكشف عن الواقع مما ينقلنا في معطى الحرب الاميركية الأخيرة على العراق إلى تراث هائل من صور صدام حسين وتماثيله الـ٢٣٨٠ وأشباهه وقصوره التي فاقت المئة، وكلها في الإنتظار، وكأنها تربط الحاكم مباشرة بالابطال والقديسين.

ولا ندري إن كانت جداريات قصوره تلك تمنعه من الرقاد!

قد لا نتصور بالطبع بأن تماثيل صدام تحمي بغداد أو أن شعلة الحرية تحمي نيويورك وتجعل خطواتها توقيعاً لوقع السلوك الديموقراطي الأميركي في العالم. فهناك انسحاب للاعتقادات القديمة التي كانت ترى بأن تماثيل القديسين ومنحوتاتهم الكثيرة التي بها يتماهى الرؤساء تحمي المدن أو تدفع عنها الشرور أو تشفي أهلها من البرص قديماً، أو من «السيدا» و«السارس» وغيرها من الأمراض المعاصرة المزمنة والخطيرة.

إنها صور وتماثيل ما عادت تثير فينا اكثر من النزيف الداخلي والحزن القومي، ولأنها تستلهم صور قديسين أو تماثيل لهم ما عادت تنزف أو خف دمعها أو زيتها في هذا القرن، لكنها تثقل الأذى الشخصي العميق لدينا، خصوصاً إن قفزت إلى رؤوسنا صور العراقيين مثلاً يتمتمون أمام تماثيل رئيسهم وحيدين في الظلمة والاستسلام للقدر الرهيب، لكنهم كانوا لا يقوون، بالطبع على التحديق في عيني صدام الحجرية ترتفع في تماثيله. كان جزء من العراقيين يخشى

التحديق في عيون تماثيل الرئيس.

ماذا تراهم يتمتمون؟ الصلاة بطول عمره أو الصلاة للخالق ربّما يخلصهم منه؟

ليس صحيحا، ربما «ان الصورة قد فقدت سحرها وبريقها في الغرب اذ انتقلت من الحيز الديني الى الاجتماعي المألوف والشائع»[٩] على ما رأى الباحث الفرنسي جيزاي Giesey في كتابه «الملك لا يموت»، لأن «الملوك يموتون أينما كانوا ويندثرون» كما في العراق بلاد الاساطير والسحر والقوة. قد تكون العين المعاصرة بالمعنى الغربي، وربما العالمي، قد بلغت حدود الإشباع في هذا العصر، لشدة ما تبثه الشاشات ولدفقه، فنراها تحدق في الصورة العارية ولا تحمر اذا لم يعد يسأل احد عن العيوب في عري التماثيل التي تنتصب في ساحات الغرب إلاّ رجال الدين من الذين فرضوا إخفاء عورات التماثيل في متاحفهم أو انهم دمّروها كليّاً كما حصل في افغانستان على أيدي الطالبان.

ليس سوى المتنورين يعتقدون بأن تأثيرات الصورة تجنح نحو السقوط لكن في ميادينهم، بالطبع، وليس في ميادين العاديين من الناس حيث ما زالت تتحكم بهم عادات طمس أعين الطغاة والأعداء بالحبر الأسود أو زرع المسامير والادوات الحادة في مساحات وجوههم وحواسهم خصوصا البصرية منها.

ألم يبادر العراقيون في بغداد إلى نسيان عادة تغطية المرايا في المنازل عند موت احدهم خوفا من أن يصطحب الميت معه من تنعكس صورته في المرآة، الى الإنهيال بمختلف أنواع الأحذية على تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس، وقد اخذتهم الحمّى الجماعية التي كشفت عن الجهر في تمتماتهم ومعانيها الحقيقية؟

حتماً كان هؤلاء يغفلون أن مرآة اخرى كانت بالمرصاد، ونعني بها شاشات التلفزة العالمية التي نقلت الصورة قارعة كل بيت في الدنيا.

لقد التقى هؤلاء مع زفرة الرئيس الاميركي جورج بوش صارخاً: «لا يمكن لاحد ان

ينسى صورة صدام حسين وهو يهوي في ساحة الفردوس»[١٠].

كانت هذه الصرخة بليغة في مضمونها لانها جاءت متأخرة ثلاثة أيام عن سقوط بغداد، وهي لم تعلن من الرئيس الا بعدما أزيلت صورة الموزاييك لوالده، بالرغم من أن وسائل الاعلام العالمية كانت تؤسس لاعتبار «صورة التمثال الرمزية» هي الصورة المعبرة عن الحرب الاميركية على العراق.

كيف بدا المشهد الرمزي؟

تجمهر عراقيون حول قاعدة تمثال برونزي ضخم للرئيس العراقي صدام حسين ورشقوه بأحذيتهم «البلاستيكية»، ثم رفع أحدهم الآخر على كتفيه للوصول الى التمثال، فوضع حبلا حول عنقه تمهيداً لجرّه حافياً الى الشوارع تماما مثل المتجمهرين. وبعد محاولات فاشلة سحب جندي اميركي من جيبه علماً أميركياً ليغطي به رأس التمثال نذيراً بإعلان «إعدامه» وهو فوق رافعة دبابة اميركية، غير ان الحشود تذكرت عريها فهاجت وماجت وأصابعها ترتفع نحو العلاء تطالب بإنزال العلم الأميركي ليحلّ مكانه العلم العراقي القديم أي خلواً من عبارة: «الله أكبر» التي أضافها اليه الرئيس العراقي، في «جنوح» إلى الديني بعد «علمانية» البعث، وذلك مباشرة بعد حرب الخليج الأولى في العام ١٩٩١. وكان لا بدّ من آلية تسقط التمثال في النهاية، فوق المخطط المرسوم، فالتوى وسقط عن قاعدته مؤلفا الصورة - الحدث التي ذكرت العالم مباشرة بإسقاط جدار برلين أو سقوط عهد ستالين.

وهكذا تابع العالم عبر الأقنية الفضائية لحظة بلحظة الصورة - الحدث التي هوى فيها التمثال فتدافع الجمهور الى دوسه وضربه بالأحذية.

وجاءت هذه الصورة المحورية لتعلن نهاية الحرب المحشورة في زاوية من ساحة الفردوس أمام سقوط التمثال.

وترتفع المفارقة فوراً بين مجموعات لا تنتهي من الصور التي تفرزها الاذهان لشدة تناقضها، ويتساءل الباحث لماذا صورة التمثال هي المحورية؟ وكيف فرضت مشهدها؟

٥ - المحورية في صورة التمثال

الجواب البديهي السريع: لأنهم قبّلوا يديه في اليوم الأول وفي اليوم التالي ضربوه بالأحذية صورة وتمثالاً.

وهنا تتزاحم الصور متبعثرة فنرى «الصورة تتكلم»، ونرى «صور الحرب» أو «الكتابة بالصورة» أو «الحرب بالصورة» وكلها مساحات خصصتها الأقنية الفضائية ومواقع الإنترنت للصورة بشكل عام:

أ - صورة لصدام حسين في حي المنصور بين جماهير العراقيين يقبلون يده هاتفين: «بالروح بالدم نفديك يا صدام» و«بوش بوش اسمع زين كلنا منحب صدام حسين». ولا يتوانى صدام عن حمل طفلة صغيرة ترتدي الابيض تتغنج فوق صدره، أو رفع يده بالتحية معتلياً مرتفعا وسط الجمهور كما لم يمنع الموقف الصعب بعضهم من مناداته بـ«أبو عدي».[١٢] فالخوف يزيل المسافات بين الحاكم والمحكومين.

ب - صورة الفلاح علي عبيد منقاش حاملا بندقية صيد وقد اسقط بها طائرة هيليكوبتر أميركية «أباتشي» في أثناء إغارتها على كربلاء، وهي طائرة مدرعة ومصفحة لحمل القنابل. وقد صدّق الصورة الكثيرون من خلال الإعلام الفضائي. والدليل أن الرئيس الليبي معمر القذافي منح عبيد «نوط الشجاعة» فتحول الى ما يشابه الاسطورة[١٣] في وسائل الاعلام العربية.

ج - صور ضحايا القصف الاميركي البريطاني للعراق، خصوصاً صورة الطفل العراقي الذي لم يبقَ منه سوى «طاسة» رأسه المهمشة[١٤].

والواضح ان لعبة صور الاطفال بدأت منذ الحرب في أيامها الأولى فلجأت النيويورك تايمز مثلا الى نشر صورة جندي أميركي[١٥] يحتضن طفلة عراقية وتحتها تعليق مختصر بأن الجندي يحتضنها لأن امها قتلت في الحرب، أو مثلها صورة ضابط أميركي يداعب طفلاً عراقياً عرضها الجنرال الأميركي فنسنت بروكس، في مقر قيادته في قطر، وقال معلقاً بأن اطفال العراق يتعرّفون الى الحرية للمرّة الأولى في حياة بلدهم[١٦].

د - صورة استسلام قائد الفرقة ٥١ من الجيش العراقي مع افراد فرقته، وقد روّجت لها الفضائيات الغربية بشكل فاضح ثم أطل قائد الفرقة بمقابلة مع محطة الجزيرة من مدينة البصرة[١٧].

هـ - صور الجنود الأميركيين الجرحى في مستشفى البصرة وهم ممددون فوق البلاط، والتأثر العميق الذي بدا ظاهرا على صفحة الرئيس الأميركي جورج بوش، ومثلها صورة الاميركي الذي فقد ولده المشارك في حرب العراق وهو يحمل صورته الشمسية مخاطباً بوش: «لقد انتزعت مني ولدي الوحيد، وصرت بلا ولد الآن. هل انت مسرور؟ أريد من بوش ان يلقي نظرة على صورة ولدي هذه. انه ابني الوحيد».[١٨] وكذلك صورة أم اميركية تتوسل الى الرئيس الاميركي انقاذ ابنها الواقع في الأسر العراقي، ووضع حد لهذه الحرب العبثية[١٩]. أو صور لجنود بريطانيين وأميركيين مرميين في الصحراء.

وكان لعرض التلفزيون العراقي صوراً لجثث جنود أميركيين لقوا مصرعهم أثناء معارك الناصرية جنوبي غربي العراق، او لأسرى وقعوا في قبضة المعارك نفسها[٢٠]، الوقع الهائل في نفوس الأميركيين، وهو ما حدا بوزير الدفاع الاميركي دونالد رامسفيلد الى اعتبار عرض الصور مخالفاً لاتفاقيات جنيف[٢١]، وذلك مع تناسي الوزير الاميركي للصور التي عرضتها محطات التلفزة الأميركية لاسرى عراقيين وقعوا اسرى في ايدي القوات الأميركية جنوبي العراق. وقد ادّعى الرئيس الاميركي انه لم ير صور القتلى الأميركيين (٢٠٠٣/٣/٢٤).

و - صورة السائق المصري الذي اقرّ بنيته قتل اميركيين إذ كان يعمل في معسكر «الأديرع» في الكويت عن طريق دهسهم بشاحنته في شمال الكويت.

والسبب كما قال انه وقع تحت تأثير الصور التي كانت تعرضها القنوات الفضائية وخصوصاً الاطفال العراقيين الذين قضوا خلال القصف الاميركي للمدن العراقية.[٢٢]

ز - صور أول سيدتين عراقيتين نفذتا عمليتين انتحاريتين عند نقطة تفتيش في الحديثة قرب بغداد، وقد اعلنتا عن عمليتيهما في قناة «الجزيرة» ومن ورائهما العلم العراقي وقرآن كريم ورشاش، وقامتا بتلاوة وصيتيهما قبل التنفيذ

الفعلي لعمليتيهما[٢٣].

ح - صور السلب والنهب في الموصل وبغداد[٢٤] وقد عرضتها شاشات التلفزة في العالم لتنقل صورة مرعبة عن العراقيين إذ بدا العراق غابة فعلية، وجاءت الصور مصحوبة بتحليلات وتعليقات جعلت المهمة الأساسية من الحرب وكأنها محو الماضي والتراث والتاريخ بشكل كامل.

وتختتم الصور بمجموعة صور للمطلوبين من القياديين العراقيين عرضتها القيادة الاميركية بشكل ورق للعب احتل صورتها الأولى الرئيس العراقي المجهول مصيره صدام حسين.[٢٥]

لماذا تتمحور هذه الصور وصور كثيرة غيرها حول صورة التمثال؟

لأنها بقيت، كما يظهر، لحظات مجتزأة من الكلام أو من المساحات التصويرية التي شغلتها الحرب على العراق، وهكذا يتبدّى للباحث بأن كل ما له علاقة بهذه الصور أو بكلامها الكثير قد تحول ليشكل تاريخاً كاملاً لثلاثين سنة من حكم العراق يمكن أن يضعها الباحث تحت صورة انهيار تمثال صدام.

من هنا، تبرز اهمية اعتماد المصطلح الفرنسي او حتى اللاتيني لما يعرف بكلام الصورة، ونعني به الـLégende والتي تعرف في ترجمتها بالاسطورة.

أليس في كلام الصورة التي تختزل الحرب الأخيرة وتحتل لازمات وسائل الاعلام المرئية المسموعة مجموعة من الأساطير والخرافات الشخصية التي خففت ربّما، من حدّة التأثر في مواجهة صورة «الهزيمة» العراقية.[٢٦]

وفي ضوء ما تقدم، وفي قراءة سريعة لربع قرن من تاريخ «عراق صدّام» أو عقاره قد نفهم ردود الفعل العراقية حيال الصورة المرتفعة للتماثيل، وتزول المفارقات من الأذهان، وتبدو ذرائع الحرب الاميركية في أساس اعلانها أكثر توهجاً من إعلان الحرب على صدام حسين ونظامه بالتحديد، مع أن واقع الأمور ليس كذلك، وهذا موضوع بحث منفصل.

فتكريس عبادة الأصنام والتماثيل تخلق فصاماً لدى الجماهير إذ ينتقل الحيز المكاني للسلطة الى مستوى المشاهد أفقياً.

«فعندما يرفع المؤمن عينيه نحو الصورة المقدسة الالهية او التمثال، فهو لا يستطيع إلاّ خفضهما، لأن نظر الخالق أو سيده هو الذي يطغى عليه. لذا يعتاد ان يخفض بصره وينحني، ولأن النظر الى الاعلى يفترض ادراك الضعف ممّن هو فوق.. فكل هندسة السلطة في التاريخ قائمة على إظهار صورة القوة عن طريق الارتفاع والملامح القوية والمذهّبة».(٣٧)

قد تخلق هذه العبادة الى جانب الفصام ثورة سلوكية تدميرية لا واعية محكومة بالتدمير العشوائي، وتلك المسألة لا تعود الى العراقيين بل إلى كل جماعة عانت ما عانى منه هؤلاء، ولا يعني اسقاط التماثيل العراقيين وحسب، بل ان الغرب بشكل عام، قد سبقنا الى إزالة التماثيل منتقلاً من تمثال الى آخر. وظهر الفن الجمالي العام يحتل موقعا متوسطا بين الصورتين الحجرية والضوئية.

٦ - معارك الصور وانقلاب الصورة

لسنا في صدد استرجاع مشاهد الحرب الأميركية على العراق التي أخذت عنوان «الصدمة والذهول» والتي خلناها «صدمة معكوسة» بسبب من ردود الفعل على الصور والتي جعلت حقيقة الحرب ضحية صورها، بل نحن في صدد إظهار النتائج النهائية لمعارك الصور التلفزيونية التي عاش العالم من خلالها هذه الحرب كواقع يومي جديد، على الأقل، بالنسبة للعرب، وأقل ما فيها أن العنوان قد أصاب الهدف المتوخى فسقطت العراق بسقوط بغداد والتمثال، وبقيت تجربة عربية على مستوى معركة الصور تستأهل البحث.

وهنا نسوق الوقائع التالية:

أ - كانت صورة الحروب على مدى القرن العشرين الأداة الأبلغ في الترويج للحروب ورواية تفاصيل المعارك. وكان العرب في موقع متأخر في استخدام هذه الأسلحة الجديدة، ولا نغالي، اذا قلنا، ان أقصى الطموحات كان إيصال رسائل الى بريد القراء في الصحف الاجنبية أو صوت مناهض لما يحصل من أحداث.

كان الإعلام العربي، في هذا المجال، «بالعربي»، لا يصل الى حيث يفترض إيصاله، ولأنه كذلك فهو كان يدور بين العرب انفسهم ليترك صوراً عامة حافلة بالتقاتل والتنافر والشرذمة وكل ما يناقض وحدة العرب.

ب - مع التقدم التكنولوجي راحت تتلاشى الفواصل الزمنية التي لا تفصل بين لحظة وقوع المعركة ولحظة بث صورها. ففي الخامس من أيار ١٨٢١ إحتضر في جزيرة القديسة هيلانة نابليون بونابرت امبراطور فرنسا الذي كانت اوروبا ترتعش أمامه، ولم يصل الخبر الى باريس إلاّ في أول تموز عبر لندن، وقد اخذ الخبر اكثر من عشرة اسابيع حتى يصل الى إعلام القراء بذلك[٢٨].

بينما طاف خبر مقتل الرئيس الاميركي جون كينيدي وصوره العالم كله خلال خمس دقائق ومنذ اللحظة الأولى التي أصابته فيها طلقات تلك البندقية السريعة من طراز كاراكانو، وبعد ذلك ببضعة أيام كان مشاهدو العالم يعاينون حدثاً آخر هو مقتل لي أوزوالد lee oswald المتهم بقتل كينيدي[٢٩].

وكان هذا أول حدث دولي للقرن الماضي إذ فرضت الشاشة التلفزيونية وزنها كوسيلة أساسية حيث واكب العالم دفن الرئيس عن طريق البث المباشر ومن دون توقف نهاراً كاملاً.

وقد أدّى تقلّص الزمن الى تحولات في صور الحروب دفعتها من اللهاث وراء الحدث والتعامل مع نتائجه، الى مقام القدرة على المساهمة بصناعة الحدث نفسه وتحويره أو التأثير في اتجاهاته. وباتت الصورة مسألة قيادة كما قيادة الحروب. ويمكننا القول أنه بعد أربعين عاماً أدرك العرب بدايات هذه القوة للصور في معاركهم ودخلوا فيها بشكل لافت.

ج- كانت حرب الخليج الأولى على العراق حرباً بصرية حسمتها كاميرا الـ C.N.N الأميركية، وهي بهذا المعنى بدت افتراضية غير مرئية ولا تترك آثاراً كبرى لدينا.

فقد وزّعت المحطة جيشاً كبيراً من المراسلين والمصورين من واشنطن الى بغداد، وأتقنت من خلالهم لعبة الصور الى الحد الذي جعلنا نقرأ مقالات بعنوان

«حرب الخليج لم تقع»[٣٠] مثلاً تطرقت فيها الى هذه الحرب كما بدت على الشاشة التي جعلتها وكأنها لم تحصل فعلاً أو أنها وهمية، مع العلم بأن الشاشة أصبحت أكثر من مرآة بل إنها ميدان معركة.

واذا كانت الاخبار تصنع التاريخ الذي يصنع بدوره الجغرافيا فكيف نرى الى دور الأخبار المصورة التي تجعل كل صورة مبثوثة تقريراً اجتماعياً متحولاً الى مشاعر فردية سارة أو مؤلمة. إنه عصر On the spot الذي حوّل الصحافيين الى قدرات قادرة على توجيه الأحداث والمعارك، وخصوصاً في العمليات العسكرية على الأرض عندما يتراجع التحليل المكتوب عن القيام بدوره، وتتقدم الصور لنرى الأشياء تحصل فتمنحنا شعوراً بأننا نقرأ في كتاب مفتوح.

«كنا نجد من جهة الصور «النظيفة» التي تقدمها المراكز الصحافية للبنتاغون وتلح على رؤية الإصابات الدقيقة للأهداف العسكرية من على شاشة الطائرة، في الوقت الذي لعبت الـ C.N.N وحيدة في بثها المباشر لمنظر الألعاب النارية في أثناء قصف مدينة بغداد. ولم تظهر لا على شاشات الطائرات ولا على شاشة الـ C.N.N، آنذاك، صور الـ ١٥٠ ألف قتيل من العراقيين التي أورثتها هذه الحرب.

وحتى في المرة التي ظهرت فيها صور لأشلاء ضحايا ملجأ العامرية في بغداد الذي قصفته القوات الأميركية[٣١]، فإن ادارة معركة الصور احتوت واقع هذه الصور لترويجها بأن الجانب العراقي هو الذي قام عمداً بقصف الملجأ أو أن النظام يستخدم المدنيين دروعاً للتمويه على وجود منشآت عسكرية بالقرب من المكان المقصوف.

وهنا تدخل معارك الصور في لعبة فائقة عنوانها:

كيف تجعل الصورة تكذب؟

الجواب: عن طريق الكلام والتحليل وخلق الأساطير Légendes أي باللجوء إلى «فبركة» كلام الصورة والتعليق عليها.

وبالإضافة الى ذلك، فقد تحوّلت الـ C.N.N في نشراتها الى Téléthon لنقل صورها المنتقاة عن محطتي الجزيرة وأبو ظبي واستعانت بالعديد من الصور

الفوتوغرافية للشهداء وأسرى الحرب أو بصور منقولة عبر «الفيديوفون» وخصوصاً في المناطق التي وقعت تحت سيطرة القوات الأميركية والبريطانية.

وقد كان موقع المحطة على الانترنت بالغ التحيّز، إذ أفرز قسماً خاصاً من نشرته الدولية بعنوان Pictures gallery أي معرض صور، كان يبث منها الصور للمعارك يوماً بيوم. وقد قسّم هذه المعارض اليومية الى عناوين أربع:

- Warfare وتبث منها صور الجنود الأميركيين يقدمون المساعدات الى المواطنين.
- Reactions ركّزت فيها على ردود فعل العراقيين واستقبالاتهم الحارة لجنود التحالف.
- Pows وفيها عرض لصور المعتقلين والأسرى الأميركيين على أيدي العراقيين وليس العكس.
- Families of Pows وهي صور وتعليقات لردود فعل أهالي الأسرى والمعتقلين من قوات التحالف.

وقد ركزت هذه الصور بنسبة ٩ لكل ١١ من الصور على المساعدات التي كان يقدمها جنود التحالف الى المواطنين العراقيين. وبالرغم من تبني الـ C.N.N الكامل للسياسة الأميركية، إلا أنها كانت مضطرة أحياناً كثيرة الى إبراز وجهات النظر العربية عبر استعانتها بصور الأحداث التي تبثها المحطات الفضائية العربية (www.cnn.com).

د- لقد غابت المسألة الديمقراطية كلياً عن حرب العراق الأخيرة، فبينما مارس الاعلام العربي ليبرالية مطلقة، لمسنا أن رقابة مشددة باتت صارخة على الاعلام الغربي.

لقد أدركت القيادة الأميركية أن نقل أنباء حربها الأخيرة وفقاً للأسلوب السابق بات أمراً مستحيلاً، والسبب أن تطور تقنيات البث المباشر بات مستباحاً في عصر العولمة، لدى جميع أقنية التلفزة في العالم، مما يحول دون التمكن من السيطرة على تدفق المعلومات والصور وتوجيهها بالأشكال المناسبة.

لهذا لجأت الإدارة الى بناء قاعدة اعلامية هائلة في السيلية في قطر، وجرى السماح لـ ٥٠٠ مراسل ومصور صحفي بالإنضمام الى القطاعات العسكرية الاميركية والبريطانية التي قامت بدخول العراق.

وكان الهدف «تقديم أفضل الصور في أفضل ظروف»[٢٢] على حد قول الكولونيل فرانك ثروب المسؤول الاعلامي في قاعدة السيلية.

هذا الدمج بين الجندي المقاتل والصحافي المصور يتقاسمان الحياة الصعبة على أرض المعركة، جعل عدداً كبيراً من الكاميرات لا ترى إلا بعيون جنود التحالف. وما خروج «عيون» الكاميرات عن المسموح به من التقاط صور تثبط عزائم الأميركيين أو ترفع من حدة التظاهر والاحتجاج على الحرب في عواصم العالم، إلاّ مسألة تبقى تحت دائرة الرقابة. ولأن صوراً من هذا الطراز، تولد ميتة إذ تقع ضحية القوانين الأميركية التي تحول دون نشرها قبل ثلاثة أيام من وقوعها، ولهذا فهي تصل متأخرة وتبطل قيمتها الخبرية والتأثيرية، بالإضافة الى أن وسائل الإعلام الأميركية لا تتحمس لنشر مثل هذه الصور التي تدينها أساساً.

كانت الصورة تركّز على الإمعان في إبراز الدكتاتور صدام حسين كما أشرنا، بتماثيله وقصوره وأشيائه العتيقة وسياراته ومقتنياته وشعبه وعراقه بهدف اسقاطه.

كما كانت تركز في عين الغرب المستلقي على فعلي الغريلة والإنتقاء للصور المفجعة من المدنيين العراقيين، والتي غالباً ما كانت من بضاعة مراسلي الأقنية العربية، فيترددون في بثها، ويبقون على الأقل فظاعة منها.

هـ - دخل الإعلام الأميركي «بيت الطاعة» لجنرالات الحرب الاميركيين.

وبان الفرق في بث الصور بين العربي والأميركي أو بين الأنا والآخر مسألة ثقافية مختصرها السؤال التالي:

هل نبث على الشاشة كل ما هو في المشهد ومهما كان قاسياً ومرعباً؟

هذا الفرق بين «كل» و«بعض» المشاهد هو الجديد في معارك الصور الفجّة إذ انصرف العرب الى بث حقائق الحرب كلها وأخبارها ومشاهدها كما هي ومن

دون أي خطة، وفي هذا ربما يكمن نجاح خطوتهم الكبرى في عالم الفضاء.

وبالرغم من أن فريقي الحرب المباشرين، أميركا وبريطانيا من جهة، والعراق والعرب من جهة أخرى قد استخدما معركة الصور الى أقصى الحدود بحذق ودقة متناهيتين، وببراءة وقتال حقيقي، فإن العالم بات مقسوماً بين أميركا من جهة والعالم كله من جهة أخرى في تقديم هذه الحرب وكأنها حرب عصر العولمة الأول.

هكذا تبطل مفاهيم مثل العالم الثالث أو العالم النامي، إذ أسقطت صور الفضائيات العربية مقولات «الحرب النظيفة» وكادت تسقط في بدايات القتال صورة الحرب «الأميركية السريعة الذوبان» أو القصيرة الخاطفة التي ترسخت في الذهن العام، مع أن لا تصريحات أميركية قالت بقصرها. وأكثر من ذلك فإن الصور الصادقة والفجة التي كانت تبثها وسائل الاعلام العربية، في عصر الانفتاح الفضائي، دفعت الادارة الأميركية الى ضخ شحنات مكثفة من الإيديولوجيات والصور العدائية المقاتلة لنظام صدام حسين في الحقل الاميركي تحوّل الى نقطة إشباع راحت تتراجع وتخبو أمام ما يظهر على الشاشات العربية البعيدة الغريبة. وقد ساعد في ذلك صور الجنود الاميركيين المنهكين أو المصابين بنقص في الإمدادات ما يؤخر تقدمهم نحو بغداد، وهذا ما أيقظ في الذاكرة الاميركية صور الأيام والأشهر الأخيرة من حرب فيتنام.

بين صور العرب كلها وكما هي، وصور أميركا المقنّنة والمدروسة والمنقولة أحياناً عن «الجزيرة» (سي.ان.ان) في شريط خبر في أسفل شاشتها أو صور شاشات أوروبا غير المؤذية كثيراً لمشاعر المشاهد الأوروبي، وخصوصاً الصور الفرنسية المحايدة وغير المعبّرة تماماً (TF1, France2, France3, Euronews) أو الصور الايطالية المنخولة نقلاً عن «الجزيرة» (محطة Ray) والبريطانية التي اعتاد أهلوها على تلقف الصور باردة متأخرة كما الطبيعة الانكليزية (B.B.S) وهي لم تكن تقدم إلا صوراً متحيزة لأميركا تماماً كما فعلت T.V.A الاسبانية، خلافاً للصور الروسية التي كانت أكثر التصاقاً مع صورة الحدث وسخونته (R.T.R)..

هذه الصور في معاركها المكثفة بدا حضورها كبيراً في شوارع المدن العالمية وساحاتها حتى في الولايات المتحدة الأميركية، حيث لم تشهد حرب منذ القرن الماضي تظاهرات صاخبة واعتراضات مثل ما أورثته هذه الحرب الأخيرة الأميركية على العراق.

وفي ضوء هذا كانت وسائل الاعلام الأميركية والدمى الممثلة للرئيس الأميركي تحرق وتداس ليس في شوارع المدن العربية والإسلامية بل في المدن الأخرى من القارات الأربع التي كانت ترفع صوراً وشعائر كان لها ثقلها في ميدان المعركة. وفي هذا الإطار، وبصرف النظر عن نتائج الحرب، فإن كلاماً كمثل الذي جاء على لسان محمد حسنين هيكل بحاجة الى اعادة تدقيق مذكراته وهو يغطي وقائع الثورة الاسلامية في ايران أنه صادف «في طهران طواقم عدد من شركات التلفزة الأميركية تبحث عن مظاهرات تحرق العلم الأميركي. وكانت تلك هي الصورة المطلوبة لإظهار ان الثورة الإسلامية عدو للغرب وللولايات المتحدة... وقد صادفت (يقول) موقفاً يكاد لا يصدق، فقد وصل طاقم تلفزيوني الى طهران بمصوّريه وبعدساتهم، واللافت أنهم جلبوا معهم مجموعة من الأعلام الأميركية يسلمونها بأيديهم الى المتظاهرين كي يحرقونها أمام الكاميرات، وكان المتظاهرون متلهفين على تخاطف الأعلام الاميركية واشعال النار فيها من دون ان يخطر لهم أنهم وقعوا في شراك فخ الصور»[٣٣]. والتدقيق يطول إعادة تقسيم العالم مجدداً في عصر الإمبراطورية الأميركية التي أخذت بفنون الصور والاعلام وحيدة في وجه العالم بأجمعه.

و- لقد كانت محطة «الجزيرة» هي الباب الواسع الذي دخل منه الاعلام العربي عصر الفضاء، بالرغم من أنه لم يدخل تماماً عصر التراب (الحضارة الزراعية) ولا عصر الماء (الملاحة والتجارة ولو أن الفينيقيين كانوا أول من سبق خطوات كريستوف كولومبوس حول رأس الرجاء الصالح بحثاً عن القارة الأميركية)، فقد اكتسب هذا الاعلام حضوره وصدقيته منذ الحرب الأميركية على افغانستان واستطاعت الجزيرة من العاصمة (كابول) أن تكون مخزناً لصورٍ

مباشرة عجزت عنها أعتى الفضائيات.

لقد تقاسم الفضاء، الى جانب «الجزيرة» في أثناء هذه الحرب الأميركية الأخيرة على العراق، أقنية «أبو ظبي» و«العربية» والـ «L.B.C» و«المستقبل» و«المنار» اللبنانية. وقد ألفت الى جانب الفضائية العراقية الشاشة الكبرى «القاسية» القادرة على نقل الصور الكلية البانورامية. ولو أن تماهيات كانت واضحة على الشاشة الأميركية C.N.N في نموذجها سواء أكان من حيث الشكل أو من حيث الأنباء والعناوين في أسفل الشاشة أو في دعوة «خبراء» عسكريين متقاعدين أسقطوا في معظمهم صدقية الشاشة، الأمر الذي دفع بهم الى حصر ما يقدمونه من تحليلات ومواقف بهم شخصياً لا بقيادتهم ولا بأركان جيوشهم وهو ما تمّ اختصاره ليحتل أسفل الشاشة.

وقد لا نظلم هذه الشاشات العربية لو قدّمناها من حيث أخبارها وطرائقها C.N.N ولكن بلغة عربية وبمضمون عربي مفتون بالاستعراضية والتحريض العاطفي واللذة في الإثارة.

وقد ظهرت «مدينة الخيم» على سطح وزارة الإعلام العراقية حيث راح الصحافيون ينتظرون الحرب من هناك في خيم نصبوها مقابل قاعدة السيلية في قطر.

وبدا منذ اليوم الأول للحرب أن «الجزيرة» قد رفعت لواء الحقيقة مهما كانت قاسية وتبعتها في ذلك قناة «أبو ظبي» بينما رفعت «العربية» مبدأ التوازن الذي وصل الى حدود الإرتباك خصوصاً وأنها باشرت بثها مع اندلاع المعارك، بينما بدت الـ L.B.C على مسافة متوسطة بين القناتين، لكنها كانت تهتم بالعراق وتحاول الإستفادة الى أقصى حد من مراسلي «الحياة» وأحوالهم.

كانت شاشة «الجزيرة» نجمة الشاشات العربية وقد «قصفها» وزير الدفاع الأميركي رونالد رامسفيلد في مؤتمراته الصحافية ومثله وزير الخارجية كولن باول الذي اعتبرها «محطة تفتقر الى الموضوعية في أخبارها حتى في صورها الإستعراضية، فهي تضخّم الانجازات العسكرية للنظام العراقي وتلقى قبولاً

ملحوظاً عند العرب وبعض أقنية الغرب»[٣٤]. وفي المقابل نجد وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف يستشهد بها في مؤتمراته بالقول: «كما ذكرت الجزيرة أو كما رأيتم على الجزيرة».

تبرز عملية «إنقلاب الصورة» في كيفية تعاطي المسؤولين البريطانيين والأميركيين مع قدرات العرب المستجدة في ميدان استعمال صور الحرب وخصوصاً الجزيرة».

فقد افتتح قائد القوات البريطانية في الخليج بريان بوريج مؤتمراً صحافياً مهاجماً فيه الاعلام العربي ومحطة «الجزيرة» التي «تعرض صوراً مروعة عن قرب»[٣٥] لجنديين بريطانيين قتلا في المعارك وقد ارتفع الهجوم الى مستوى رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير الذي عبّر عن «غضبه على «الجزيرة» لعرضها صوراً لجنود بريطانيين قتلى وأسرى»[٣٦].

ولم يتردّد الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية ريتشارد باوتشر من انتقاد تغطية وسائل الاعلام العربية للحرب على العراق بقوله: «كثيرون من العاملين في الصحافة العربية يشوّهون الأشياء، ويعرضونها، ويا للأسف بطريقة مثيرة... جلّ ما نطلبه صراحة هو أن يكونوا صادقين، وأن يأخذوا في الاعتبار وجهات النظر المختلفة وينظروا الى الوقائع... لقد لفتت بعض وسائل الاعلام المكتوبة اهتمامنا بصورهافي الأيام الأخيرة، أو «ادعائها بقصف مسجد»، أو قصف حي الشعب، «مدعياً أن صورة المسجد قديمة، وبأن «سبب الحادث الثاني لم يعرف رسمياً»[٣٧].

قصف الصورة

ولشدة تأثير «الجزيرة» تعرّض موقعها على الإنترنت الى قرصنة إلكترونية[٣٨] أو ما يعرف بـ«الهاكرز»، ويعتقد أنه جاء من جهات كبرى حرمها من إظهار صورها لأيام أربع متتالية.

وقد استدعى المجلس الأعلى للإعلام المرئي والمسموع في فرنسا مدير مكتب الجزيرة في باريس ميشال الكيك للإستفسار منه حول خطورة بث صور القتلى والأسرى من الجنود الأميركيين على الشاشة[٣٩].

كان لا بد إذاً من قصف الصورة المقلقة والمزعجة ومحاولة قتلها. وبالرغم من صعوبة هذا الأمر فقد أغارت الطائرات الأميركية على مكاتب «الجزيرة» وقناة «أبو ظبي» ووكالة «رويترز» للأنباء في فندق فلسطين في حي الكرخ في بغداد، وقتل مراسل الجزيرة طارق أيوب وظهر جلياً مشهد النقل الأكثر حيوية حيث سال الدم على الكاميرا، وأصيب المصور الصحفي زهير العراقي[٤٠]. وسواء أكان القصف بسبب من قوة الصورة أو لأسباب أخرى جعلت نهاية الحرب زاخرة «بالصدمة والهول»، في اليوم الثاني، وحافلة بالألغاز، فإن المستقبل هو الكفيل بفك الطلاسم السياسية والعسكرية، دون أن تفقد الصورة حضورها العربي الأول الفصيح. فالدخول الى عصر الصورة مسوولية كبرى.

٧- فتح ألبومات التاريخ

من الطبيعي، ربما، أن تقصف الصورة لأنها بدأت تقتل وتجرح وتثير المشاعر الحماسية في العالم، وتضاعف المظاهرات وترفع من أصواتها. لقد غلبت على هذه الصورة المجبولة بالدم ملامح التدمير والغثيان التي تقشعرّ لها الأبدان، وتجعلنا نرتجف، وخصوصاً أمام المهارة في إبراز صور الأطفال المهشمين، الأمر الذي يستدعي البكاء والتقيؤ والإصابة بالغيبوبة والإدانات بكافة وسائل الإتصال.

صحيح أن هذه الصور نبع للكلمات التي ما عادت تجد أمكنة لها معترضة في أروقة البيت الأبيض وفوق شاشات التلفزة عموماً، فأنها كلمات كانت تساعد، كما على الدوام، في التقدّم نحو المستقبل، بينما تنشدّ الصور نحو الماضي الذي يحرّك فينا قوة المستقبل «فسرّ قوة الصورة هو من دون شك قوة الوعي في الإنسان»[٤١].

ولا نتصوّر بأن الاهتمام بانطلاق الصورة في معارك الصور العربية-الأميركية الأخيرة نابع من كونها معارك مستجدة في تاريخ الصراعات الدولية، لأن فتح «ألبومات التاريخ» والنبش فيها يجعلنا منذ مئة وخمسين سنة تقريباً أمام سلسلة من الصور التي غيّرت كثيراً في المعادلات والتحالفات والقرارات.

فمنذ حرب شبه جزيرة القرم (١٨٥٥) كان أول ظهور للتحقيقات الصحفية المزدانة بالصور النادرة[٤٢] وصولاً الى الحرب الأميركية على العراق ... قرن ونصف كانت الصورة الصحفية ملازمة فيها للحدث ولمجمل أحداث العالم، بالإضافة الي دورها (الصحافة) في إعادة البشرية الى الصورة وفاعلياتها بعدما كانت استغرقت في الكتابة والرموز.

وبهذا تكون الصورة قد عادت الى رحمها الأول الذي منه انبثقت الحضارات الكتابية. ألسنا في عصر نسميه بعصر الـ IMAGOS وهذا مصطلح يلحّ على الحضور البشري المعاصر نستلهمه من الـ CHRONOS أو مفهوم الزمن الذي بدا شديد الإلحاح في فكر الإنسان وحضوره البشري متوسطاً مبدأي Heros الإيروس (اللذة) والـ Tanathos التاناتوس (الألم)؟

ويقودنا فتح ألبومات التاريخ الى مجموعات كبيرة من المحطات التي تبرز الأدوار الأساسية للصور في الحروب[٤٣].

فمن صور الحربين العالميتين الأولى والثانية وفيها صور هتلر وما ألحقه بالمانيا والعالم من آلام ومآسٍ الى صور ستالين (الذي تسلّم السلطة بعد موت لينين في العام ١٩٢٤ وكان السيد المطلق في الاتحاد السوفياتي الذي امتهن تصفية معارضيه وزراعة الرعب في الأرض الآسيوية عبر ملايين الأبرياء الذين جرى تعذيبهم وقتلهم) ومثله صور موسوليني أيضاً. ونجد في هذا «الألبوم» صور قنبلة هيروشيما النووية إذ القتها القوات الأميركية فوق هيروشيما في اليابان (٦ آب ١٩٤٥) وحصدت بذلك مئة ألف ضحية وعشرات ألوف الجرحى والمشوّهين، الأمر الذي حذف المدينة اليابانية من خارطة العالم. ولكن النتائج هذه كانت قد مسحت عار بيرل هاربور عن وجه الولايات المتحدة التي ألقت في التاسع من الشهر نفسه (١٩٤٥) قنبلة ثانية في ناكازاكي دفعت بها إمبراطورية الشمس لبلاد العم سام موقّعة نهاية الحرب العالمية الثانية من دون شروط. ونجد في الألبوم صور المجازر الإسرائيلية التي بدأت في العام ١٩٤٨ واستمرت من دون انقطاع ضخ صور المآسي والمجازر من دير ياسين الى قانا اللبنانية فإلى مخيم جنين

والضفة وغزة وصولاً الى انتظارات لا تنتهي يأتي آخرها «خريطة الطريق» الذي تقدمه الإدارة الأميركية ويحمل دولة فلسطينية في الـ ٢٠٠٥ هي أقرب الي الوهم والخيال.

وهنا تقفز صور الحروب العربية-الإسرائيلية ١٩٦٧ و١٩٧٣ ومثلها تقفز آلاف الصور المرتبطة بالمخيمات والحروب اللبنانية في الكرنتينا وتل الزعتر وصبرا وشاتيلا وصولاً الى صورة محمد الدرة في الأول من تشرين الثاني ٢٠٠٠.

ونجد في هذا الألبوم مقتل لومومبا (١٧ كانون الثاني ١٩٦١) الذي أعلن عزمه على تحرير القارة السوداء، وتبدو صور اعتقاله ومقتله بيد الكولونيل موبوتو بتدبير ومساندة من المخابرات الأميركية.

ونجد في أزمة الصواريخ (٢٢ تشرين الأول ١٩٦٢) مجموعات قليلة من الصور وقد خلّصت العالم من كارثة نووية. فقد أعلن الرئيس الأميركي جون كيندي الحصار على كوبا لوجود صواريخ نووية روسية فوق أراضيها، الأمر الذي أنكره الروس وجعلهم في مواجهة شبه مباشرة في البحر الكاريبي. كما تواجها في مجلس الأمن، وكان عرض الصور التي تثبت وجود الصواريخ من قبل المندوب الأميركي حافزاً لتوقيع معاهدة حظر استعمال الأسلحة النووية في ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٢. ونجد صور مقتل كيندي بعدها (٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٢).

وتقفز الى الواجهة صور حرب فيتنام التي امتدت من العام ١٩٦١ حتى ١٩٧٣ مخلّفة عشرات الألوف من القتلى الأميركيين وآثاراً نفسية قد يصعب محوها في المجتمع الأميركي، وهي الصور التي رأيناها تحضر بالتوارد في أثناء الهجوم الأميركي الأخير على العراق، فقد تضاعف الشبه بين النزاعين بعدما صارت صور القتلى والأسرى الأميركيين تسيطر على شاشات التلفزيون خصوصاً وأنها المرة الأولى منذ حرب فيتنام تدخل فيها الولايات المتحدة الأميركية حرباً تلقى هذا القدر من المعارضة الدولية. إن أقوى صورتين تقفزان من حرب فيتنام هما صورة المليون متظاهر أميركي في واشنطن ضد الحرب (٢١ تشرين الأول ١٩٦٧) وصورة الفتاة الفيتنامية الهاربة مع أشقائها الصغار وشقيقاتها أمام دخان قذائف

النابالم (٨ حزيران ١٩٧٢).

لقد كانت حرب فيتنام الأولى التي نقلت عبر شاشات التلفزة يوماً بيوم، وكانت قوة الصور من الأسباب الجوهرية التي جعلتها تتجاوز قوة الأميركيين في أدغال فيتنام.

على هذا المستوى كان كتاب الاعلامي الكندي الشهير مارشال مالكوهان الذي ركّز فيه على تجربة الصورة في حرب فيتنام والدور الذي لعبه التلفزيون في حسم الحرب حيث لم يعد المواطنون مشاهدين للمعارك بقدر ما بدوا مشاركين في الآراء والمواقف ومختلطين بالعسكريين.

وكان مالكوهان في كتابه هذا الذي جاء بعنوان «الحرب والسلم في القرية الكونيـــة» (١٩٦٨) War and Peace in the Global Village هو من أطلق فكرة «القرية الكونية» والتي رددها قاطنو الكرة الأرضية من بعده وما يزالون.

ونجد صورة ثورة الثالث من أيار ١٩٦٨ حيث اسقط الطلاب في خلالها الزعيم الفرنسي شارل ديغول، وصور ربيع براغ (٢١ آب ١٩٦٨) حيث اجتاحت خلاله الدبابات السوفياتية تشيكوسلوفاكيا، وصور البؤس في بيافرا التي غدت مضرب الأمثال فور اعلان أهلها جمهورية بيافرا (٣٠ أيار ١٩٦٧) معلنين استقلالهم في القسم الشرقي من نيجيريا عن السلطة المركزية التي اجتاحتهم وحاصرتهم غذائياً، الأمر الذي أدّى الى أكبر كارثة بؤس وجوع في القرن العشرين حيث قضى أكثر من مليوني ضحية من أهالي بيافرا جوعاً.

ومن الصور المفصلية التي نجدها في «ألبومات التاريخ» صورة الخطى الأولى لنيل أرمسترونغ أول بشري على سطح القمر (٢١ تموز ١٩٦٩)، وهي صورة أساسية ارتاد من خلالها الإنسان عالم الفضاء على مختلف المستويات، وقد التقط نيل مجموعة من الصور بعدما فتح الكاميرا ووضع الفيلم في جيبه تاركاً آلة التصوير فوق سطح القمر لأن ما حمله من صخور وأحجار جعلته يفضّل حصاة كبيرة على الكاميرا.

ونجد حروب ايرلندا الشمالية، والصور الأخيرة لمقتل سلفادور الليندي الذي

انتخب رئيساً لتشيلي في ١١ أيلول ١٩٧٣ بانقلاب ضده مدعوماً من المخابرات الأميركية، حيث تمّ قتله وغرقت التشيلي في أعتى الدكتاتوريات التي عرفتها أميركا اللاتينية.

ونتصفح صور عودة الإمام الخميني مظفّراً الى طهران (١ شباط ١٩٧٩) بعد مضي خمسة عشر عاماً من النفي، وصور اجتياح افغانستان من القوات الروسية (٢٧ كانون الأول ١٩٧٩) وصولاً الى الحرب العراقية-الإيرانية (٢٢ أيلول ١٩٨٠) التي خلّفت أكثر من مليون قتيل من دون أن يكون هناك رابح أو خاسر من كلا الطرفين.

ونجد صور كارثة انفجار تشرنوبيل النووي (٢٦ نيسان ١٩٨٦) التي بقيت تزرع الموت ضحايا أكثر من اثنتي عشر عاماً بعد هذا التاريخ.

وبعدما هبّت رياح البريسترويكا على بلدان أوروبا الشرقية وفتحت هنغاريا حدودها على النمسا تدفق ألوف الالمان الشرقيين على المانيا الغربية مسقطين جدار برلين في ٩ تشرين الثاني ١٩٨٩ ليتبعهم في ما بعد تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا، ولتتوحد المانيا بعد عامين، وهي أحداث حافلة بالصور القائمة في الذاكرة وخصوصاً سقوط الجدار.

ولا يمكن إغفال «أوتوستراد الموت» الذي جاء في أعقاب غزو العراق للكويت (٢ آب ١٩٩٠) وردّه على أعقابه في «عاصفة الصحراء» (١٦ كانون الثاني ١٩٩١) وصور حرق آبار النفط (٦٥٠ بئراً) قبل الانسحاب العراقي من الكويت في شباط ١٩٩١، مما أهدر ٧٠ ألف طن من البترول وعاماً كاملاً من الجهود لإطفاء الحرائق دفع الكويت وحده ثمنها ملياري دولار للإطفائيين الأميركيين.

وقد لا تُنسَ صور مذابح الجزائر التي أرعبت العالم. ومنذ كانون الأول ١٩٩١ اعتبر فوز الجبهة الإسلامية في الإنتخابات الجزائرية ملغى مما أدخل الجزائر في حمّام من الدم وصلت تقديراته الى ٨٠ ألف قتيل فقط في العام ١٩٩٨.

قد لا تنتهي شرائط الصور التي تجسد الحروب اللبنانية من العام ١٩٧٥ حتى ١٩٩٠، فلا يمكن القفز فوق صور بوسطة عين الرمانة (١٣نيسان ١٩٧٥)، وسحل

الجثث والمذابح وحرق الأحياء ومذابح السبت الأسود وصور التهجير وخصوصاً حرب السنتين وعملية الليطاني (آذار ١٩٧٨) والإجتياح الإسرائيلي لبيروت (١٩٨٢) وصور الإسرائيلي في قصر بعبدا وصور أرييل شارون في لبنان، واغتيال بشير الجميل، والسيارات المفخخة المتفجرة. وقد تكون صور اسعاف بلدة المنصوري (٣ نيسان ١٩٩٦) وصور مجزرتي النبطية (١٨ نيسان ١٩٩٦) وقانا في اليوم نفسه هي الصور القوية النموذجية التي فاقت مذابح دير ياسين والعباسية ومعركة.

إن أقل ما تستدعيه هذه الصور التي تركت مربعات الموت في قانا أنها صور هزمت عدواً وساهمت في تحرير وطن عبر آلاف الصور التي كانت تمثل المقاومة الوطنية ضد «اسرائيل» وهي التي تركت لنا صور التحرير.

لا يمكن تصوّر هذه القيم والآثار التي حملتها هذه الصور عبر هذا التاريخ الطويل.

يكفينا السؤال: ألم تساهم صورة اسعاف المنصوري مثلاً لنجلا أبو جهجاه في دفع تفاهم نيسان، وهل كان بوسع الرئيس الياس الهراوي رئيس الجمهورية اللبنانية السابق إلا حمل صور قانا والنبطية وإسعاف المنصوري الى البيت الأبيض؟

وقبل أن نقفل هذا «الألبوم» نميل الى التوقف عند صور انهيار البرجين في الولايات المتحدة لمحوريتها أولاً، ولأنها محطة كبرى قد تفتح صفحات لا تنتهي من الصور المستقبلية.

٨- إنهيار البرجين أو صورة القرن الـ٢١

شغلت هذه الصورة[٤٤] التي تمثل نسف برجي مركز التجارة العالمي في واشنطن دول العالم؛ واحتلت مراكز الصدارة في وسائل الإعلام العالمية الى درجة تمكننا من اعتبارها صورة القرن الحالي الأكثر بروزاً، حتى ان عدداً كبيراً من وسائل الاعلام جعلها ثابتة في تقديم أخباره أو برامجه السياسية، على الرغم من

مرور عامين على هذا الحدث-الزلزال.

ليس سهلاً تصور نسف ٥٠٠ ألف طن من الفولاذ والإسمنت المسلّح تناثرت في هباء جنوني تحت ضربات ٤ طائرات مدنية أميركية تمّ خطفها واستخدامها لنسف «تمثالي» دولة العولمة الأقوى في العالم، وحيث بلغ ارتفاع البرج مئة دور ودور، وكذلك لنسف مقرّ وزارة الدفاع الأميركية «البنتاغون».

وقد جاء وصف هذا الحدث بـ «الجحيم» واقعياً لو تصورنا صور الذين قفزوا من النوافذ من علو ٣٠٠ متراً وكان موتهم محتماً، إلى آلاف الأشخاص الذين قضوا تحت الردم من ذوي المواقع والمستويات الكبرى في العالم. بالإضافة الي المفقودين الـ ٨٠٠ في البنتاغون والـ٢٦٦ مسافراً على أجنحة الطائرات المخطوفة والـ٢٦٥ إطفائياً و٧٨ رجل بوليس من نيويورك سقطوا مع سقوط البرجين.

لقد اتجهت الأنظار الى بغداد العاصمة الوحيدة في العالم التي لم تندد بالهجوم، بل اعتبرته نصراً، وقد كانت محاصرة بالأعين الأميركية من الجهات كلها.

ولقد انهار البرجان وارتفعت صورة انهيارهما الى مستوى باتت الأحداث تؤرخ بها من حيث القَبل والبَعد. وليس قبلها أو بعدها سوى الصور التي رافقت الإجتياح الأميركي الأول والثاني للعراق، الأول «عاصفة الصحراء» والثاني «الصدمة والذهول»، وكان قد سبق الصدمة عملية «النسر النبيل» أو «العدالة المطلقة» على أفغانستان. لقد أقفل بوش الأب القرن العشرين على حرب بدا العرب ضحيتها وافتتح بوش الإبن القرن الواحد والعشرين بحرب بدا العرب ضحيتها أيضاً، وكان من السهل المغامرة بأفغانستان ولو أنها شكلت عبر التاريخ الشوكة المؤلمة في خاصرة المحتلين، ونعني بهما الاتحاد السوفياتي وبريطانيا.

وقد يستغرق العالم وقتاً طويلاً كي يتمكن من سحب هذه الصورة نحو الماضي على اعتبار ان رقمي الـ ١١ اللذين يمثلان البرجين سيبقيان منتصبين حروباً لا تنتهي على ما أسمته أميركا بـ «الارهاب»، لتدخل العالم في مرحلة جديدة من العلاقات الدولية تطاول إعادة تشكيل النظام العالمي الجديد تماماً كما حدث في

أعقاب الحربين العالميتين وانهيار جدار برلين في تشرين الثاني ١٩٨٩.

اللافت في هذا الحدث أن نقطة دم واحدة لم تظهر في أية صورة في وسائل الإعلام في العالم، وفي هذا مغزى كبير، بالرغم من «انهار» الدماء الموعودة كصدى لانهيار البرجين في العالم كله. وسواء تناول الإتهام بن لادن زعيم القاعدة أو الأصابع الخفية للموساد والمخابرات الأميركية[٤٥]، فإن غبار البرجين حجب رؤية العقلاء في النظر الى خلفيات الحادث ومسبباته وتداعياته المتشعّبة السياسية والإقتصادية والفكرية والثقافية والعسكرية، وكلها تداعيات مغمسة برائحة الدم تؤسس لفكر «صدام الحضارات» وتغيير الجغرافيا السياسية.

«صحيح أن الحادث كان فرصة للمخططين الاستراتيجيين الأميركيين لاعادة ترتيب أحجار كثيرة كانت قد تبعثرت بين أيديهم على رقعة شطرنج السياسات الخارجية في السنوات الماضية، فبدأ الترتيب في أفغانستان ثم اتجه صوب العراق وايران وسوريا ولبنان وباكستان والمملكة العربية السعودية، ربما، وغيرها من البلدان التي كانت تظنّ ان علاقتها بواشنطن من القوة والصلابة بحيث تقاوم كل عوامل التعرية... هذا كلّه صحيح، لكن من غير المعقول ألاّ تقاوم هذه الدول ما يهدّد حاضرها ومستقبلها تحت وهم أن المخططات الأميركية في هذا النظام الدولي الجديد قدر محتوم لا فكاك منه، ولعنة ستحلّ بمن تريد سواء أكان موجوداً على ظهر الأرض أم مختبئاً في باطنها»[٤٦].

ستبقى هذه الصورة التي ما ظهرت دماؤها تستسقي الدم العالمي الى أمد طويل قد يمتدّ الى عقود.

٩- الخاتمة

عندما تكون أعين العالم غارقة في ترقّب حروب «المواجهات العملية» الدائرة بين الأطراف، تدور حروب استراتيجية إعلامية خفية من نوع آخر، انها حروب الصور، وقوامها علوم النفس والإقناع والتأثر والتأثير وتحريك المشاعر وبناء الرأي العام المحلي والعالمي على السواء، ذلك وفق اتجاهات وتخطيطات دقيقة

تساهم في كسب الشرعية المبتغاة وخصوصاً عن طريق الصور.

لقد غدت الصورة، اليوم، أساسية وأداة فاصلة في أي صراع كان، عسكرياً أم سياسياً، انتخابياً أو اجتماعياً أو عاطفياً. فالصورة هي في صميم العمل الاستراتيجي الهادف الى الوصول الى الآخر، للتأثير فيه وكسبه الى الجانب المراد.

إنها عملية «اغتصاب» للرأي المكوّن مسبقاً ومحاولة جاهدة لتعزيزه اذا كان مطابقاً، أو للعمل على تغييره في حال توجب إعادة تكوينه.

واليوم، وبعدما تجاوزت البشرية شوطاً كبيراً في مجال تقنيات الصورة تحديداً، عادت الصورة بقوة لتحتل مكانها مجدداً في طليعة عمليات الإتصال ولا سيما التواصلية منها.

سلبية كانت الصور أم إيجابية، فإنما تطرح مناقشات حادة وتبقى أداة فعّالة.

والحروب على اختلاف طبعتها، ستبقى ظاهرة مستمرة.

(٢٠٠٣/٥/١٦)

المراجع

1- VERNANT (Jean-Pierre): La mort dans les ڠeux, paris, hachette, 1986, p.22
2- Sévère Acrute Respitatory syndrom
٣- أصدر آل غور نائب الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون Bill Clinton في العام ١٩٩٧، كتابين بعنوان: «جدل اليوم الأخير» و «الأرض في الميزان» بحث فيهما كيفية فتك المواد الكيماوية المركبة بالبشرية والنطف البشرية، ومدى مخاطر الحروب المقبلة على تحقيق أفكار القيام الدينية والأسطورية، كذلك على نسف الوجود الأرضي بالكامل.
٤- تصدرت هذه الصورة وسائل الإعلام العالمية في ٢٠٠٣/٤/١٢
5- MICHEL (Paul Henri), la pensée de léon, Battista Alberti, PAris, les belles lettres, 1930, p.493.
6- DEBRAY (Régis): Vie et mort de l'image, Paris, gallimard, 1992, p.16.
٧- عقدت «قمة الحرب» في ١٧ آذار ٢٠٠٣ في قاعدة لاخيس بجزيرة تيرسيرا في أرخبيل الأزور البرتغالي وضمت الرئيس الأميركي جورج بوش ورؤساء حكومات بريطانية طوني بلير، واسبانيا خوسيه ماريا أسنار والبرتغال دوراو باروسو، واندلعت الحرب فعلياً في ٢٠ آذار ٢٠٠٣ فبلغت ذروتها مع سقوط بغداد في ٩ نيسان التاريخ الفعلي لنهاية الحرب إعلامياً والتي لم يعلن بوش عنها بشكل نهائي بل أكتفي بإعلان انتهاء العمليات العسكرية الرئيسية في العراق في ٢ أيار ٢٠٠٣ وقد جاء إعلانه لدى احتفائه بعودة الجنود الأميركيين من الخليج على متن حاملة الطائرات «يو.آس.اس ابراهام لنكولن معتبراً أن «الحرب على الإرهاب لم تنته، متعهداً توجيه ضربات وقائية اذا اقتضت الضرورة لحماية الولايات المتحدة.
راجع: www.AFP.com وصحف ٣ أيار ٢٠٠٣
وتبرز المصادفة في نشر وكالة الأسوشيتد برس صورة للرئيس العراقي صدام حسين لدى توجيهه آخر كلمة له الى العراقيين في ٩ نيسان يوم سقوط بغداد وقد بدا التعب والإرهاق عليه، وقد أعاد قراءة احدى الجمل مرتين.
راجع صحيفة النهار، ٣ أيار ٢٠٠٣، الصفحة الأولى.
٨- راجع www.centcom.mil
وأيضاً: www.defenselink.mil
9- GIESEY (Ralph. E>): Le roi ne meurt pas, Paris, Flammarion, 1987, p.38.
١٠- الصحف ووسائل الإعلام ٢٠٠٣/٤/١٢.
١١- تمّ إسقاط التمثال في ٢٠٠٣/٤/٩، راجع صحف ٢٠٠٣/٤/١٠.
١٢- كان لهذه الصورة قيمة خبرية (٢٠٠٣/٤/٥)، خصوصاً وأنها جاءت في أعقاب إلقاء وزير الإعلام محمد سعيد الصحاف ٣ كلمات لثلاث مرات متتالية اعتبر فيه المراقبون بأن صدام قتل أو هرب.
١٣- راجع صحف ٢٠٠٣/٣/٢٤.
١٤- www.aljazeera.net ٢٠٠٣/٣/٢٢ وهي صورة لم تبثها التلفزة العالمية، وكانت هذه الصورة الردّ الأمثل على ادعاء الأميركيين بنظافة الحرب.
١٥- الأحد ٢٠٠٣/٣/٣٠.
١٦- ٢٠٠٣/٤/٥ الجزيرة.
١٧- الجزيرة ٢٠٠٣/٣/٢٤.
١٨- ٢٠٠٣/٣/٢٦.
١٩- ٢٠٠٣/٣/٢٧.
٢٠- ٢٣-٢٠٠٣/٣/٢٤ www.aljazeera.net.

٢١- طرح لجوء الولايات المتحدة الي القانون الدولي الانساني علامات استفهام كبرى حول مدى الآثار التي تركتها صور التلفزيون العراقي على الرأي العام الأميركي والإدارة الأميركية بشكل عام مما شكل حافزاً للمطالبات بإيقاف الحرب. وقد وضع أسس هذا القانون الدولي الإنساني هنري دينون في العام ١٨٤٦ متأثراً بالمآسي التي شاهدها في معركة سلفرينو فعاد الى جنيف وأسس اللجنة الدولية للصليب الأحمر. وقد عرف هذا القانون الدولي الانساني في اتفاقاته وبروتوكولاته المؤلف من سبعماية مادة تعديلات مهمة أولها في ١٢ آب ١٩٤٩ طاولت حماية الجرحى ومرضى الحروب والأسرى والمدنيين، والحق بها بروتوكول في العام ١٩٧٧ تطرق الى النزاعات الدولية إثر بروز حركات التحرر في العالم.

Encyclopedie En Carton 2003, Pacte de GENEVE

٢٢- وقد أصاب السائق لطفي البربري ١٥ عسكرياً أميركياً بجروح قبل أن يصاب بدوره بالإضافة الى ١٤ كانت اصاباتهم طفيفة. راجع جريدتي: القبس والرأي العام، الكويت ٢٠٠٣/٤/٧.

٢٣- السيدتان هما وداد جميل ونور الشمري، راجع الجزيرة ٣ نيسان ٢٠٠٣.

٢٤- راجع وسائل الإعلام المرئية المسموعة والصحف ١٠ و١١ و٢٠٠٣/٤/١٢.

٢٥- لقد عرضت الصور بشكل ورق للعب في ٢٠٠٣/٤/١٠.

٢٦- كان العراق معروفاً باسم «عراق صدام».

27- DEBRAY (Régis): ibid, p.321.

٢٨- عدنان المبارك: وهو عصر الإعلام أيضاً، آفاق عربية، آب ١٩٧٨، ص٤٣.

٢٩- وقد حقق أحد الهواة وهو ابراهام زابرودر Abraham Zapruder وهو مصمم أزياء من دالاس سبقاً صحفياً باعه بـ ١٥٠ ألف دولار رل «لايف ماثمازين»، كما احتلت صورة جيمس التقن James Altgens الصفحة الأولى لآلاف الصحف العالمية. راجع: Encyclopéie Encarta 2003.

30- Bourdieu (Jean): Qui fait la guerre?, Le monde, PAris, 3/11/2001.

٣١- محمد علي الآتاسي: حقيقة الحرب ضحية صورتها، ملحق النهار، الأحد ١٣ نيسان ٢٠٠٣، ص٦.

٣٢- في مؤتمر صحفي له في ٢٠٠٣/٣/١٣ (الجزيرة) والمعروف أن فيكتوريا كلارك مساعدة وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد للشؤون الاعلامية هي وراء هذا الأسلوب المبتكر لجلب الصورة الى جانب قوات التحالف.

٣٣- السفير ٢٠٠٣/٣/١٤.

٣٤- جاء انتقاده في ٢٠٠٣/٣/٢٦ ونجده في الصحف تاريخ ٢٠٠٣/٣/٢٧.

٣٥- صحف الجمعة ٢٠٠٣/٣/٢٧.

٣٦- المرجع نفسه.

٣٧- المرجع نفسه.

٣٨- www.aljazeera.net في ٢٠٠٣/٤/٢٣

٣٩- المرجع نفسه والتاريخ نفسه.

٤٠- المرجع نفسه، ٨ نيسان ٢٠٠٣

41- DEBRAY (Régis): ibid, p.78.

٤٢- عام ١٨٥١ تمّ اختراع المحلول الكيماوي الذي ساعد في تذويب الصفائح المعدنية، وكان مساعداً على امكانية طباعة الصورة الفوتوغرافية في الجريدة. وبعد هذا التاريخ بأربع سنوات أخذت تظهر أول التحقيقات الصحفية المصورة. وكان روجرز فانتون الانكليزي أول ناشر لريبورتاج مصور كان موضوعه حرب القرم التي جرت في شبه الجزيرة شمالي البحر الأسود بين روسيا من ناحية وتركيا وفرنسا من ناحية أخرى، واستمرت هذه الحرب من ١٨٥٤-١٨٥٦. وقد كان فانتون مصوراً فريداً حمل معه الى ميدان المعركة أجهزته الثقيلة بل مختبراً متكاملاً لتحميض صوره بنفسه. ولم يكن هناك بعد أشرطة للأفلام لذا كان عليه أن يعد بنفسه الكليشهات (الرواسم) ويحضّر المواد الكيماوية.

واذا كانت الصور الملونة قد ظهرت للمرّة الأولى في صحيفة «فرايبور نساتيونخ» الإلمانية، فإن الصور البدائية ما رأت النور إلا في العام ١٨٢٢ حيث نجح الفرنسي Nicephore niepce نيسوفور نيبس في تجاربه تثبيتاً للصورة في غرفة سوداء على ألواح زجاجية مغطاة بمادة الحمر أو القار Bitume de judée الشديدة الحساسية ليظهر في العام ١٨٢٧ الصور الأولى لمناظر كان يراها من نافذة مختبره واسماها بالـ Heliographies أو الحفر الشمسي.

راجع: Encyclopedie Encarta, 2003, mat: image

٤٣- لقد اعتمدنا في ايراد هذه الصور التاريخية على:

أبو جهجة نجلاء: اسماف المنصوري، دار بلال للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

Robin (MArie Monique): Les cents photos du siècle, Ed. France Loisirs, Paris, 1999

وثائق الحرب اللبنانية، يوميات، صور - المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، سبتمبر ١٩٨٥.

Croix noire ou le dossier du complot contre le Liban, U.S.A, Beyrouth, juillet, 1976.

مجلة حرب السنتين، النهار، ١٩٧٧، بيروت.

44- www.tradecentre.w.t.c. et le Figaro Magazine, Samedi 15 sep. 2001, p.10.

٤٥- غور فيدال: العدو الباطني، الاوبزرفر، لندن، الأحد ٢٧ تشرين الأول ٢٠٠٢، وقد نقل المقال الى العربية طلاب السنة الرابعة في الفرع الثاني لكلية الإعلام والتوثيق - الجامعة اللبنانية (اختصاص صحافة مكتوبة) وفيدال هو من أكثر الكتاب الأميركيين ميلاً للجدلية والشراسة وقد جاء مقاله الطويل هذا دراسة للقدرة الاميركية على اخفاء الحقائق والتضليل وهما سمتان أساستيتان في استراتيجيات السلوك السياسي والامني للادارات الاميركية، كما جاء في نصه.

٤٦- www.aljazeera.net. ٢٠٠٢/٩/١١. أيلول عام على الزلزال.

الصهيونية المقنّعة بالمسيحية في خدمة «مشاريع إسرائيل»

الأب ميشال سبع*

مقدمة

انهت الولايات المتحدة الاميركية حرباً على العراق في خمسة عشر يوماً ودعت الشركات الاميركية وغير الاميركية الى استثمارات سريعة في حقول النفط من ناحية، والى مشاريع تعمير الطرق من جديد بعدما هدمتها من ناحية اخرى والثمن المدفوع هو من نفط العراق وحتى من آثاراته.

بوش الإبن، الرئيس الاميركي «المؤمن» طلب من الجنود الاميركيين المحاربين في العراق ان يرفعوا الصلاة من اجله،لأنه يفعل ما يستطيع من أجل تحقيق ثلاثة اهداف كبرى واساسية له ولأميركا.

أولها، إن ضرب العراق وانهاء حكم صدام حسين وإبقاء القوات الأميركية فيه تعني وضع اليد على البترول العراقي، وكتحصيل حاصل البترول الخليجي بأكمله أي نصف احتياط ثروة العالم النفطية.

ثانيها، إنهاء حالة قيام اي نظام عربي او اسلامي يعادي اميركا وحليفتها بطبيعة الحال اسرائيل وينهي وبشكل تدريجي كل المنظمات المعادية والتي صنّفتها الولايات المتحدة على انها إرهابية، كما تعيد النظر في التركيبة السياسية الحاكمة خصوصاً في ما يختص

(* باحث واستاذ جامعي)

بالانظمة الدينية محاولة حصر المرجعيات السنية والشيعية تحت هيمنتها «السنة في السعودية والشيعة في العراق».

ثالثها، الوصول الى تحقيق القدر الاكبر من النبوءات التي يؤمن بها بوش ومجموعة كبيرة من الشعب الاميركي واليهودي حول العودة الثانية للمسيح والسيطرة على العالم لمدة الف عام، وذلك بتهيئة الارضية الصالحة لذلك، ومن اجل هذا تم تجييش آلاف المبشرين من القدريين والألفيين واصحاب الولادة الجديدة كي يكونوا جيش الخلاص الأول والأساسي لهذا الامر.

إن هذا الهدف الثالث والاخير انشأ ما سمّي إعادة إحياء الصهيونية المسيحية الجديدة، او بالحري تحريك ديناميتها بدفع سياسي وعسكري.

ونشرت جريدة «النهار» اللبنانية نصاً مترجماً عن «الكورييه إنترناسيونال» الإسبانية للكاتب أندريا ريكاردي جاء فيه أن الصراع في الغرب بات يكمن اليوم بين نوعين من المسيحية: مسيحية أميركية تؤمن «بالولادة الجديدة» - أو الولادة الثانية، باعتبار أن الأولى هي ولادة الجسد والثانية هي ولادة الروح - ويؤمن أتباعها بما يسمّونه مهمة بلادهم المقدّسة، والمسيحية الكاثوليكية التقليدية المتفقة مع الكنائس الأورثوذكسية والبروتستانتية حول مسألة السلام في العالم. وهذا يعني وجود تصوّرين إثنين للحرب والسلام في العالم المسيحي: الأول تقليدي يدعو الى المفاوضات والحوار لحلّ المشاكل بناءً على الرسالة البابوية «السلام على الأرض»، والآخر مسيحي «جديد»، أميركي خصوصاً، يعطي الأميركيين دوراً إلهياً كي «يفبركوا» العالم كما يرون. ويرى الكاتب أن هذه «الصحوة الدينية» في أميركا تقوم بالدعوة الى نوع من الإهتداء الشخصي من خلال مفهوم «الولادة الجديدة» حسب تعبير أحد أشهر المبشّرين التلفزيونيين «بيلي غراهام». وهذا الصراع الدائر في المجتمع المسيحي العالمي حسب وجهة نظر الكاتب، يضع المسيحية التقليدية في وضعية المواجهة مع حالة دينية ناشئة في أميركا تتقنّع بالمسيحية ولها جذور وخلفية صهيونية.

والسؤال هو: على ماذا يعتمد هؤلاء ومن أين أتوا بجذور فكرهم؟

النبوءات

اعتمدت العناصر المهوّدة من المسيحيين على كمٍّ كبير من نبؤات العهدين القديم والجديد، من القديم اعتمدت كثيراً على أشعيا ومن الجديد اعتمدت على رؤيا يوحنا. وفي رؤيا يوحنا حديث عن ثلاث مرات ألف عام الاولى تقول:

«ورأيت ملاكاً هابطاً من السماء بيده مفتاح الهاوية وسلسلة كبيرة فأمسك التنين الحية القديمة وهي ابليس والشيطان فأوثقه لألف سنة وألقاه في الهاوية ثم أقفل عليه وختم لئلا تضل الامم حتى تنقضي الف سنة...». رؤيا ٢٠/١-٣».

هذه الفترة هي حكماً الفترة التي سبقت ظهور المسيح وبالتالي فهي تضم التاريخ اليهودي حتى مجيء المسيح الناصري.

والتاريخ اليهودي كُتب فيه الكثير، ولكن المهم أنه لم يكتب قبل موسى وانما بعده، أي بعد الخروج من مصر، ورغم التشكيك الكبير بموسى وخروجه أصلاً من مصر فإن المتابعة للاحداث المكتوبة توضح النقاط التالية:

١ - ان مجريات العهد العتيق تكاد تكون أساطير ووقائع متداخلة ومتقاطعة بين أساطير مصر الفرعونية وبلاد آشور وبابل وبلاد الشام لدرجة يتساءل المرء فيها الى أيّ مدى تصبح أسطورة كلكامش نسخة عن سيرة نوح او العكس، وأخذ حمورابي وصاياه من الهه كنسخة عن موسى وبالعكس، وخروج ابراهيم من أور أم خروج موسى من مصر وبالعكس الخ... وتميل الكنيسة المسيحية على الأقل في كل اتجاهاتها الى اعتبار الكتاب المقدس بعهده العتيق كتاب تعليم لا كتاب تاريخ.

٢ - ان العلاقة بين الإله اليهودي والشعب اليهودي هي علاقة مباشرة وهو في عهده معه قد وضع اسساً لعلاقة تبادلية مفادها ان الشعب اليهودي ارتضى ان يكون هذا الإله إلهاً واحداً لا شريك له، وارتضى ان يعمل كل ما يرضي هذا الإله ان كان في تقديم الأضاحي له او ترتيب البيت الذي يسكنه او التصرفات التي لا تغضبه، من ناحية أخرى، فإن هذا الإله قبل أن يكون الشعب اليهودي شعبه المختار والخاص ولا يقدم احداً عليه، ويحارب عنه عند الاقتضاء ولسوف يجعله سيد العالم.

٣ - ان كل ما يصيب الشعب اليهودي من مآسي وويلات واضطهادات إنما هو قصاص له لأنه لم يتبع وصايا إلهه، لكنه حتماً سينتصر في النهاية، ومن اجل تحقيق هذا النصر هناك علامات نبوية قال بها أشعيا خصوصاً ومن أهمها:

«لا تخف فإني معك، وسآتي بنسلك من المشرق وأجمعك من المغرب وأقول للشمال هات وللجنوب لا تمنع /أشعيا ٤٣/٥-٦». لقد عانى اليهود من انقسام مملكة الشمال ومملكة الجنوب وسبوا الى بابل وذاقوا معنى الذل، لذا فإنهم يفهمون جيداً ما معنى ان يتوحدوا وما معنى قيمة هذه الوحدة لهم.

كما يقول في مكان آخر *«فحينئذٍ تتنعم بالرب وأنا أركّبك على مشارف الارض - أشعيا ٥٨/٢٤»*. هناك إذاً أمل حقيقي لليهود في أن يحكموا العالم ذات يوم.

مجيء المسيح الذي أتى في زمن الإحتلال الروماني لبلاد الشام، ووقوع فلسطين تحت هذا الاحتلال، جعل اليهود ينتظرون المخلص الموعود. ومن صفات هذا المخلص أنه سيرد الملك الى اسرائيل ويحقق حلمهم في السيطرة على العالم، لكن المشكلة تكمن في ان المسيح هذا تضارب كثيراً مع الانتظار اليهودي لدرجة استحالة التلاقي. فهو قد هاجم بقوة كل المسؤولين الدينيين عند اليهود، وفي هجومه على الفريسيين قال: *«ايها الفريسيون انتم الآن تطهرون ظاهر الكأس والصحفة وباطنكم ممتلىء نهباً وخبثاً، أيها الأغبياء أليس الذي صنع الظاهر قد صنع الباطن ايضاً... الويل لكم ايها الفريسيون فإنكم تؤدون عُشر النعنع وسائر البقول وتهملون العدل ومحبة الله... الويل لكم ايها الفريسيون، فإنكم تحبون صدر المجلس في المجامع وتلقي التحيات في الساحات، الويل لكم، أنتم أشبه بالقبور التي لا علامة عليها، يمشي الناس عليها وهم لا يعلمون «لوقا ١١/٤١٤٤»*.

كذلك هاجم علماء الشريعة اذ قال لهم: *«الويل لكم انتم ايضاً يا علماء الشريعة فإنكم تحملون الناس احمالاً ثقيلة وأنتم لا تمسّون هذه الاحمال باحدى أصابعكم. الويل لكم فإنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم هم الذين قتلوهم...*

الويل لكم يا علماء الشريعة قد استوليتم على مفتاح المعرفة فلم تدخلوا انتم، والذين أرادوا الدخول منعتوهم. «لوقا ١١/٤٥-٥١».

كذلك خالف عدة مرات راحة السبت، وراحة السبت مقدّسة عند اليهود لا يقومون خلالها بأي عمل، فشفى المرضى وأكل سنابل القمح. وهذا النوع من الأكل يعني الفرك باليد، وهو عمل مخالف للسبت. واعتبر ان اعداء اليهود أفضل منهم ما داموا يعملون فعل الرحمة كما هو الامر في مثل السامري الرحيم الذي قام به إنسان مع عدوّه فساعده على النهوض من محنته، بعكس أقرباء له في الملّة والدين، لم يلتفتوا إليه. وهذا السامري هو عدو لليهود في حين أن الأقرباء هم من اليهود. كما أنه أعلن ان ملكوت الله سيُنزع من اليهود ويُعطى للآخرين لأنهم شغفوا في أمور الحياة عن أمور الروح كما في مثل الدعوة للعشار حيث قبل المسيح أن يتعشى عند عشار وهو متعامل مع العدو وسارق للشعب. «لوقا ١٥/٢٤-٢٢». كذلك كان يلتقي مع الخطأة مما يعني أنه لا يقوم بفعل الإصطفاء اليهودي. «لوقا ١٥/١ -٦»، لا بل لقد فضّل الخاطىء على الغريب كما في مثل الفريسي والعشار، حيث اعتبر الفريسي أي الكاهن اليهودي، نفسه قريباً لله في حين اعتبر العشار الخاطئ أنه محتاج الى «غفران الله لخطاياه. «لوقا ١٨/١-١٥». لذلك قرر الإكليروس اليهودي قتل هذا المسيح لأنه يُفسد الناس بأمرين: الأول لأنه يجعلهم يصدقون بأنه المسيح المنتظر فيخرّب كل الانتظار اليهودي. والأمر الثاني أنه يؤلب الناس عليهم ويجعلهم يثورون على التعاليم الناموسية. لذا «*عقد عظماء الكهنة والفريسيون مجلساً وقالوا: ماذا نعمل؟ فإن هذا الرجل يأتي بآيات كثيرة فإذا تركناه وشأنه آمنوا به جميعاً فيأتي الرومانيون فيدمرون حرمنا وأمتنا... فعزموا منذ ذلك اليوم على قتله*. «يوحنا ١١/٤٧ - ٥٤».

بقتل المسيح اعتبر اليهود ان الانتظار استمر وان المسيح الحقيقي لم يأتِ بعد. لذا عندما ضرب طيطس هيكلهم عام ٧٠م. اعتبروا ان إلههم يهوَه يقاصصهم كما تعوّد ان يفعل عبر تاريخهم الطويل.

الرومان لم يعتبروا ان المسيحية مختلفة عن اليهودية بل اعتبروها احدى فرقها المنشقة، وقد ظل الأمر هكذا حتى قيام مرسوم ميلانو مع قسطنطين الملك في بداية القرن الرابع الميلادي حيث انتهى الإضطهاد الروماني للمسيحيين.

بعد الانفراج المسيحي وحرية ممارسة المعتقد بدأت الامور تتوضح اكثر في إظهار هوية المسيحيين واعتبارهم مميزين عن اليهود، لا بل صار همّ المسيحيين هو تبشير اليهود بالمسيح واقناعهم بأنه هو الذي كانوا ينتظرونه، وقد كان انجيل متى مكتوباً تحديداً لهذه الغاية.

كما تنبّه المسيحيون اكثر الى ان رؤيا يوحنا، وهي كتاب فيه تصوّرات للإنجيلي يوحنا عن رموز للكنيسة الأولى وما يمكن أن يكون بعدها، انما كانت رموزاً للغة الإيحاء ولأن التصريح لم يكن ممكناً في ظل الاضطهادات، وقد تميزوا بوضوح مقولة عن نيرون الإمبراطور الروماني الذي أحرق روما واتهمهم بها فكان عنواناً لتقديمهم طعاماً للحيوانات ومهرجاناً للقتل، وقد جاء في رؤيا يوحنا «ان صورة الوحش تكلمت وجعلت جميع الذين لا يسجدون لصورة الوحش يُقتلون... هذه ساعة الحذاقة فمن كان ذكياً فليحسب اسم الوحش، انه عدد اسم انسان وعدده ٦٦٦ - رؤيا يوحنا ١٣/١٥-١٨» وعندما قام المسيحيون بفك رموز العدد اتضح لهم أنه يعني نيرون قيصر.

هذا المفتاح الرؤيوي كان له تأثير كبير اذ صارت كل رؤيا يوحنا مجالاً كبيراً للتأويل خصوصاً عندما صار الكتاب المقدس مطبوعاً وبين ايدي كافة المؤمنين.

إعتبر المسيحيون أنهم سوف يعيشون ألف سنة مع المسيح هم وموتاهم تحقيقاً لنبوءة يوحنا التي تقول: *«ورأيت نفوس الذين ضربت اعناقهم من أجل شهادة يسوع وكلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يتلقوا السمة على جباههم ولا على ايديهم قد عادوا الى الحياة وملكوا مع المسيح الف سنة - رؤيا ٢٠/٤».*

لذا عندما بدأت السنوات تتسارع في القرن التاسع ودخولها القرن العاشر بدأ العد العكسي للنبوءة الثالثة والتي تقول: *«اما سائر الأموات فلم يعودوا الى الحياة قبل انقضاء ألف سنة، هذه هي القيامة الأولى، سعيد وقديس من كان له نصيب في القيامة الاولى فعلى هؤلاء ليس للموت الثاني من سلطان بل يكونون كهنة الله والمسيح ويملكون معه ألف سنة. «رؤيا ٢٠/٥-٦».*

المفهوم من القيامة الاولى هذه أنها لسائر الأموات الذين ماتوا طبيعياً من دون

اضطهاد ولا ماتوا قسراً، وهؤلاء لن يموتوا من بعد أو بالحري فإنهم سيعيشون على الأقل ألف سنة، لذا فإن الموت قبل الألفية الاولى كان يعني بعثاً لألف سنة اخرى، ولكن الواقع التاريخي لكنيسة المسيحيين كان محزناً ولم يكن على ما بدا في التاريخ أنه حقاً مستعد للملك مع المسيح بحسب رؤيا يوحنا.

الإنتظار الألفي واقع

تسلطت على الكرسي الباباوي امرأة تدعى تيودورة مع ابنتيها تيودورة الصغرى وماروزي، مدة ثلاثين عاماً، وقد اطلق الكاردينال بارونيوس لقب العهد الإباحي على هذه الفترة.

الباباوات الذين خضعوا لهذا التأثير هم: سرجيوس الثالث (٩٠٤-٩٠٠)، انستاسيوس الثالث (٩٠٠-٩١٣)، لاندون (٩١٣-٩١٤)، يوحنا العاشر (٩١٤-٩٢٨)، لاون السادس (٩٢٨)، اسطفان السابع (٩٢٨-٩٣١)، يوحنا الحادي عشر (٩٣١-٩٣٥)، وهو ابن البابا سرجيوس الثالث غير الشرعي من ماروزي، والذي قضى على أمه.

ورغم أن الكنيسة حققت بعض الانتصارات التبشيرية حيث بشرت روسيا وهنغاريا، الا ان الناس كانوا يتندّرون بالمواقف المخزية التي كان يعيشها المجتمع الإكليركي.

لذلك كان في اللاوعي عند المؤمنين ان نهاية العالم اقتربت باعتبار ان الشر صار مطبقاً، لذا كان لا بد من خلاص، واعتبروه آتٍ مع المسيح، خصوصاً وان المدّ الإسلامي صار يخيفهم لأنه صوّر لهم بأنه سوف يسحق كنيسة المسيح ليقيم مكانها مملكة الإسلام، فآمنوا أن مسيحهم لا بد وأن يأتي للإنقاذ.

لقد مضى العام ١٠٠٠ كغيره ولم تكن الايام اللاحقة بأفضل بالنسبة للكرسي الباباوي إذ تفاقم الوضع السياسي وصراع الدول والتدخل في الكنيسة التي صارت سياسية بامتياز وهذا ما جعل البابوات يفكرون بإيقاف المدّ الجهادي الإسلامي ووضع اليد على الاراضي المقدسة إضافة الى ان الصراعات بين

الامراء في أوروبا كانت تقضي على خيرة شبانها، لذا كانت فكرة الحروب الصليبية.

ولقد بدأت اولاً مع البابا أوربانوس الثاني عام ١٠٩٦، لكنها لم تصل الى مرادها، فأتبعها البابا أوجانيوس الثالث بحملة ثانية عام ١١٤٧، لكن تصاعد القوة الاسلامية لم يجعلها تشعر كثيراً بالنجاح. وما لبث ان قام صلاح الدين باستعادة بيت المقدس عام ١١٨٦ مما جعل البابا إكليمنضوس الثالث يرسل حملة صليبية ثالثة كانت نتيجتها غرق فريدريك بربروس.

عام ١٢٠٢ جهّز البابا إينوشيوس الثالث حملة صليبية رابعة، لكنها عوضاً عن ان تسير نحو القدس، سارت نحو القسطنطينية وعملت فيها نهباً وتدميراً واعتبرتها «الخاطئة كثيراً» وحكمتها لمدة اربعين عاماً. وقد كان لهذا تأثير كبير في ما بعد على القطيعة بين الكنيسة الأورثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية.

وحاول البعض الإيحاء ان يسوع الطفل يريد أطفالاً لبيته فسارت حملة من الاطفال للذهاب الى القدس عام ١٢١٢، لكن ربابنة السفن باعوهم كعبيد في الجزر. وعام ١٢١٧ ارسل البابا اينوشيوس حملة صليبية خامسة اتجهت صوب مصر وحاولت البقاء على شواطئها، لكنها عادت فاشلة بعد أربع سنوات.

الحملة الصليبية السادسة كانت عام ١٢٢٦ في عهد ولاية البابا هونوريوس الثالث الذي مات بعد سنة من ذلك وتسلم مكانه البابا غريغوريوس التاسع الذي نظّم محاكم التفتيش وعهد بها الى الرهابنة الدومينيكان.

بعد فشل الحملة السادسة التي استمرت ثلاث سنوات كادت الباباوية ان تنسى أمر الحروب الصليبية، لكن فراغ الكرسي الرسولي من الباباوية لمدة ثلاث سنوات لعدم الاتفاق على انتخاب بابا، جعل الكرادلة يغطون فشلهم في تجهيز حملة صليبية سابعة عام ١٢٧٠، ففشلت فشلاً ذريعاً وانتهت معها أحلام القوة العسكرية لاستعادة الاراضي المقدسة. وقد انتظر الكرسي الرسولي حوالي مئتي عاماً ليرسل البابا كاليتوس الثالث حملة صغيرة لم يجد من يتبرع له بتكاليفها فغذّاها من أملاك الكرسي الرسولي ومن ماله الخاص ولم تكن أفضل من كل

سابقاتها.

والواقع أن الأوضاع المتردية والصراعات بين الأمراء الأوروبيين وتصاعد القوة الاسلامية جعل البعض يفكر في التحالف مع المسلمين ضد الباباوية، والبعض الآخر يفكّر بالثورة على تلك الأوضاع برمّتها، وقد أتى القرن السادس عشر ليؤزم الأمور الى أقصاها.

فعندما تسلّم البابا لاون العاشر السدة الباباوية عام ١٥١٣ (واسمه المدني جان دي مديتشي) كان عمره ٣٧ عاماً وكان قد ارتسم كاردينالاً بعمر ١٣ عاماً، وكان واضحاً أنه من الباباوات البعيدين عن خدمة المسيح، خصوصاً وأنه من طبقة الاغنياء الذين يعيشون في ترف شراء المراكز وكل ما يريدون. وكان قبل وصوله الى سدة البابوية خاض حرباً ضد الجيش الفرنسي عام ١٥١٢ فوقع اسيراً، لكن سرعان ما عاد بقوة بعد خسارة فرنسا وفاوض لويس الثاني عشر الذي اعترف بمجمع لاتران الذي اعترضت فيه أوروبا سلطة البابا. بعد ذلك راح يعين أقرباءه في مناصب سياسية ودينية، فعيّن ابن عمه جيليو رئيساً لأساقفة فلورنسا بعدما أعطاه رتبة الكاردينالية، كما جعل ابن عم ثان له هو ليوجي دياروسي كاردينالاً وابن عمه الثالث اينوشيوس سيبو كاردينالاً ايضاً.

بعد ذلك عمل على تقريب فرنسا من انكلترا فدفع لويس الثاني عشر الى الزواج من ماري تيدور أخت هنري الثامن.

عام ١٥١٧ حاول احد الكرادلة دس السم للبابا مشتركاً مع كرادلة آخرين، فقام البابا بإعدام الأول ومسامحة الآخرين، لكنه في الوقت نفسه اكتشف ان الكرادلة الاربعة وعشرين ليسوا محل ثقة، لذا قام بتعيين ٣١ كاردينالاً آخرين بعضهم من اقاربه وبعضهم الآخر من أصحاب المال والنفوذ السياسي.

ولقد انتصر في مجمع لاتران حيث استطاع ان يجعل المجمع يقرّ بأن البابا أحقّ من المجمع وأنه يتقدم عليه كما استطاع ان يجعل ملك فرنسا يقرّ بأن البابا هو رأس الملكية الجامعة، في حين يقرّ البابا للملك الفرنسي بأنه ممثل شرعي للكنيسة الفرنسية.

وبما ان حياة هذا البابا لا تمت بصلة الى المسيح يسوع فقد كان له (٦٣٨) خادماً، ابتداءً من الأساقفة المرشدين الى حراس الفيلة الى الموسيقيين الى المهرجين. وهذا ما كان يكلف بحدود المليون فرنك في ذلك الوقت. لذا عمل على بيع الوظائف (٢٢٠٠ وظيفة) كما راح يبيع صكوك الغفران. والجدير بالذكر أنه كان مغرماً بالصيد والموسيقى، وقد شجع المسرح الهجائي الذي كان يضحكه، ودفع مبلغاً كبيراً الى ميكافيلي لقاء تقريره عن إصلاح فلورنسا كما دفع اكثر للرسام الشهير رفائيل ليخلّده في رسوماته.

في عهد هذا البابا قام لوثير بانشقاقه عن الكنيسة فراح البابا يؤلب عليه ملوك اوروبا بعدما حماه بعض الامراء الالمان، لذا فقد أعطى البابا الملك هنري الثامن لقب المدافع عن الايمان لأنه وضع كتاباً ضد لوثير.

بعد موته اخذ مكانه ادريانوس السادس (١٥٢٢-١٥٢٣) وهو امين سر الملك هنري الثامن ملك انكلترا وهولندي الأصل، وقد عمل على نفي لوثير من كل اوروبا لكنه سرعان ما مات بعد سنة واحدة واخذ مكانه اكليمنضوس السابع (١٥٢٣-١٥٣٤) بعد مخاض عسير وخلافات حادة بين الكرادلة استمرت لمدة خمسين يوماً. وهذا البابا هو ابن عم لاون العاشر المعيَّن على فلورنسا والذي هو اساساً ابن غير شرعي، وقد راح منذ بدء ولايته يعمل على محاربة لوثير.

وفي عهده طلب الملك هنري الثامن (١٤٩١-١٥٤٧) حامل لقب المدافع عن الإيمان، الطلاق من زوجته التي هي زوجة أخيه المتوفي وتدعى كاترين أراغون وكانت انجبت له بنتاً واحدة هي ماري بينما كان يرغب بذكر يرثه، لكن البابا رفض طلبه مما جعله ينشق عن الكنيسة الكاثوليكية مؤسساً الكنيسة الانغليكانية والتي يرى البعض فيها ايضاً بعداً اقتصادياً لأن الضريبة التي كانت تدفع لروما صارت تدفع له.

بعد وفاته استلم الحبرية يوسف الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩) المعروف بأن له اولاداً غير شرعيين، ورسم احفاده كرادلة في اعمار ١٤،١٥،١٦ عاماً كما عيّن ابنه بياترو قائداً للحرس الباباوي وهذا ما ولّد اتفاقاً ضمنياً بين حكام المانيا اللوثريين

وهنري الثامن فراح ينكّل بالكرادلة وأعدم والدة احدهم رغم أنها كانت في الثمانين من عمرها. في هذا الوقت نشأت الرهبانية اليسوعية بشخص احد المحاربين الصليبيين القدامى وهو اغناطيوس دي لوايّولا عام ١٥٣٨. ولمّا وضع نفسه ورفاقه في خدمة البابا ثبتهم البابا تحت اسم جمعية يسوع او الآباء اليسوعيين عام ١٥٤٠ .

دور آخر قام به هذا البابا هو تكليف ميكال انج بتشييد كنيسة وساحة القديس بطرس.

ومما جعله يموت مرتاحاً ان عدواه لوثير مات قبله (١٥٤٦) وهنري الثامن لحق به (١٥٤٧) أما هو فلم يرحل قبل عام ١٥٤٩.

والواضح أن المهم في هذه الحقبة هو تسليط الضوء على لوثير.

المصلحون والتطهيريون

ولد لوثير في المانيا (١٤٨٣-١٥٤٦) من عائلة عمالية فقيرة وكانت أمه قديسة ذات شخصية قوية مميزة تعرف ان تقول لا عند الضرورة. درس في المدرسة اللاتينية وحصل على رتبة استاذ في الفلسفة عام ١٥٠٥ من جامعة Erefurt وخالف رأي والده الذي كان يريده رجل قانون، فانخرط مع كهنة الجامعة ليرشح كاهناً عام ١٥٠٧، ثم حصل على الدكتوراه في اللاهوت عام ١٥١٠. وعندما اخذ البابا لاون العاشر صكوك الغفران عام ١٥١٤ رفضها لوثر واعتبرها مسيئة لمبدأ الغفران، ومن ثم راح في جدل مع الاساقفة وعلق على باب الكنيسة في دنبرغ ما اراد قوله، فحرمه البابا عام ١٥٢٠.

أصدر لوثير مؤلفاته الثلاثة التي يعلن فيها انشاء كنيسته واختلف فيها مع التعليم الكاثوليكي في ما يختص بالعماد والافخارستية واعتبر ان الانسان المسيحي هو سيد حر في كل الاشياء وليس مستعبداً لأحد من الناس وأنه جدير بإيمانه ان ينال النعمة ويفهم الكتاب، ولقد قام بترجمة الكتاب المقدس الى الالمانية بعدما كان حكراً على اللاتينية.

وقد ترجم الإنجيل في أول الامر ثم أتبعه بالعهد القديم عام ١٥٣٤ وبعدها بدأ بتأسيس كنيسته وراح يضم اليها خصوصاً الفلاحين الذين ساعدهم في ثورتهم عام ١٥٢٥ وتزوج اثناءها من راهبة بعدما تركت الدير وهي كاترين دي بورا.

احد تلامذة لوثير وهو القس «توماس مونزر» انخرط مع الفلاحين الثائرين وكتب لهم دستور ثورتهم وفيه أن حريتهم تبدأ من معموديتهم، إذ أنه في المفهوم المسيحي تعمل المعمودية على تحرير الإنسان من الخطيئة الأولى. لذا اعتبر ان معمودية الأطفال لا تكفل هذه الحرية ودعا الى المعمودية الراشدة او الى معمودية ثانية او (تجديد المعمودية) اضافة الى رفض البورجوازية والإقطاعية في الكنيسة وهذا ما دعا «انجلز» في ما بعد الى ان يقول عنه إنه نبي الثورة، لان ملكوت الله لم يكن في نظره الا مجتمعاً لا فوارق طبقية فيه.

هذه التحررية واكبتها حرية القراءة في الكتاب المقدس خصوصاً بعد ترجمته للالمانية، وكون الفلاحين ذوي ثقافة محدودة فقد راحوا يهتمون بالشخصيات والقصص التي فيه ويرون فيها ابطالاً قوميين.

وهذا ما حدث ايضاً في انكلترا حيث أن ترجمة الكتاب المقدس بأمر من هنري الثامن عام ١٥٣٨ جعلت الشعب الانكليزي يقرأ التاريخ اليهودي، وصار يعتبره جزءاً أساسياً من ثقافته المدرسية، حيث اعتبر الانكليز أن البلاد التي تحدّث عنها الكتاب المقدّس تعنيهم لأنهم دولة استعمارية وكلّ بلد آخر مباح لهم.

لقد لعبت الترجمة دوراً أساسياً في تغيير الخريطة اليهودية في أوروبا. فاليهود الذين كانوا مكروهين من أمراء أوروبا، خصوصاً في عهد الحروب الصليبية، حيث تأججت الاحقاد ضدهم باعتبارهم قتلة المسيح من ناحية، ولأنهم أصحاب الأموال التي يجنونها من الحرب او السرقة لأصحاب الحاجة كما اطلق عليهم من جهة. وراحت الدول الاوروبية تطردهم، فطردوا من انكلترا في القرن الثالث عشر، ومن فرنسا في القرن الرابع عشر، ومن اسبانيا في القرن الخامس عشر. وهذا الطرد لم يكن يخلو من عمليات قتل وسرقة أموالهم. لكن هذا كله تغيّر وصار الشعب في انكلترا والمانيا يرى ان اليهود هم شعب الله المختار وان

فلسطين هي أرضهم، وهذا ما دعاهم الى إعادة النظر في عودة اليهود الى ديارهم. وعندما عادوا، وجدت انكلترا انها تستطيع ان تستفيد من إدارتهم للاموال ومهارتهم في التجارة، وهذا ما جعل اليهود يعملون بسرعة لجعل اللغة العبرية لغة أساسية في التعامل، عاملين على خطين: الأول انهم تجار يمررون لغتهم العبرية الى جانب اللغات الاوروبية، والثانية انها لغة العهد القديم وضرورة فهم هذا العهد يجب ان يتم بفهم لغته.

ولقد أدى نشر اللغة العبرية الى اعتمادها كلغة ثقافية وبالتالي صار الجامعيون يخلطون بين كلمة اسرائيل التوراتية وبين يهود العالم وصاروا يعتبرون أن تفسير التلمود يعني استعادة فلسطين، وان نهاية العالم وعودة المسيح الثانية لا يمكن ان تتم إلا بعودة اليهود الى أرضهم الموعودة فلسطين.

ولقد تأثر بهذه المقولات عدد من الفلاسفة أمثال باسكال Pascal وكانت Kant وعلماء امثال إسحق نيوتن (الذي توقع تدخل قوة ارضية نيابة عن اليهود للتأثير على عودتهم الى فلسطين) وأدباء أمثال روسو الذي اشار الى دولة اليهود الحرة في فلسطين. هذا التأثير في الاجواء الفرنسية انعكس على الدولة الفرنسية ذاتها فطرحت لأول مرة خطة لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين مقابل القروض اليهودية للحكومة الفرنسية وتمويل حملة بونابرت لاحتلال المشرق. وحتى أن نابليون الذي قال للمسلمين في مصر أنه مسلم من أجل استمالتهم، هو ايضاً وعد اليهود باستعادة دولتهم في فلسطين اذا احتلها بجيوشه. لكن كما هو معروف فقد تراجع عن ابواب عكا وعجز عن احتلال فلسطين.

اما انكلترا فقد شهدت حماساً كبيراً لهذا الموضوع. فاللورد بالمرستون Palmarston الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية ورئيساً لوزرائها في ما بعد، اعتقد ان بعث الأمة اليهودية يمكن ان تنتج عنه فائدة لبريطانيا. وقد كتب الى سفيره في الآستانة يقول: «انني اطلب منكم بقوة ان تقنعوا الحكومة العثمانية بتقديم كل التشجيع اللازم ليهود أوروبا للعودة الى فلسطين».

اما اللورد آشلي Ashly فقد اعتبر ان التنقيب عن آثار فلسطين دلالة على

صدق وصحة الكتاب المقدس. وبلغ التعاطف أشده مع بعض الكهنة الانغليكان. فالقس كراييك Crybbac كان رئيساً للبرلمان الانكليزي وقد طلب ان تؤمن انكلترا لليهود «كل فلسطين من الفرات الى النيل ومن البحر الأبيض المتوسط الى الصحراء».

هذه كلها تزامنت مع الحديث عن العودة الثانية للمسيح بحسب رؤيا يوحنا التي فسرها البعض بأنها لن تحدث قبل اعادة الملك الى اسرائيل في فلسطين، ومن هؤلاء القس هشلر Hishler الذي أوفدته الحكومة الانكليزية عام ١٨٨٢ لإقناع السلطان عبد الحميد بمسألة توطين اليهود. وكان مقتنعاً ان اعادة اليهود الى فلسطين وفقاً للنبوءات هي ضرورة، لأن المسيح لا يمكن ان يأتي ثانية ليحكم كملك الملوك لمدة ألف عام «إلا بقيام دولة اسرائيل». وأدى هذا الاعتقاد الى قيام حركة سمّيت بحركة الألفيين Millenanian ربطت قيام الكيان الصهيوني بعودة المسيح والقيامة السعيدة، أي أنها ربطت المسيحية العقائدية بمشروع إسرائيل السياسي.

ولقد نجح هذا المشروع اذ استطاعت هذه الحركة التأثير على اللورد بلفور Balfoor الذي قدم لهم الوعد في١٩١٧/١١/٢.

وبحسب مؤرخة حياة اللورد وهي السيدة دوغاديل Doggadil فقد تأثر اللورد منذ صغره بالتوراة وبضرورة قيام دولة اليهود تهيئة للألفية المسيحية المنتظرة. وقد بلغ التأثير فيه حداً وجد فيه نفسه أنه صهيوني ما دام يريد تحقيق التنبؤات.

ولعل وجود لويد جورج على رأس الحكومة البريطانية وهو يتشابه مع بلفور في ميوله ساعد على اخراج إرادة اليهود فعلاً تاريخياً.

الولادة الثانية في أميركا الجديدة

بسبب غياب تعاليم دينية مركزية وخصوصاً في شرح الكتاب المقدس للعهد القديم، انتشرت مجموعات صغيرة تفسّر هذا الكتاب بحسب مقتضيات الثقافة

لديها وتأثير بعض الافراد ذوي النفوذ الثقافي او المالي او السياسي، ومن هذه المجموعات مجموعة التطهيرية Puritanisme وهي مجموعة ثورية دعت الى حرية الأشخاص في البحث الكتابي ودعت الى عدم طاعة الأسقف ولا حتى الملك، واعتبرت ان العيش الحر في العهد القديم الذي أتى العهد الجديد ليثبته هو كافٍ لحياة مؤمنة. وكان اتباعها صارمين في تقاليد الكتاب ومنها ضرورة تطهير الأوعية وتطهير الأيدي والجسم قبل الصلاة والأكل، والابتعاد عمّا هو نجس بموجب تعاليم الكتاب، ولقد وقفوا ضد الملك جاك الأول ويمكن اعتبار عام ١٥٦٤ عام ظهورهم بشكل علني.

انتشر التطهيريون في هولندا وإيرلندا وكانوا من الاوائل الذين ذهبوا الى استيطان العالم الجديد معتبرين ان هذه هي الارض الموعودة، لذا اطلقوا عليها اسم كنعان الجديدة وراحوا يسمون المستوطنات بأسماء كتابية مثل حيرون وسالم «شالوم» كما فرضوا تعليم العبرية منذ اول وصولهم بغية خلق اجواء تتناسب مع الارض والوعد، كذلك ترجموا أول كتاب استعمل ككتاب يومي للمهاجرين وهو المزامير.

وعندما تأسست جامعة هارفارد عام ١٦٣٦ كانت العبرية من الموضوعات الإلزامية فيها وكانت أول أطروحة دكتوراه صدرت منها تحمل عنوان «العبرية هي اللسان الأم»، وبلغت الحالة العاطفية عند المهاجرين الأُول ذروتها عندما اعتبروا انفسهم اولاد اسرائيل الباحثين عن طريق الارض الموعودة كما اتخذوا يوم السبت كيوم راحة.

ان حياة المهاجرين الجدد كانت موحشة وهم في صراع مستمر مع اصحاب الارض الأصليين الذين اطلقوا عليهم اسم «الهنود الحمر»، اما الطقس فقد كان بمجمله حاراً ويخالف تماماً ما هو في انكلترا، والشمس على الدوام مشرقة محرقه، والرمال والصخور في كل مكان، لذا وجدوا انفسهم وكأنهم الشعب المختار في أرض غربة ينتظر الوصول لأرض تفيض لبناً وعسلاً، ومن اجل هذا صارت المزامير الكتابية كتعبير عن حالهم يترنمون بها ويحفظونها غيباً.

ففي مزمور ١٨ : «الرب صخرتي وحصني ومنقذي، إلهي الصخر به أعتصم، ترسي وقوة خلاصي وملجأي، أدعو الرب سبحانه فأنجو من اعدائي». أوليس هذا الكلام صالح تماماً لمهاجر في الارض الأميركية الغريبة القاحلة؟

وجاء في مكان آخر من المزمور عينه: «يجعل كالأيل رجليّ وعلى المشارف يقيمني، يعلّم يدي القتال وذراعي شدّ قوس النحاس. ترس خلاصك تعطيني، وعينك تعضدني وعلى الدوام تستجيب لي، توسع خطواتي تحتي ولم تتزعزع قدماي، أطارد اعدائي فأدركهم ولا أعود حتى أفنيهم، أضربهم فلا يستطيعون النهوض وتحت قدمي يسقطون، يصرخون ولا منقذ لهم، يصرخون الى الرب ولا يستجيب لهم، كالغبار في مهب الريح أسحقهم، من مخاصمات الشعب تنجيني ورأساً على الامم تقيمني، شعب لم اعرفه يخدمني. بنو الغرباء يتملقون لي، حالما يسمعونني يطيعونني، بنو الغرباء يخورون، ومن حصونهم مرتعدين يخرجون».

لقد اعطاهم الكتاب تبريرات لما يفعلون، وراحة ضمير في اجتياحهم الارض وقتلهم اهلها ما داموا يصنعون ملكوت الله برأيهم.

لقد صار المستوطنون التطهيريون النموذج الروحي للعهد القديم العبري وآمن بعضهم بأن الهنود الحمر في أميركا هم القبائل الاسرائيلية العشر المفقودة، وبذلوا جهداً ووقتاً كبيرين في نشر هذه الاسطورة، وقاموا بمحاولات فاشلة لتذكير الهنود الحمر بماضيهم التليد، وصار ذلك يعني لهم الانتظار الملكوتي. لذلك اندفع بعضهم الى زيارة حج للأراضي المقدسة في فلسطين كي يعززوا مخيلاتهم بأرض التاريخ، خصوصاً وان طوائف منهم شعرت بأنها نسخة عن الشعب اليهودي التائه في الصحراء عندما تاهت هي في صحراء اميركا، ولما استقرت في ولاية «يوتا» غيّرت اسم نهر كولورادو لتدعوه نهر باشان المذكور في العهد القديم.

هذا التهوّد المسيحي صار يقارب تحقيق رغبات اليهود انفسهم، وقام القس وليام بلاكستون Blackston بزيارة فلسطين مع ابنته عام ١٨٨٨ . وكان نشر قبل ذلك بعشر سنوات كتاباً يحمل عنوان عيسى قادم Jesus is coming ترجم الى ٤٨

لغة وبيع منه مليون نسخة. وقد رسخت الزيارة مقولاته حول عودة المسيح المنتظر الذي لا بد ان تسبق عودته قيام اسرائيل الموعودة. لذا عاد ليطالب بهجرة اليهود الى فلسطين لحل المسألة اليهودية الروسية، لأن فلسطين هي «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، ومن ثم نظّم عريضة مع كبار السياسيين والأغنياء لتطبيق مطلبه. ووصل بعض دعاة هذه النظرة الى سدة الحكم في اميركا وأولهم الرئيس ولسون (وهو ابن قس)، وقد أيّد في خطابه عام ١٩١٨ قيام الدولة اليهودية.

امام هذا المدّ الأصولي المسيحي كانت الكاثوليكية تنتشر ايضاً في البلاد الاميركية ولكنها ظلت الأضعف حتى القرن الثامن عشر حيث صارت تهدد السيطرة الانجيلية، لذا قررت الاكثرية إدخال مبدأ فصل الدين عن الدولة في نهاية القرن الثامن عشر. لكن هذا الفصل لم يكن واقعياً بل نظرياً اذ ان فصل الدين عن الدولة لم يعنِ فصل الدين عن السياسة، ولعبت المؤسسات الدينية دوراً سياسياً مهماً من خلال الشخصيات السياسية والمالية وأثرت على الحياة السياسية من خلال القوة الإعلامية الضخمة التي تملكها، والتي جعلت الناس يتجاوبون معها مشاهدة او اعلاناً او تبرعاً. وقد رصد البعض حوالي ١٤٠ مليون مؤمن وممارس ومتابع للنشاط الديني في أميركا، ومجموع ما قدموه لمؤسساته تجاوز ٦٠ مليار دولار.

في نهاية عام ١٩٨٢ سمح هدوء الأحوال بقيام أكثر من ١٨ الف مدرسة لتعليم أكثر من مليون تلميذ، وحوالي الفي معهد جامعي.

ان هذه الأرضية ساهمت بإيصال رؤساء أميركيين أصوليين من أهمهم الرئيس كارتر الذي اعلن عام ١٩٧٦ عن إيمانه بالولادة الثانية، كما اعلن الشعار نفسه الرئيس ريغان عام ١٩٨٤. وكان طبيعياً لهؤلاء السياسيين ان يستعملوا الدين عن قناعة او تكتيك خصوصاً وأن اكثر من ٤٧٪ من السكان في الولايات المتحدة الأميركية يتابعون البرامج الدينية من خلال ألف محطة تلفزيونية واذاعية. لذا لم يعد خافياً ان للفكر الديني تأثير كبير ناشئ على صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة الأميركية. وهذا ما كان له تأثير كبير على الموقف من الشرق.

الفيلم الأميركي

بقدر ما يحلم الشباب الأوروبي خصوصاً بالذهاب الى اميركا حيث الذهب والنفط، كذلك يحلم الأميركيون بالشرق وخصوصاً المتدينون منهم، وبالمجيء الى الاراضي التي رسمتها في مخيلتهم حوادث الكتاب فاعتبروا انهم اصحاب فعل الدينونة الأخيرة.

وكان المشهد الأكثر دراماتيكية لهؤلاء معركة هرمجدون التي ينتصر فيها الخير على الشر. ولكي ينتصر الخير لا بد ان تكون النبوءات قد تحققت وأولها انتصار الشعب اليهودي وتحقيق سيطرته على شعوب الأرض.

وقد لعبت هذه المعركة دوراً في الاحداث المتتالية على ساحة الشرق الأوسط.

سُمّيت معركة هرمجدون نسبة الى سهل مجدّو الذي يقع بين الجليل والضفة الغربية، ويتصوّر الأميركيون المتهودون أنه في هذه المعركة-المجزرة سوف تستعمل أسلحة كيماوية ونووية مدمرة، وسيقتل فيها مئات الآلاف من المهاجمين ومن اليهود معاً. بعد ذلك يظهر المسيح فوق أرض المعركة ليخلص بالجسد المؤمنين فيرفعهم اليه فوق سحب المعركة حيث يشاهدون بأم العين جثث القتلى والدمار والخراب على الأرض، قبل ان ينزل المسيح الى الارض ويحكم العالم ألف سنة».

ويعلق الدكتور السماك على ذلك فيقول: «ان الايمان بهرمجدون يتطلّب انتاج الأسلحة المدمرة، وقد أنتجت، ويتطلب خلق الظروف المؤاتية لاستعمال هذه الاسلحة في المكان الذي تحدده النبوءات للظهور الثاني للمسيح، وهذا المكان هو الشرق الأوسط».

ويظهر ان الرئيس ريغان كان متأثراً بهذه المعركة الفصل، وقد تابعها الدكتور السماك في كتابه عن الصهيونية المسيحية فقال ان الرئيس ريغان ناقش معركة هرمجدون عام ١٩٧٦ في مقابلة مسجلة مع جورج أوتيس، واعلن الرئيس السابق في المقابلة انه مولود مرة ثانية وأنه يشعر بذلك ويؤمن به. وفي حديث للإنجيلي جيم بيكر في مقابلة تلفزيونية قال ريغان: اننا قد نكون الجيل الذي سيشهد هرمجدون. وكرّر الأمر نفسه في حفل عشاء في منزله بكاليفورنيا، وصرّح أمام

جماعة من قادة اليهود فقال: ان اسرائيل هي الديمقراطية الثابتة الوحيدة التي يمكن ان نعتمد عليها كموقع لحدوث هرمجدون، كما نقل الصحافي فولويل عن ريغان قوله: جيري، إنني احياناً أؤمن بأننا نتوجه بسرعة كبيرة الآن نحو هرمجدون.

وجاءت معركة هرمجدون في الرؤيا على الشكل التالي:

«وصبّ السادس «ملاك» كوبه في النهر الكبير نهر الفرات فجف ماؤه ليعدّ الطريق لملوك المشرق، ورأيت ثلاثة أرواح خبيثة مثل الضفادع خارجة من فم التنين ومن فم الوحش ومن فم النبي الكذاب، فهي أرواح شيطانية تأتي بالخوارق وتذهب الى ملوك المعمور كله تجمعهم للحرب، وفي ذلك اليوم العظيم يوم الله القدير (هاأنذا آت كالسارق فطوبى للذي يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يسير عرياناً فتُرى عورته) فجمعتهم في المكان الذي يقال له بالعبرية هرمجدون» «رؤيا ١٦/١٢-١١».

كما أتى ذكر سهل مجدون في سفر زكريا حيث يتحدث عن عودة أورشليم منتصرة ويقول ان اعداء أورشليم سيندمون «كندم هودرمون في سهل مجدون «زكريا ١٢/١١». وجاء ذكره في سفر الملوك الثاني إذ كان فرعون المدعو نكد قتل يوشيا ملك آشور في مجدو «ملوك ٢٩/٢٣. ولكن شرّاح الكتاب المقدس يرون ان هرمجدون تعني جبل مجدو،ومجدو مدينة من مدن يزرعيل في سفح الكرمل، في حين يراها الدكتور شاهين تقع شمال القدس.

في عام ١٩٧٧ كتب «كريب» الرئيس السابق للقساوسة الإنجيليين الأصوليين: *«في هرمجدون ستكون المعركة النهائية، وسوف يسحق المسيح كلياً ملايين العسكريين المتألقين الذي يقودهم الدكتاتور المعادي للمسيح».*

اما سيناريو هذه المعركة فقد رسمه «لندسي» بهذه الخطوات: قيام اسرائيل، عودة يهود الشتات الى أرض الميعاد، إعادة بناء هيكل سليمان بعد هدم المسجد الأقصى، تعرض اسرائيل لهجوم كبير من (الكفار) المسلمين، قيام دكتاتور يتزعم هذه القوات المهاجمة، خضوع معظم العالم لسيطرة هذا الدكتاتور، تحول ١٤٤ ألف يهودي الى المسيحية بحيث يصبح كل واحد منهم مثل «بيل غراهام»، وقوع

حرب نووية - معركة هرمجدون -، رفع المسيح للمؤمنين بالولادة الثانية فوق السحب ونجاتهم من الكارثة، وهذا يحدث بسرعة، ثم يعود المسيح بعد سبعة أيام ليحكم الأرض مع المؤمنين لمدة ألف عام». والرقم ١٤٤ ألف هو الذي يعني ١٢ الفاً من كل من الأسباط الإسرائيلية الإثنتي عشرة. وقد ورد في الرؤيا ٧٠/-٤-٨.

اذاً، التركيز يتم على ثلاث نقاط هي قيام الدولة الاسرائيلية القوية، قيام الدكتاتور القوي المعادي، المعركة على أرض فلسطين في هرمجدون وهي معركة نووية، وطبعاً الانتصار هو للأصوليين المسيحيين المتصهينين الألفيين الذين يعني انتصارهم انتصار اورشليم الجديدة.

بالنسبة للنقطة الأولى فقد تحققت وعملت الأصولية المسيحية على مساعدة اليهود على تحقيقها وفقاً للنبؤات التالية:

تطلّعي يا أورشليم من حولك نحو المشرق وانظري الابتهاج الوافد عليكِ من عند الله، ها إن ابناءك الذين ودعتهم قادمون يأتون من المشرق الى المغرب مجتمعين بكلمة القدوس ومبتهجين بمجد الله. باروك ٣٧/٤.

وهكذا قال السيد الرب: اني حين أجمع بيت إسرائيل من بين الشعوب التي شتتوا فيها أتقدس فيهم أمام عيون الأمم ويسكنون في ارضهم التي أعطيتها لعبدي يعقوب ويسكنون فيها آمنين، ويبنون بيوتاً ويغرسون كروماً ويسكنون آمنين حين أجري أحكاماً على جميع المحتقرين لهم من حولهم فيعلمون اني انا الرب إلههم. حزقيال ٢٦/٢٨.

وقال الرب: ها انذا آخذ بني اسرائيل من بين الامم التي ذهبوا اليها واجمعهم من كل جهة وآتي بهم الى أرضهم وأجعلهم أمة واحدة في هذه الارض في جبال اسرائيل وملك واحد يكون ملكاً لجميعهم حزقيال ٢١/٣٧.

ان الرب أسس صهيون وبها يعتصم بائسو شعبه /أشعيا ٣٢/١٤.

في ذلك الزمان تقدم هدايا لرب القوات من الشعب الممشوق الأسمر الشعب المرهوب هنا وفي البعيد، الأمة القوية الشديدة الوطء التي تقطع الأنهار أرضها الى مقر اسم رب القوات جبل صهيون. اشعيا ١٨/-٧.

في ذلك اليوم يعود السيد فيمد يده ثانية ليفتدي بقية شعبه من بقي منهم في أشور

ومصر وفتروس وكوش وعيلام وشنعار وحماة وجزر البحر وينصب راية للأمم ويجمع المنفيين من اسرائيل ويضم المشتتين من يهوذا من أربعة أطراف الأرض /اشعيا ١١/١٢.

ان بوش الإبن وهو من الذين يؤمنون كثيراً بأن المسيح مخلص شخصي له وبالتالي فهو من أصحاب الولادة الثانية، فإنه قد أخذ على عاتقه تحقيق النقطة الثانية منطلقاً من اعتبار ان بغداد هي وريثة بابل، وأنها هي التي تملك الاسلحة التي يمكن ان تهدد اسرائيل، والإصرار على انها تملك هذه الاسلحة ليست حجة سياسية فحسب بل ضرورة كي تتحقق النبؤة. لذا فهي تملك هذه الاسلحة حقاً أو وهماً، فهذا ليس مهماً. وتدميرها سريعاً ضرورة أيضاً لأنه جاء في النبوءة ذلك. اما تدميرها واستباحتها وسرقتها فهذا أيضاً مشهد نبوي يجب ان يحدث. ويفرح بوش جداً عندما يسمع ان شركات تجارية أفلست لأنها لم تعد تستطيع الاستمرار بسبب عدم امكانية إرسال بضائعها الى بغداد، فهذا تحقيق للنبوءة ايضاً.

«يا ويلتاه، يا ويلتاه، أيتها المدينة العظيمة بابل، المدينة القوية، لأنه في ساعة واحدة أتى الحكم عليك وتجار الارض يبكون ويحزنون عليها لأن بضاعتهم لن يشتريها احد - رؤيا ١٨/-١٠-١١.

وفي نبؤة اشعيا يقول: *«فأقوم عليهم يقول رب القوات واستأصل من بابل الاسم والبقية والذرية والعقب يقول الرب، وأجعلها ميراثا للقنافذ وأكنسها بمكنسة الإبادة يقول رب القوات - اشعيا ١٤/٢٢ - ٢٣».*

وفي مكان آخر: *«فبابل زينة الممالك وبهاء فخر الكلدانيين تصير كسدوم وعمورة اللتين قلبهما الله فلا تسكن ابداً ولا تعمر الى جيل فجيل ولا يضرب إعرابي فيها خيمة ولا يربض هناك رعاة». أشعيا ١٣/ ١٩ -٢٠.*

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فقد قرّ الرأي بأن الدكتاتور المقصود كان حاكم مملكة بابل، وهذا يعني في الصيغة المعاصرة اليوم حاكم العراق أي صدام حسين وذلك وفقاً للنبوءات القديمة التي كانت تنبّأت بخراب بابل.

«رأيت بعد ذلك ملاكاً آخر هابطاً من السماء له سلطان عظيم، فاستنارت الارض من بهائه، فصاح بصوت شديد: سقطت، سقطت بابل العظيمة وصارت مسكناً للشياطين - رؤيا

١/١٨».

لكن صدام حسين جعل آمال بوش تخيب بعدم قيامه بأي معركة ما، أفسد سيناريو الدكتاتور وأفسد متعة قتله.

ان بوش يريد ان يصل الى معركة هرمجدون وهو لا يريد ان يكون مثل ريغان مجرد حالم بها، إنه يريد ان يشهدها ويصنعها لذا فهو يبحث الآن عن دكتاتور آخر مكان ما ذهب اليه الدكتاتور صدام. ومن اجل تهيئة معركة هرمجدون لا بد ان يجتذب المسلمين ويضعهم تحت رعايته لأنهم الفئة المهيأة للمعركة، لذا فيجب ان تكون مرجعياتهم الدينية تحت سلطته، من هنا فالضرورة تقضي بتثبيت مرجعية الشيعة في العراق وتقويتها وتثبيت مرجعية السنة في السعودية وتقويتها، وهو يضع في هاتين الدولتين جنوده واستخباراته كي يسهر على رعايتهم فإما ان يقوّيهم للقيام بالمعركة التي ينهيهم فيها بالأسلحة النووية، واما ان يمسخهم ويجعلهم يدخلون في المعمودية الأولى تمهيداً لإدخالهم في الولادة الثانية، ومن اجل هذا فإن المائة والاربع واربعين الفاً من المبشرين جاهزين للانطلاق الى العالم الاسلامي وبوش يمهد الطريق لهم بأن يفرض الديمقراطية التي تمنع التعرض لأي شخص يريد تغيير دينه من ناحية، ومن ناحية أخرى، يقدم لهم كل التقنيات والمساعدات الممكنة لتحقيق غرضهم.

ان بوش مقتنع بأن معركة هرمجدون يمكن ان ينتصر فيها المسيح بواسطته، وأورشليم الجديدة سوف تحكم بامتياز ويكون بذلك قد حقّق النبوءات التي تحكي عن ذلك.

ان أموراً كثيرة ذات خلفية في النبوءات يعمل اليهود والمتجددون في الولادة الثانية على تحقيقها، وفي بعضها يظهر لبنان كأحد المستهدفين منها حيث يظهر كشهوة لليهود يتمنون أن يتشبهوا به، لذا فهم يحسدونه ويحقدون عليه لأنه المشتهى. جاء في نبؤة هوشع:

«أكون لإسرائيل كالندى يزهر كالسوسن ويغرز جذوره كلبنان، وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان، فيرجعون ليجلسوا في ظلي ويحيون الحنطة ويزهرون كالكرمة

فيكون ذكره كخمر لبنان. هوشع ١٤/٦- ٨».

لذا لا غرابة أنهم عندما قرروا ان يجتاحوه اطلقوا على عمليتهم «عناقيد الغضب» اذ ان تسميته «عناقيد الغضب» هي من الرؤيا حيث يقول: اسقطي علينا وغطينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الحمل فقد جاء اليوم العظيم يوم غضبها فمن يقوى على الثبات. «رؤيا ٦/١٦».

في قراءة اخرى لهذه النبؤات وللذين يؤمنون بها وهم ليسوا في صف بوش واليهود فانهم يرون ان بوش هو الدكتاتور الذي يقف أمام مجيء أورشليم الجديدة، وأورشليم الجديدة كما يقول المسيحيون الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليون المعتدلون انما هي كنيسة المسيح الجامعة، وهي جماعة المؤمنين بالسلام والأخوّة، وإن جيوش المبشرين من أتباع الولادة الثانية المنقادين الى جيوش العسكر الاميركي - الانكليزي انما هم جيوش القوى الظلامية، ولا غرابة ان يخشى بابا روما على المسيحيين في حرب بوش على العراق لأنه في الواقع لم يخشَ على مسيحيي الشرق من المسلمين بل خشي عليهم من جيوش المبشرين المتصهينين.

وبخلاصة الأمر أن اليهودية نظرت الى المسيحية على أنها متمرّدة عليها، فأوحى كبارها الى الرومان باضطهاد المسيحيين كفرقة يهودية منحازة ضدهم. وظلّ الأمر هكذا أربعة قرون لتقوم بعدها المسيحية بمشروع سياسي مع الملك قسطنطين الذي جعله خليفة المسيح ملكاً على روما. عندها بدأت المسيحية بتجميل نفسها ووضع قوانينها وأعادت النظر بالماضي، فاعتبرت أن اليهود هم المسؤولون عن قتل المسيح وإنهم هم المتمرّدون الذين رفضوا العهد الجديد والمسيح المنتظر، لذا قاموا باضطهادهم ونبذهم وطردهم تباعاً من كل الدول الإستعمارية الكبرى بدءاً بإسبانيا والبرتغال حتى بريطانيا وفرنسا نفسها. وعندما قام الإصلاح اللوثري المتمرّد على الكاثوليكية، لم يتعاطف مع اليهود لكنه أعطى زخماً لقراءة العهد القديم الذي تأثر به المتمرّدون على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ووجدوا أن الشعب اليهودي لديه وعد إلهي وبالتالي فاليهود

مظلومون. وراح الأوروبيون يدعون الى إنصاف اليهود وإعطائهم أرض الميعاد. وعندما فتح العالم الجديد وراح البريطانيون المتمزقون بين فجر الإنتاج الصناعي والإستهلاك السلعي الجديد، ينزحون الى هذا العالم، وجدوا أن مشاعرهم ونفسياتهم متأثرة بالغربة، وأن وجودهم في المكان الجديد يحتاج الى تمظهر إلهي، فاعتبروا أن الأرض الجديدة هي أرض الميعاد المنتظرة لهم، فراحوا يبحثون في كتاب اليهود عن كل ما يفرّج كربتهم ويساعدهم في غربتهم. هكذا بدأ اليهود يأخذون مواقعهم داخل الذهنية الأميركية. وبما أن المسيحيين لا يتمكنون من الإرتداد عن دينهم الى السابق له، لذا راحوا يحاولون إحداث تمازج بين المسيحية واليهودية من خلال التعتيم على الإنجيل والإضاءة على جوانب العهد العتيق في الكتاب المقدّس. وقد ساعدهم في ذلك فسحة الحرية المتاحة في الكنائس الإصلاحية في مجالات التعليم والتفسير، كون المؤسسة لا تلغي حرية الفرد. ووصل الأمر الى مجموعات مسيحية متهودة بالجوهر ومحافظة على انتمائها المسيحي بالمظهر، وكان من هؤلاء التطهيريون والألفيون وذوو المعمودية الثانية (الجديدة).

ويصبح واضحاً اكثر لماذا يصرّ بوش على اعلان الحرب على الأصوليين المسلمين، بدءاً من بن لادن (الذي اخترعه) وصولاً الى صدام الذي قوّاه وشجعه. إنه يريد ذريعة لأصوليته، وهو المعبر عن الاصولية الصهيونية نفسها التي تريد عالماً أكثر إسلاماً كي تكون اسرائيل عالماً اكثر تهوّداً.

وتقتضي الضرورة قيام حكومات عربية وأنظمة مشرقية ذات رؤية قومية وإنسانية عوضاً عن الرؤيا النبوية الكتابية، وذات انفتاح عالمي عوضاً عن الأصولية العولمية، كي تتمكن من إسقاط هذه الاستراتيجية الصهيونية الجديدة ذات القناع المسيحي الذي يقول بأن المسيح يخلّصه شخصياً وفي الواقع فإن شخص المسيح لديه ليس اكثر من اسقاط لهلوساته الشخصية الداخلية الكاوبوية.

لقد اظهر الواقع ان التبجح العلماني واعلان فصل الدين عن الدولة في الدستور الأميركي لم يحل دون انتشار الأصولية في صفوف النخبة الحاكمة، ولم

يمنع اللوبي اليهودي من ممارسة ضغوطاته على مراكز القرار، لذا، فليست الديمقراطية التي يبشّر بها بوش هي نفسها الديمقراطية التي تحمي الانسان المعتدل. المطلوب هو انبثاق افكار من تجربة الشرق والغرب والاسلام خلال معاناتهم التاريخية، وتألقهم ذات يوم، وهذه تحتاج الى أسس تقف سداً أمام الأصولية في مختلف وجوهها، ولعل من اهمها:

- إعتبار الإيمان الروحي شأناً حياتياً فردياً يغذي انتماء الانسان للجماعة ويعطيه أخلاقية التعاطي مع الآخر بمحبة وتعاون كون الآخر صورة لوجه الله العادل والمحب.

- إعتبار السياسة شأناً استراتيجياً أرضياً زمنياً لا ارتباط له الا في الشأن الاقتصادي والأمني الاجتماعي والأمني العسكري، وفكّ أي ارتباط بينه وبين أية خلفية دينية.

- القيام بحملة منظمة لنبش المفاهيم الماورائية التي قدمتها حضارتا الفرات والنيل وتبيان أهميتها الاساسية في نشوء الديانات التوحيدية، واعتماد تعليم الميتولوجيا كمادة أساس في المراحل التعليمية الثانوية وعدم الاقتصار عليها في الجامعات.

ان هذه النقطة مهمة جداً وأساسية لإسقاط كل مقولات اليهود الذين يعتبرون كتابهم أساس المسيحية والإسلام، بل يجب ان يعرف كل الشرق ان اساس دياناتهم انما هو التأملات والممارسات التي قام بها اجدادهم عبر أحقاب الزمن الطويل، وان العكس هو الصحيح، فكتاب العهد التلمودي اليهودي ليس سوى نتاج مسروق من الحضارة الفرعونية والحضارة البابلية الآشورية.

- اعتماد لغة التواصل والتخاطب الديني في الحوار الديني القائمة على الاختيار الحياتي وليس ابداً على الكتاب، لأن اية عودة الى الكتاب تعني الأصولية الحرفية المتزمتة. ومهما حاول بعض المنفتحين ان يبرهنوا العكس فإن الحجة قائمة بيد الأصوليين الدينيين، ألا وهي العودة عند الخلاف الى المحتوى الحرفي للنص.

اما الإعتماد على التعليم الرسمي للمؤسسات الدينية فلم يصحّ لأن هذا التعليم لم يكن بالقوة المطلوبة، فقد تحصّن المؤمنون في الطوائف الرسمية بتعليم مرجعياتهم الدينية. لكن يكفي ان تخرج جماعة ما عن المرجعية حتى تُخلق أصولية جديدة، وهذا عملياً ما حصل، إن كان في الكنائس المتجددة أو في الفرق الاسلامية المتعددة. وكذلك الحال بين اليهود أنفسهم.

- العمل جدياً وبقوة على أحلاف قارّية، إذ من الطبيعي والمنطقي ان تكون دول آسيا متحالفة في ما بينها،وكذلك دول افريقيا، أمام الهجمة الأميركية. لقد كال الكثيرون المديح لأوروبا إذ وقفت ضد الهيمنة الاميركية، معتقدين ان أوروبا الديمقراطية لا تسمح بخرق القرارات الدولية، متناسين ان المشكلة ليست هكذا ابداً، بل لأن اوروبا لا تريد ترك أميركا تستولي على كل شيء، وانما تريد حصتها من الغنيمة لا أكثر، وان التاريخ القريب يحكي قصة سايكس-بيكو والاستعمار الفرنسي والتعصّب الشوفيني الألماني وكذلك الإيطالي والإسباني والبرتغالي وحتى التركي لبلاد آسيا وافريقيا. هذا طبعاً عدا التعصّب الإنكليزي المتحالف دوماً مع «أبنائه» الأميركان.

ان التاريخ لم يسجل طمعاً صينياً أو يابانياً أو هندياً ببلادنا بل سجّل باستمرار التعاون بين القوافل والاحترام بين الحكمة والكلمة، وهذا تراث كبير يمكن احياءه.

- وضع استراتيجية نزع استعمارية (عن بلادنا) من خلال المدارس ذات التبعية الثقافية الغربية. ان وضع افكار في رؤوس التلامذة العرب عن عظمة أميركا وديمقراطيتها وعن روعة أوروبا وسحرها يجعلهم يشعرون ان الحياة هناك تستحق أن تعاش، وان لم يتمكنوا من مجاراتها كنّوا لها العداوة والبغضاء. لكن الحكمة تقضي عدم الانشداق بذلك وعدم بغضه أيضاً بل التعامل معه كواقع قائم من دون عقد. والضرورة تقضي بتشجيع مدارس تدرّس لغات حيّة أخرى كالصينية والهندية وبقية اللغات الآسيوية والسلافيه وغيرها.

واذا كانت هذه افكار بعيدة المدى او صعبة التحقيق فإن افكاراً اخرى ضرورية أيضاً لمجابهة المبشرين الآتين حكماً وقريباً جداً محميين بالقوة الأميركية.

انهم يأتون ومعهم الكتاب المقدس العتيق والجديد، وهم آتون ولديهم البراهين على تحقق النبؤات التي في الكتاب. وهم عاملون حكماً بالتبشير في أوساط المسيحيين الشرقيين كما فعلوا في القرن التاسع عشر، والفارق ان الدولة العثمانية آنذاك رفضت ان تسمح لمسلم بتغيير دينه. أما اليوم فلا دولة مستعدة الدخول في نزاع مع الولايات المتحدة من اجل ذلك. لذا فالتزامن سيكون قائماً، وستكون حجة الاميركان ان كل البيوت والمدارس مفتوحة للتبشير، ومن منع ذلك فهو أصولي ضد الديمقراطية وبالتالي ضد مصالح الولايات المتحدة الاميركية وكيلة التطبيق الديمقراطي، لأن هذا التطبيق وحده يعني تطبيق حقوق الانسان، وحقوق الانسان لا توجد إلا بمفاهيم القوة الاميركية.

ان مجابهة هؤلاء المبشرين لن تكون سهلة، فلديهم قوة إقناعية ومقدرة على تحقيق سيطرة نفسانية تعلموها وإمكانات مالية وتكنولوجية لخدمتهم، وقوة اعلامية كبيرة من رجال دين من المسيحيين والمسلمين في خدمتهم لتسهيل مهمتهم امام الناس المؤمنين.

لذا، فمن أجل مجابهتهم ينبغي تأسيس سريع لمركز معلوماتي، وإقامة دورات سريعة للمعلمين والمثقفين والإعلاميين حول طرق هؤلاء المبشرين وعن الوسائل الناجعة في مقاومتهم من دون الدخول في القادمين معهم لئلا تنعكس توتراً سياسياً وعسكرياً مع حماتهم.

كذلك يجب وضع الإمكانات المالية اللازمة لنشر الكراسات والمجلات الدورية عن أسس وأصل رموز العهد القديم في الحضارة الفرعونية والأشورية، واعتبار ان الكتاب ليس اكثر من جسر عبور بين ماضينا القديم وحاضرنا، إذ لا احد ينكر دوره في حفظ الماضي، لكنه ليس الأصل ولا الجوهر.

ان المعركة التي يترقبها أصحاب الصهيونية المقنّعة بالمسيحية في سهل مجدو هي معركة بين الخير والشر، واذا كنا نؤمن ان حضارة الخير انطلقت من بلادنا عبر التاريخ فلا يمكن لنا ان نخسر ما انتجنا. المهم ان نتعرف على انفسنا قبل ان يأتوا هم ليعرّفوننا على انفسنا بصورة ما يودون ان نعرفه. إنهم بكل بساطة لا

يريدون الإكتفاء بسرقة مواردنا بل يريدون سرقة أرواحنا لأن شعارهم هو سرقة الارض والشعب، لأن سرقة الارض دون الشعب تعني الثورة الدائمة، وهذه تجاربهم في فيتنام وفي كوريا وفي فلسطين قائمة.

وسرقة الشعب دون الارض لا تغنيهم، هذا ما تعلموه من سرقة أبناء أفريقيا. لذا الأمثل والأفضل لهم سرقة الارض والشعب، وهذا لا يتمّ إلا من خلال غسل دماغ وتبعية روحية، وهذا ما يودون فعله. فهل نقوم نحن بما يجب علينا فعله؟ الجواب لا يحتاج الى تأمل وتفكير بل يحتاج الى عمل وتدبير. فلنقم به.

المراجع

١- شاهين ، د. جيروم، المسيحيون العرب بين الفيتين، دار مختارات ،طبعة ١ بيروت ٢٠٠١
٢- السماك ، د. محمد، الصهيونية المسيحية دار النفائس طبعة ٣ ، بيروت ٢٠٠٠
٣ - ابي خليل، شحادة ميلاد تاريخ الباباوات (مترجم) منشورات صوت المحبة طبعة ١ كسروان ١٩٨٨
٤- الحسن، د. يوسف ، البعد الديني في السياسة الاميركية ،مركز الدراسات العربية طبعة ١ بيروت ١٩٩٠
٥- زينة، حسين، ما هي الصهيونية المسيحية الاصولية. نشرة صادرة عن مجلس كنائس الشرق الاوسط- النسخة العربية ١٩٩١
٦- سواح، فراس، الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم ، دار علاء الدين ، طبعة ٣ دمشق ١٩٩٧
٧- بابا دويولوس، خريستوس، تاريخ انطاكية، تعريف الاسقف استفانس حداد، منشورات النور،١٩٨٤
8- Encyclopédique Grand Larousse
٩- الكتاب المقدس بعهديه العتيق والجديد
١٠- معجم اللاهوت الكتاب (مترجم) دار المشرق بيروت ١٩٨٦
١١- معجم اللاهوت الكاثوليكي كارل واهنر ، ترجمة المطران عبدو خليفة، دار المشرق ، بيروت ١٩٨٦

النفط في لبنان:
الإحتمالات، الإنعكاسات

د. مصطفى مروة*
د. غسان الشلوق*

يعود، مجدداً، الحديث على احتمالات وجود النفط في لبنان. الى أيّ حدّ يستند هذا الحديث الى مقوّمات علمية، وما هي انعكاسات أي اكتشاف محتمل على المعطيات الاقتصادية العامة ؟ هذا البحث يحاول الإجابة عن هذين السؤالين، وسواهما، بما توافر من أدلة وعناصر.

الطبيعة، الإحتمالات

يقوم النفط على طبيعة خاصة، معقدة، ويستند البحث عنه، بالتالي، الى فهم هذه الطبيعة والى متابعة نشأتها وتطورها منذ القدم.

اولاً: في الطبيعة

١- في منشأ النفط - مراجعة مبسّطة:

بعد اكتشافه (في النصف الثاني من أواخر القرن التاسع عشر)، في مفهومه العصري كمصدر للطاقة، خضع النفط للبحث والتحليل والدراسة من جميع الوجوه والجوانب العلمية تفصيلاً وتدقيقاً. وقد تبيّن منذ اللحظة الأولى أن النفط، في تركيبته الكيميائية، هو نتاج تحلل عناصر عضوية، هيدروكربونية[1]، واستمر هذا الرأي سائداً حتى مع تقدم علوم التحليل الكيميائي في أواخر القرن العشرين، على رغم ظهور عناصر شاذة في سياق عملية الاستكشاف النفطي. وتعزز الشك في هذه العناصر الغريبة بعد اكتشاف بعض الجيوب

(* عميد كلية الزراعة في الجامعة اللبنانية، استاذ في العلوم الجيولوجية
(*عضو المجلس الاقتصادي والاجتماعي، استاذ العلوم الاقتصادية في الجامعة اللبنانية

النفطية في صخور نارية (تشكلت بفعل تبلور من الصهارة "الماغما" التي تحتل النطاق الثاني من باطن الأرض)، لا يبدو أثر تحلل المادة العضوية ظاهراً فيها. إلا أن هذا الشك في أصل النفط، وسيطرة النظريات التي تتحدث عن النفط كنتاج عمليات باطنية، لم تبلغ درجة كافية من الحسم لتلغي طغيان العنصر العضوي في تشكل النفط وسيطرة هذه النظرية شبه المطلق. وقد تتابعت الأبحاث في طرق تشكل النفط وزمن تكونه في شكله النهائي وظروف هذا الشكل الفيزيائية منها والكيميائية، حتى توصلت هذه الأبحاث إلى اكتشاف بعض العناصر ذات الأصل العضوي، كالأبواغ على سبيل المثال (Spores et pollens)، لتؤكد بشكل قاطع على أن هذه المادة التي في أيدينا نتجت عن تحلل نباتات. وتجدر الإشارة هنا الى ان الأبواغ هي عناصر هيدروكربونية شديدة التعقيد[٢]، مقاومة لعوامل التحلل، وهي تعمر في اقسى الظروف الطبيعية دون أن تتحلل، وقد وجدت بعض الأبواغ سليمة في طبقات صخرية تعود إلى ٦٠٠ مليون سنة.

ونتيجة لهذه المعلومات أصبح بالإمكان تصوّر مراحل نشوء النفط من بقايا النباتات والحيوانات الدقيقة المجهرية اللا فقرية منها والفقرية، وبالطبع بكميات هائلة، بعد موتها وطمرها وتعرضها لظروف محددة من الضغط والحرارة والبعد عن عوامل التأكسد[٣] بحيث تصبح بعد فترة معينة، بقايا عضوية متحللة، تأخذ في مراحل تحولها الأولية شكل الفحم إذا بقيت دون تفتت واندثار وتجزئة، وقد تتطور ظروف تحولها وتحللها، بحيث تتحول إلى جزيئات أولية من العناصر الهيدروكربونية وعند ذاك، وضمن بعض الظروف الطبيعية، يصبح بالإمكان تحولها إلى هذه المادة الشديدة التعقيد والتركيب ,اي النفط، وبالطبع، لم تتوضح كلياً كيفية هذا التشكل وميكانيكية اتحاد العناصر الكيميائية، وإلا لأمكن تركيب النفط الخام في المختبر – وهو الأمر الذي لم يحدث بعد. إلا أنه من الواضح أن تنوع العوامل التي تلعب دوراً بارزاً في تشكل النفط، يمنع تحديد الأولويات في عملية النشوء بوضوح ولكنه لا يمنع القول أن العامل الأول والذي لا ريب فيه حتى الآن، هو الزمن ,اذ لا توجد معلومات حتى الآن عن مادة نفطية تشكلت بطريقة طبيعية قبل ١٠ مليون سنة، وهو النفط الخام المكتشف في طبقات الطور الجيولوجي الثابت (وقد اصطلح على تسميته باللغة الجيولوجية بالطور الثالث الذي بدأ منذ نحو ٦٠ مليون سنة والذي يأتي بعد الطور الثاني أو الوسيط الذي

بدأ منذ نحو ٢٥٠ مليون سنة ، والذي يسبقه بالطبع الطور الأول الذي يبدأ منذ نحو ٦٠٠ مليون سنة وهو الطور الذي نشأت فيه الحياة الأولية على الأرض)[٤].

٢ -في *تراكم العناصر الهيدروكربوناتية*:

إن هذا البعد الموغل في الزمن يدعو إلى التوقف أمام بعض الحقائق الناتجة عن وقع الزمن وتأثيره على الطبيعة. وثمة حاجة، هنا، للعودة إلى بعض الوقائع الأساسية في تكوين الأرض: فشبه الكرة التي هي الأرض تتألف من عدة مناطق بدءاً من المراكز، حيث توجد النواة الداخلية، تليها النواة الخارجية ثم الصهارة التي هي مزيج من المواد الأولية المكونة للأرض بكامل عناصرها والتي توجد بشكل سائل شديد اللزوجة[٥]. وتلف هذه المنطقة القشرة الأرضية الصلبة والتي تتعرض للتفسيخ والتكسر أحياناً مما يؤدي إلى خروج الصهارة بشكل براكين، وهذه القشرة الرقيقة نسبياً بالمقارنة مع قطر الأرض تصل سماكتها الى ما بين ٨٠ و١٠٠ كلم، وضمن هذه القشرة، أو الطبقة الخارجية للأرض، تتكون الصخور الرسوبية من نتاج عمليات الحت والتعرية وتتراكم تدريجياً وخلال سنين طويلة، لتكوّن الغطاء الرسوبي، الذي يحوي عملياً كل المواد والعناصر الاستراتيجية لتطور الحياة ومنها الماء.وفي هذا الغطاء ايضاً تم اكتشاف النفط المادة الاستراتيجية التي ساهمت في التطور اللاحق من خلال الطاقة الناتجة عنها. وفي هذا الغطاء الرسوبي تجري عمليات محددة، تبعاً لنوع التراكم الرسوبي وظروف نشوئه، وطبيعة المادة المكونة له. وعلى سبيل المثال فان الغطاء الرسوبي للأرض اللبنانية يتكون من المواد الآتية:

- صخور كلسية صلبة ذات منشأ كيميائي نتجت عن عمليات كيميائية بين العناصر الطبيعية وأدّت إلى نشوء المادة الكلسية المعروفة بـ"كربونات الكالسيوم" (CaCo3). وقد تكون هذه الصخور نشأت من عنصر عضوي من بقايا عظام الحيوانات أو الصدف أو حتى من عضويات حياتية مجهرية. وتتراكم هذه البقايا وتترسب فوق بعضها البعض لتؤدي بعد زمن طويل الى تراكم الرسوبيات والذي قد يصل احياناً إلى عدة آلاف من الأمتار. وتتعرض هذه الصخور بعد بروزها على سطح الأرض إلى مجمل عوامل التعرية والحت وربما أو غالباً إلى عوامل الجيوديناميكية الداخلية وأحياناً إلى عوامل التحلل الكيميائي، فتصاب بنتيجة ذلك كله بالتكسر والتخلع

وذوبان بعض أقسامها وتفتت جوانب منها وتتحول في النهاية إلى كتلة صخرية منخورة أو مجوّفة أو حتى مشققة (وتدعى صخور حاملة) وتصلح بشكل عام لاحتواء السوائل الجارية من سطح الأرض إلى الداخل (كالماء) أو من الداخل والأعماق إلى داخل هذه الخزانات (مجازاً) وتدخل في ثناياها[٦] (كالنفط) وتدعى في نهاية الأمر بالخزانات.

- ومن صخور صلصالية أو طينية (يقال لها أحياناً دلغانية أو مرليه نسبة إلى الصخر الكلسي الفتاتي الهش). وهذه الصخور تتكون عملياً من جزيئات ما تحت المجهرية، وهي جزيئات دقيقة جداً. ان تراكم هذه الجزيئات قرب بعضها البعض لا يترك فراغاً، وهي لذلك تدعى مانعه (أي انها لا تسمح للسوائل بالدخول إليها إلا بقدر محدد، ولا تسمح للسوائل التي بداخلها بالخروج إلا بقدر محدد). وقد تكون هذه الصخور الفتاتية (كونها تأتي من تفتت صخور قاسية) قليلة السماكة وقد تكون عالية السماكة إلى أن تصل الى عدة مئات من الأمتار وأحياناً اكثر.

٣- *في هجرة النفط*

ضمن هذا النوع من الصخور تتداخل الجزيئات ذات المنشأ العضوي وتأخذ ببطء شديد بالتحول من أصلها النباتي أو الحيواني إلى شكلها الجديد كهيدروكاربونات، على شكل جزيئات صغيرة (goutelettes) تصلح مع الوقت للتحول إلى قطرات نفط. في هذه اللحظة بالذات وبعد عدة ملايين من السنين، تبدأ هذه المكونات الجديدة بالهجرة من مكانها القديم بفعل الضغط (Compaction) وتتجمع خارجاً إما إلى الطبقات التي تتبع أدنى منها في التراتب الطبيعي، أو اعلى منها والتي يصلح أن تكون خزانات لكميات كبيرة شرط أن تكون محصورة بطبقة مانعة من فوق واخرى من تحت، الأمر الذي يشكل وعاءً قادراً على احتوائها.

إن الهيدروكاربونات عموماً هي ذات ثقل نوعي خفيف (أقل من ١) أي أنها اخف من الماء، لذلك فانها تطفو على سطح الماء، مما يعني أن الوعاء إذا كان مسطحاً وافقياً فإن القطرات النفطية تنتشر على سطح الماء على شكل طبقة رقيقة (film) لا يؤدي وجودها إلى تراكم كبير.

وبفعل العوامل الديناميكية الداخلية وتعرض الطبقات الصخرية بأنواعها إلى

عوامل ضغط جانبي (Compression)، وقوى دفع عمودية، تتغير أشكال الطبقات الصخرية (الصلبة، والهشة، الكلسية والطينية) وتتحول من طبقات أفقية إلى تعاقب طيات محدّبة ومقعّرة (طيات إيجابية وطيات سلبية Anticlinal et) Synclinal) تسمح للسوائل إما بالركود في ثناياها أو الإنزلاق على أطرافها. وفي حال وجود المواد النفطية، والتي تطفو على سطح الماء بسبب من ثقلها النوعي الخفيف، تتراكم هذه المواد في نطاق الطيات المحدبة، بين طبقتين قائمتين إحداها في الأسفل والثانية إلى الأعلى، ويرقد الماء في قبّة الطبقة المحدبة حاملاً النفط إلى القسم الأعلى من الطبقة المقابلة. وبهذا نحصل على المصيدة أو الخزان النفطي.

ثانياً: وجود النفط في منطقة الشرق الأوسط

١ - الوضع الجيولوجي

يقع لبنان جغرافياً في أقصى غرب القارة الأسيوية كما هو معروف إلا أن هذا الموقع يتميز بكونه يقوم بشكل أدق في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية التي تضم كلاً من اليمن والسعودية وعمان والإمارات والبحرين وقطر وفلسطين المحتلة وسوريا والأردن ولبنان والكويت والقسم الأكبر من العراق. وهذا الواقع يؤدي الى ضرورة الالتفات الى الوضع الجيوديناميكي لشبه الجزيرة العربية كونها تقع بين بحرين: الأحمر من الغرب والخليج العربي من الشرق، مع وجود أطرافها الجنوبية على ضفاف بحر العرب، والقسم الشمالي الغربي منها، على امتداد البحر المتوسط، وهي في هذا الموقع تنتمي إلى آسيا ولكنها تتصرف جيولوجيا بشكل مستقل. وبتأثير من انفتاح البحر الأحمر وتوسعه، بسبب الفالق الافريقي العظيم، تتجه شبه الجزيرة العربية إلى الشرق، وبتأثير الفالق المشرقي الكبير (فالق البحر الميت واليمونة) تتحرك شبه الجزيرة هذه على طول هذا الخط بحركة افقية نحو الجنوب[٧].

هاتان الحركتان تؤديان إلى حركة محورية شبه دائرية، الأمر الذي يجعل القسم الغربي (الواقع إلى الغرب من فالق اليمونة والبحر الميت) يتحرك شمالا بعكس حركة باقي شبه الجزيرة[٨] (movement senestre). الا أن الاتجاه العام للحركة هو تقدم قارة افريقيا نحو أوروبا واتجاه شبه الجزيرة العربية إلى الاقتراب من آسيا من ناحية الجنوب الشرقي، ويقع لبنان في إطار هذه الحركة

على خط الفالق المشرقي الكبير مع ما يعني هذا الوضع من تبعات وآثار.

٢- *الغطاء الرسوبي*

تظهر الدراسات الديناميكية أن حركة التكسر، ابتدأت في أواسط العصر "الأوليغوسيني" أي منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، وهي حركة حديثة العهد بالمفهوم الجيولوجي. بمعنى آخر فأن أكثر الأحداث أهمية كانت قد تمت قبل هذا العصر وقد تكونت بفعل الظروف الجيولوجية التي أعطت شبه الجزيرة العربية طابعها المميز والمعروف حالياً ,وأهم تفاصيل هذا الطابع هي كالآتي:

أ - تتميز شبه الجزيرة العربية بوجود صخور قديمة متبلورة، تشكل عادة الطبقة السفلى من مجمل الغطاء الصخري تحت الرسوبي في معظم مناطق العالم، ولكن وجودها محصور في غرب شبه الجزيرة العربية على ضفاف البحر الأحمر، وعلى طول الساحل الغربي اليمني وجزئياً على الساحل الجنوبي وغربي شبه جزيرة سيناء. وتميل صخور هذه الطبقة نحو الشرق ويشكل تكثّفها على سطح الأرض، سبباً لتعرضها لعوامل التعرية والحتّ وبالتالي إلى انتقال الفتات الناتج عن التعرية إلى المناطق الشرقية بفعل بعض الطبقات ,وبفعل وجود منحدرات (أو أحواض ترسب) تتجمع فيها الرسوبيات الناتجة عن التعرية نتيجة العمليات الكيميائية أو الحياتية وبالتالي نتيجة بدء تراكم طبقة من الروسبيات المتنوعة والمختلفة الشكل والخصائص.

ب - في أوائل الحقبة الثلاثية (Tertiaire) تشكلت طبقة رسوبية سميكة توسعت إلى الشرق والشمال الشرقي لتشمل شمال اليمن وعمان ومنطقة الإمارات وكامل المملكة السعودية، وكذلك الى الشمال الشرقي لتشمل العراق والكويت وكذلك الشمال الغربي (تشمل أيضاً لبنان وسوريا). وتختلف سماكة هذه الطبقة من بضع عشرات من الامتار حتى عدة الآف من الامتار. ويتميز هذا الاختلاف في المناطق تبعاً لموقعها في شبه الجزيرة العربية ولطبيعة العمليات اللاحقة على تشكلها، ولكنها من الناحية الليتولوجية (طبيعة الصخر) تتكون من نوعين أساسيين: صخور مشققة صلبة وتحوي كمية كبيرة من الفراغات والشقوق، وصخور حبيبية الطابع تحتوي ايضاً كمية كبيرة من الفراغات بسبب طبيعة التصاق الحبيبات

بعضها ببعض. وهذا النوع من الصخور يحوي فراغات كبيرة ويمكن أن يتحول إلى خزانات للسوائل بما فيها الماء والنفط. والنوع الثاني صخور طينية صلصالية وهي صخور فتاتية أيضاً ولكنها ذات مسامية خفيفة جداً والفراغات فيها قليلة جداً أو شبه معدومة وأحياناً معدومة. ونطلق بشكل عام اسمين على هذين النوعين من الصخور: صخور حاملة وصخور مانعة, وبهذا المعنى فإن النوع الأول يمكن أن يلعب دور المصيدة أو الحاضنة إما لكميات المياه المتساقطة كخزانات مياه جوفية أو خزانات احتضان لكميات النفط المتنقلة والتي تولّدت في مناطق قريبة وهي تهاجر حتى تقع في مصيدة من نوع مما أشرنا إليه وتكون صالحة لاستقبالها. وهذه الظروف الحقيقية الموجودة في شبه الجزيرة العربية، اظهرتها عمليات الاستكشاف والتنقيب ومن ثم الاستثمار والاستخراج لحقول النفط التي باتت معروفة في جميع انحاء الجزيرة العربية.[٩]

ج- بفعل الحركات الجيوديناميكية السائدة في المنطقة، تعرضت الطبقات الرسوبية ببطء وفي وضع هادىء نسبياً إلى عمليات طي ورفع، وهو ما جعل شكل الطبقات المذكورة يأخذ وضعاً ملائماً لكي يكون خزاناً أو مصيدة أو وعاءً يحتمل ملؤه بالماء من جهة وبالنفط الأخف وزناً فوقه من جهة أخرى . وبالتالي فان توافر الأشكال التي نتجت عن الحركات الديناميكية ادت الى الهجرة البترولية من أماكن نشوء المادة الأساسية ضمن الصخور المانعة، وهو ما يدعى بتضافر الشروط والظروف لتوافر النفط في جزء من العالم.

٣- *موقع لبنان*

في سياق الدراسات السابقة عن الإمكانات النفطية في شبه الجزيرة العربية، كان التركيز على لمنطقة المغطاة بغطاء رسوبي سميك والتي تتمتع بنشاط ديناميكي أقل. ونظراً لبعد شروط وظروف التكسر عن المنطقة الجنوبية الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة العربية - وهي المعروفة بهدوئها الجيولوجي- انصرفت الأنظار فعلاً لاكتشاف مكامن للنفط في هذه المنطقة، وكل الدلائل كانت تشير إلى ذلك عبر الشروط التي أصبحت محددة بوضوح وهي:

١- غطاء رسوبي كثيف.

٢- تنوع الغطاء الرسوبي من صخور صلبة مشققة أو ذات مسامية عالية وصخور طينية ذات وجود عضوي عال.
٣- هدوء جيولوجي لا يسمح بتغيير التوازن الهيدروليكي مما لا يحرك ولا يدع السوائل المحبوسة في الطبقات الرسوبية تهاجر أو تتسلل عبر الكسور والفوالق التي تنشأ عن الديناميكية العنيفة.

وبالفعل فقد أكدت العملية التنقيبية وجود النفط بكميات كبيرة في المنطقة وانشغلت الدوائر العلمية بهذا الواقع وتابعت وعلى مدى عشرات السنين إمكانية الكشف عن أماكن وجود النفط والاحتياطي الاستراتيجي. وكان العلماءُ يتجنبون دائماً" الإشارة إلى لبنان وسوريا وبالطبع إلى فلسطين، ذلك أن هذه الدول تعرضت بحكم وقوعها تحت تأثير الحركة الفالقية المشرقية العنيفة إلى تكسر كبير[٩]، وكان الرأي السائد بسبب ذلك أن النفط لو وجد فيها لهاجر الى أماكن أخرى ,علماً" ان ظروفاً" عدة كانت تدعم احتمال وجود النفط في لبنان وسوريا، ومنها:

١- وجود غطاء رسوبي كثيف في لبنان يتجاوز الثلاثة الآف متر بكثير.
٢- أشكال الطي والمسامية والفراغات في الصخور الحاضنة.
٣- طبقات سميكة من الصخور المائية أو الصخور الطينية التي تحوي مواد عضوية بنسبة عالية.

إن هذا الأمر يؤكد أن احتمالات وجود النفط في هذه المنطقة قد تصل إلى نسبة عالية جداً، ويشهد تاريخ التنقيب في المنطقة عن مفاجآت عديدة, وخصوصاً عندما حاولت سوريا استكشاف هذه الامكانيات وفوجئت بوجود نفط في مناطق لم تكن تحسب له حساباً فيها ,وعلى هذا الأساس دخلت نادي الدول النفطية.

كذلك اكتشف المصريون مثل هذه الحقيقة، كما وجدت اسرائيل الغاز في المناطق الساحلية في البحر[١٠] وتحديداً في الطبقة الطينية الرسوبية القريبة من الشاطئ على رغم قربها من أماكن الحركة والتكسر.

ثالثاً: الظروف الجيولوجية التي تحكم احتمال وجود النفط في لبنان

١- *لبنان الطبيعي:*

يقع لبنان في أقصى غرب شبه الجزيرة العربية وما دون الزاوية الشمالية منها. ويمتد على طول الشاطىء الشرقي الشمالي للبحر الابيض المتوسط محصوراً بين خطوط العرض ٣٢ ، ٣١ ، ٣٤ و٤١ شمالاً، وخطوط الطول ٣٥ و ٣٦ و٣٤ شرقاً. ويبلغ امتداده الآقصى باتجاه شمال وشمال شرق وجنوب و جنوب غرب حوالي ٢٢٣ كلم. ويبلغ هذا الامتداد حوالي ٩١ كلم في أوسع نقاطه عرضاً عند امتداد منطقة حام ومعربون أما في اضيق نقاطه فلا يتجاوز ال ٥٦ كلم.

أما منطقة الجرف القاري فتنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوسط ما بين الزهراني جنوباً والبترون شمالاً، وتمتد إلى حوالي ثلاثة كلم في أعرض نقاطها، والقسم الجنوبي الذي يصل عرض الجرف القاري يتجه إلى حوالي ١٢ كلم، أما في الشمال فيبلغ هذا الجرف حوالي ٢٠ كلم عرضاً. وتتخلل القسم الأوسط مجموعة من الوديان تحت البحرية أهمها: الوادي قبالة الرملة البيضاء والوادي قبالة نهر الموت[١١].

من الناحية المورفولوجية ينقسم لبنان إلى ثلاثة أقسام طبيعية: سلسلة جبال لبنان الشرقية وسلسلة جبال لبنان الغربية اللتان تمتدان بشكل شبه متواز ويفصل بينهما وادي البقاع وهو واد ذو منشأ بنيوي جيولوجي.

وبالفعل يغلب التأثير الجيولوجي الواضح الملامح على الطبيعة ويشكل البنى المورفولوجية، فتظهر سلسلة جبال لبنان الغربية في قسمها الشمالي والأوسط على شكل طية محدبة صندوقية الشكل مع تكسرات عديدة شبه عرضية متوازية تقريباً، وتتكشف في قمتها صخور كلسية دولوميتية يعود عمرها إلى حوالي ١٦٠ مليون سنة خلت (Jurassique)، الأمر الذي يدل على تعرض تدريجي وارتفاع مستمر لهذه الجبال (حتى يومنا الحاضر). أما القسم الجنوبي فيبدأ في التمايز عن باقي السلسلة ابتداءً من انعطاف وتفرع فالق روم عن فالق اليمونة، إلى الغرب من أطراف طية كفرحونة المقعرة (Synclinal) ويتحول إلى خفوض بنيوي قليل الارتفاع مع انحدار خفيف نحو الغرب مع استمرار الطبيعة المحدبة (Anticlinal) والتي تعتبر امتداداً طبيعيا لمنطقة الجليل الأعلى. ويتخذ وادي البقاع شكل طية مقعرة (Synclinal) تبدأ من فالق اليمونة إلى الغرب[١٢] وتنتهي في الشرق عند فالق سرغايا ومجموعة من الفوالق الصغيرة ذات الاتجاه شبه العرضي (Sublongitudinal)، الأمر الذي يحوّلها بسبب ذلك إلى انهدام بنيوي

(Graben) وهي بذلك تحمل في بنيتها طبيعة الأولى والثانية.

أما في الشرق فتعتبر السلسلة الشرقية بطبيعتها المحدبة اقل بروزاً من جارتها الغربية وبارتفاع أقل وامتداد أكثر في العرض مما يجعل القلب منها أقل تأثراً بعوامل التربة في قسمه الشمالي، أما القسم الجنوبي فينهض بحدة وتتكشف في أعلاه الصخور الجوراسية القديمة حتى ١٧٥ مليون سنة أي أقدم قليلاً من القسم الشمالي من السلسة الغربية وهو ما يجعل التماثل بين السلسلتين يتقاطع عند شمالي السلسة الغربية وجنوبي السلسلة الشرقية، وكذلك بين جنوبي السلسلة الغربية وشمالي السلسلة الشرقية حيث تلاحظ بداية انعطاف نحو الشرق خاصة في امتدادها داخل الأراضي السورية.

٢- *الغطاء الرسوبي*

تثبت الدراسات أن لبنان يتميز بغطاء رسوبي كثيف تلاحظ على أطراف السلسلتين الجبليتن تفاصيل جذوره وطبيعتها الليتولوجية بوضوح وتحمل في ثناياها كل المعلومات المتعلقة بظروف ترسبها وتاريخ تكونها. ويستدل من هذه المعطيات أن هذا الغطاء الذي لا يتجاوز تاريخ تكونه ال ١٨٠ مليون سنة (اسفل الجوراسي الأوسط)[١٢]، يتكون من ثلاثة انواع من الصخور هي:

أ- صخور كلسية صلبة مشققة.

ب- صخور رملية متوسطة إلى كبيرة الحبيبات.

ج- صخور طينية وصلصالية مع مقاطع مارلية، مجهرية الحبيبات. وتبلغ سماكة هذه الصخور في تشكيلاتها المختلفة حوالي ٣ الآف متر تقريباً.

ونستنتج من هذا الأمر خاصتين اثنتين:

أ- ان الصخور الرسوبية في نطاق لبنان تتمتع بالخصائص الأساسية الضرورية لتشكل النفط (صخور مانعة) Roche mère و(صخور حاملة) Roche réservoir.

ب- تتميّز هذه الصخور بكونها قد تعرضت لعمليات الطيّ والضغط، وهذا ما نتج عن العمليات الديناميكية على امتداد شرق المتوسط مما أعطى هذه الصخور إمكانية أن تكون موقعاً صالحاً كخزانات احتواء أو لوقف حركة السوائل النفطية وإبقائها في مكانها. بالاضافة إلى هاتين الخاصيّتين نذكر أن الغطاء الرسوبي الذي تنكشف بعض

ملامحه في الأراضي اللبنانية[١٤] ضمن وعلى أطراف سلسلتي الجبال، تبلغ سماكة طبقاته بمعظمها ما قد يتجاوز الثمانية الآف متر. لذا تجدر الإشارة الى انه حتى لو ثبت أن المرحلة الأولى من الغطاء والتي تبلغ سماكتها حوالي ثلاثة الآف متر، والتي أشرنا إليها سابقاً، لا تحوي أيّ من المشتقات النفطية (وهو ليس صحيحاً بالمعنى العلمي)، فثمة توقع أن تحوي الطبقات المتبقية والتي قد تبلغ سماكتها ما يزيد على خمسة الآف متر، ما لم نجده في المرحلة الأولى. ولو قفزنا بالاستنتاج إلى نهايته في هذه النقطةبالذات نشير إلى أن أمر اكتشاف النفط لم يبتّ بعد حتى الآن في لبنان لا سلباً ولا إيجاباً.

٣- *التنقيب عن النفط في لبنان*

أ - مراحل التنقيب

إبتدأ التنقيب عن النفط في لبنان بالمعنى السائد، في مرحلة حمّى النفط في منطقة شبه الجزيرة العربية والتي طالت على ما يبدو كل مناطق شبه الجزيرة. وفي هذا السياق ابتدأت الدراسات الفعلية في أواسط الأربعينات ولا سيما وأن استخراج النفط كان قد بدأ فعليا" في أواخر الثلاثينات. وقد تم حفر الآبار الأولى في لبنان (والأخيرة) ما بين أواسط الأربعينات وحتى العام ١٩٥٥، وتمّ في هذه المرحلة حفر سبعة آبار عميقة موزعة حسب الخريطة (المرفقة رقم ٢). إلا أن هذه الآبار وإن أعطت بعض الدلائل النفطية[١٥] إلا أنها كما يبدو لم تكن منتجة. ولا يمكن اليوم ولا بأي شكل من الأشكال التكهن بمعطيات هذه الآبار.الا اننا نستند اليها كمرجع ونتعرف عليها مما نشر حولها من تقارير. اما معطياتها المادية فلا نجد لها اثراً وبالتالي لا يمكن مراجعتها واعادة قراءة تقاريرها الخاصة.

وفي المرحلة اللاحقة استمرت الدراسات والنشرات العلمية تتعاطى مع موضوع النفط ولو بشكل غير منتظم. الا ان ذلك يدل على عدم فقدان الإهتمام (والأمل) بتوقع اكتشاف النفط وان كنا وما زلنا نعتقد ان توقف هذه العمليات بشكلها المكثف قد يحمل في طياته بعداً سياسياً من قبل الشركات والمؤسسات

العلمية الأجنبية التي تتعاطى هذا الشأن. ومع ذلك تشير كتابات البحاثة اللبنانيين[١٦][١٧][١٨][١٩] على وجه التحديد الى متابعة البحث والنظر في بعض المسائل العلمية بحيث ان الأمل في العثور على النفط يبقى وارداً في سيرة لبنان الجيولوجية.

ب- تحليل الوضع الجيولوجي الراهن

- دراسة التشكيلات الجيولوجيية المتكشفة

يضم السلم الستراتيغرافي للبنان التشكيلات الجيولوجية الظاهرة على سطح الأرض في مناطق مختلفة من لبنان، والتي تؤلف بمجملها سيرة جيولوجية محددة تبدأ من العصر الجوراسي (Jurassique) الأوسط (اوري الأسفل) وتنتهي مع البليوسين (pliocene)، ومع حضور واضح للعصر الرباعي (quaternaire) وتتميز هذه اللوحة بغياب بعض العصور (عدم ترسب الصخور خلالها) كما تتميز مثل هذه المرحلة بعدم التوافق (uncomformité) الا ان هذه الصورة تكتمل من خلال فهم الظروف الجغرافية القديمة والتي كانت تعود خلال هذه المراحل (paléogeographie) وتطبع السيرة الجيولوجية ببعض الخصائص الدالة بالطبع على طبيعة المرحلة ودورها اللاحق في تشكيل العناصر الضرورية للثروة الباطنية (الماء، الحديد وباقي المعادن، والنفط وغيرها).

- الجوراسي:

يتميز العصر الجوراسي القديم (قبل ١٩٥ مليون سنة) بصخور كلسية صلبة، متأثرة بعوامل المناخ وبالمحاليل التي تلعب دوراً كبيراً في اذابة قسم من هذه الصخور وتحويلها الى فراغات متصلة ومجاري جوفية (اي ضمن الكتلة الصخرية) وهو ما يعرف بظاهرة الكارست. وتبلغ سماكة هذه الصخور الظاهرة حوالي ١٠٠٠ متر.

- الكريتاسي:

وفي نهاية هذه المرحلة تتقطع عملية الترسب وتمر المنطقة بحالة عدم توافق، (uncomformité) وحتى بداية القسم الأعلى من الكريتاسي (Cretacé) الأسفل،

حيث تترسب الصخور الرملية والمزيج من الصخور الرملية والصلصالية مع مقاطع كثيفة من الفحم الحجري (Lignite) وتبقى هذه الصخور التي تدل على مناخ رطب[٢٠] وحوض ترسب ضحل، نتاج عمليات الدلتا وأطراف الشواطئ.

وفي القسم الأعلى من الكريتاسي الأسفل تتكون أولى الرسوبيات الكلسية بعد غياب طويل مشكّلة طبقة صخرية كلسية صلبة متجانسة، تعرف بما يدعى اليوم بالجدار الأبيض (falaise blanche).[٢١]

ويبدأ العصر الكريتاسي الأوسط بتشكيلات مهمة . فللمرة الأولى يمكن ملاحظة ترسب صخور مارلية (Marne) تتجاوز سماكتها ال٢٠٠ م. (عصر الآلبيان (Albien) وهذه الصخور تلعب دور الطبقات المانعة ,أي انها غير قابلة للإمتصاص ولمرور السوائل وتتميز بفراغات قليلة وحتى معدومة، وهذا النوع من الصخور يمكن ان يتحول في حال وجود البقايا العضوية فيه الى طبقة من الصخور الأم (roche mère).

تلي عصر الألبيان تشكيلات مهمة جداً في لبنان وهي تشكيلات عصر التورونيان والسينومانيان (Cenomanien) (Turonien)، وهي صخور كلسية واحياناً دولوميتية صلبة متأثرة بظاهرة التحلل (الكارست) وتحوّل في قسمها الأوسط الى تتابع ما بين الصخور الكلسية والصخور الكلسية المارلية وتبلغ سماكتها حوالى ٩٠٠ م. وتلعب هذه الطبقة دور الخزان المائي الأساسي في لبنان، وتنتشر على سطح الأرض اللبنانية مغطية ما نسبته ٦٠٪ منها.

اما الكريتاسي العلوي فيمكن القول انه العنصر الأكثر إشارة الى العناصر النفطية في لبنان. وتبلغ سماكة هذه الطبقة حوالي ٥٠٠ م. وتتكون من صخور مارلية (مانعة) وصخور طبشورية وأحياناً صلصالية دلغانية وجميعها من الصخور المانعة، وتعرف في لبنان باسم صخور ال سينونيان (senonien) وفيها اكتشفت أولى الدلائل النفطية على شكل إسفلتي وقد استخرجت على مدى ٢٠ عاماً في لبنان وصدّرت الى الخارج بما كان يعرف باسم "الحمّر". ولا زالت مكامنها قائمة حتى اليوم، وتوجد فيها بالاضافة الى ذلك العناصر العضوية الهيدروكربونية

المعروفة بالـ"Bitume" ووجود هذه الطبقة يشير الى الظروف الجيولوجية الأولى لنشوء النفط في الصخور الأم (roche mère).

السينوزويك (Cenozoique) الحقبة الثلاثية:

في نهاية هذه المرحلة نشهد مرة اخرى ملامح عدم توافق واختفاء الرسوبيات لزمن طويل طوال النصف الأسفل للعصر البليوسيني (paleocene). وفي بداية النصف الثاني تبدأ بالظهور والترسب صخور مارلية عموماً وكلسية أحياناً مع بعض المقاطع الطبشورية. وفي أعلى الطبقة تبدأ بالظهور بعض المقاطع الصوانية (Calcedoine) مشكّلة هنا صخور العصر الايوسيني (Eocene). ويمكن مجازاً ضمّ هذه الطبقة الى الطبقة الأخيرة من العصر الكريتاسي (Senonien) لتشكلا معاً طبقة مائية وحاجزاً ما بين القسم الأسفل بأكمله وما بين صخور العصر الثلاثي مجتمعة.

وتلي هذه الطبقة مرة اخرى طبقة كلسية صلبة مشققة، يمكن ان تكون خزاناً وهي بالفعل خزان مائي مهم رغم ضيق المساحة التي تضمّها. وفي هذه الطبقة تحديداً نجد العديد من الدلائل على التجمعات النفطية. وتمتلىء الشقوق في الطبقة الصخرية وتظهر بشكل اسفلتي. وفي نهاية هذا العصر الأيوسيني تمر فترة مهمة من السكون وعدم التوافق وعدم ترسب صخور معينة وفي منتصف هذه المرحلة تتعرض المنطقة لحدث جيولوجي ديناميكي عنيف وهو تكسر الارض بتأثر من الفالق (الصدع) الافريقي العظيم و الذي امتد الى خليج العقبة والبحر الميت[٢٢] وامتد أيضاً الى لبنان ليشكل فالق اليمونة وليطبع المرحلة اللاحقة بتأثيراته العديدة وأهمها تغيير النسق الستراتيغرافي (التحركات الارضية)، وليساعد على بلورة الشكل النهائي لعمليات الطيّ والتكسر في كل لبنان.

وبعد فترة الهدوء التي تلي العاصفة تعود المنطقة الى عمليات الترسب ويبدأ العصر الميوسيني (Miocene) ويلي العصر النيوجيني (Neogene) وحيث تظهر بقايا هذين العصرين على السطح من خلال تتابع مارلي كلسي مع صخور فتاتية كبيرة الحجم (conglomerat) وتعلوها في أعلى السلم الستراتيغرافي بعض

الترسبات المارلية والشاطئية والنهرية مغلقة بذلك السلم الستراتيغرافي المثير للتساؤل.

ح-عمليات الاستكشاف الحديثة:

الدراسات الجيولوجية التقليدية

في زمن الانتداب الفرنسي، اخذت السلطة الفرنسية قراراً بدراسة جيولوجية المنطقة التي تخضع لسلطتها، اي لبنان وسوريا والقسم الجنوبي من تركيا. وبالفعل قام المهندس الجيولوجي الفرنسي لويس دوبرتريه منتدباً من ادارة المناجم في فرنسا ومن المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، باطلاق مشروع المسح الجيولوجي . وعلى امتداد خمسة وعشرين سنة عمل دوبرتريه ومجموعة من المساعدين على تنظيم خريطة لبنان الجيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠ تدريجياً وحتى بعد الاستقلال. وخلال هذه الفترة كان الباحثون ينظمون قسائم مستقلة بقياس ١/٥٠٠٠٠ للبنان بأكمله، وقد تم انجازها جميعها بحلول عام ١٩٥٥. ومنذ ذلك التاريخ استمر الجيولوجيون بدراسة لبنان من مختلف الجوانب الجيولوجية ونشر الباحثون اعمالاً جيدة في مجالات الجيولوجيا التركيبية والجيوفيزياء والتكتونيك (علم حركات الأرض) والستراتيغرافيا والليثولوجيا والتنقيب عن الماء (الهيدرولوجيا) والتنقيب عن النفط والباليونتولوجيا (علم الأحافير) ... وغير ذلك. ولقد أغنت هذه الأبحاث المكتبة الجيولوجية بالعديد من المعلومات المثيرة والتي يمكن ان تضيف الكثير في مجال البحث عن الثروات الدفينة[٢٣][٢٤][٢٥][٢٦][٢٧].

في اي حال فان هذا البحث استطاع ان يضيء بعض جوانب عمليات الإستكشاف النفطي، وإن كان ذلك بشكل غير مباشر ,كما انه ساعد على الإستنتاج والتحليل وخصوصاً في مجال البنى التركيبية. وقد تبيّن ان الارض اللبنانية بسبب نوع الطيات الموجودة فيها، تعطي املاً واضحاً في احتمال اكتشاف النفط في غير الاماكن التي تم استكشافها! كما تبين وبعد دراسة شملت لبنان وسوريا ان احتمال وجود الصخور الأم (roche mère) في الصخور الرسوبية

العميقة يبدو محتملاً. كذلك الأمر بالنسبة الى الصخور الحاملة(réservoirs) التي تظهر امكانات احتواء النفط . وقد دلّت على ذلك دراسات عديدة جرت على مجموعة من المواضيع المتعلقة بهذا المجال، نذكر منها أعمال Saint-Marc وAlain Guerre ومشاريع التنقيب الفعلي والتقارير[٢٨] والدراسات والأبحاث للعديد من العلماء الذين قد لا يتّسع المجال لذكرهم وقد ساهموا بشكل مباشر وغير مباشر في زيادة معارفنا وتقريبنا من فكرة متابعة البحث الدراسي في ما يخص التنقيب عن النفط.

-الدراسات الموجهة في الاسكشاف النفطي:

في العصر الحديث وبتأكيد من المجتمع الجيولوجي ودفعاً من جميع العاملين الاكاديميين في ميدان النفط، وبتأثير مباشر من العالم زياد بيضون في بداية التسعينات قامت الدولة اللبنانية بأول محاولة للإستكشاف النفطي في البحر، وقد تم اختيار المنطقة الشمالية الممتدة من طرابلس جنوباً حتى الحدود اللبنانية شمالاً، وهي المنطقة التي اشرنا اليها على انها قليلة الانحدار نحو البحر وتمتد على مسافة ٢٠ كلم من الشاطىء. وبالفعل قامت وزارة النفط في حينه باستخدام شركة دراسات جيوفيزيائية قامت بالمسح السايزمي للمنطقة المذكورة. وتشير الدلائل غير المباشرة ومنها تقرير زياد بيضون نفسه (من خلال محادثة شفهية معه) ان المسح أثبت وجود تراكيب وبنى صالحة لاحتواء النفط في حال وجوده في المنطقة. غير انه ومع تغيير الحكومة ذهبت سدى كل المحاولات لإيجاد هذه التقارير بل والمعطيات السايزمية الأولية لمحاولة مراجعتها. ولم يجد الباحثون اية امكانية لمتابعة البحث حتى بعد الاتصال بالشركة التي انتدبت للمشروع والتي اعلنت انها لا تملك المعطيات المذكورة. وقد تشكلت لجنة لدراسة هذا الملف من الباحثين اللبنانيين[٢٩] الا اننا لم نعثر على ما يفيد في هذا الميدان في شيء.

في سنة ٢٠٠٠ قامت احدى الشركات بمسح الشاطىء اللبناني بنفس الطريقة ولكن خارج الحدود الاقليمية. ان الدارس والمتابع لهذه المعلومات والمتقصّي والمحلل للبيانات ولو بالاستدلال، يستطيع ان يرجّح ان النتائج التي توصلت اليها

هذه الشركة كانت إيجابية. وبدفع مباشر من اللجنة المشار اليها، تم الاتفاق على اعادة المسح الزلزالي للمنطقة الشمالية، مع ضرورة إكمال المسح على اليابسة. وبالفعل تم الاتفاق على تشكيل لجنة اخرى لمتابعة هذا الموضوع[٣٠]. وقد اتخذت السلطات اللبنانية بناء على تقارير اللجنة قراراً" قضى بإعادة دراسة الآبار المحفورة في الخمسينات والستينات لدراستها من جديد وإعادة النظر بمجمل المعارف الحديثة الناتجة عن هذه الاعمال. وكانت الاعمال العلمية الاخرى والتي كانت مثمرة بشكل مؤثر تعطي دائماً الانطباع بأن الدلائل على وجود النفط اصبحت عديدة، منها اكتشاف آثار نفطية في أحد الآبار المحفورة من اجل مياه الشرب[٣١].

وفي ٢٠٠٢، تم الانتهاء من المسح الزلزالي الجديد الذي تبنته وزارة الطاقة والمياه وخرجت النتائج لتعطي انطباعاً ايجابياً آخر حول إمكانية وجود النفط في البنى المكتشفة (ربما للمرة الثانية تأكيداً للمسح الذي جرى تكراراً منذ ١٩٩٤).

وباختصار فإن الاستكشاف النفطي عملية طويلة ومعقدة من الناحية الحقلية والمخبرية وتحتاج الى زمن طويل وجهود انسانية مضنية وتحتاج بالاضافة الى هذا كله الى أموال طائلة تفتقد اليها الخزينة اللبنانية.

من الواضح ان السبيل الى هذا كله هو اللجوء الى طريقة B.O.T. ولكن المعطيات الحالية (لم تستكمل حتى اليوم كامل المعطيات للمسح الأخير)، تتلازم مع ضرورة اقتناع الشركات النفطية العالمية بالقيام بالعمليات التنقيبية الحقلية (اي الحفر والقاء نظرة مباشرة على باطن الارض) لاستصدار قرار رسمي بقبول وجود النفط وباستكمال هذا القرار بعمل حقلي آخر لا يقل كلفة. لكن هذا القول بوجود النفط بكميات تجارية يستحق عناءالجهد والمال المبذول في سبيل الحصول عليه، ونحن اليوم في هذه المرحلة بالذات اي اننا نحمل آمالاً كبيرة واحلاماً واعدة، يجب ان نثبتها بالوقائع الميدانية بشكل قاطع.

في أي حال، ومع تقدّم الحديث على احتمال وجود النفط في لبنان، بدأ كلام (مبكّر اساساً) عن انعكاسات مثل هذا التطور على المؤشرات الاقتصادية

والاجتماعية العامة. وذهب بعض الكلام الى حدود التفاؤل المفرط. ونحاول في القسم التالي من البحث مقاربة الإنعكاسات المحتملة مع افتراض منطقي، استنادا" الى المعطيات المتوافرة، ان النفط يمكن أن يكون موجودا" فعلا" بكميات تجارية في لبنان. (وكذلك الأمر بالنسبة للغاز).

النفط في لبنان: الإنعكاسات المحتملة

يرتبط التحليل المنطقي للإنعكاسات المحتملة لإمكان وجود واستغلال النفط، بكميات تجارية، في لبنان بمجموعة من المعطيات والمؤشرات الأساسية أبرزها تقنيات الإنتاج والتسعير، في السوق العالمية، وشروط التنمية والإنماء، على المستوى العام المطلق او على المستوى الوطني المحلي البحت، اضافة الى المضمون المالي المباشر للعملية المتمثل، خصوصا"، في تطور الفاتورة النفطية.

اولاً: في تقنيات الإنتاج والتسعير

يخضع النفط، انتاجاً وتسويقاً واستهلاكاً، الى حد بعيد، لاعتبارات السوق العالمية الواحدة. وتتجه هذه السوق، منذ سنوات، الى بناء أشكال صور جديدة تؤثر، مباشرة، على اتجاهاتها الحاضرة والمستقبلية.

١- اتجاهات الانتاج والاستهلاك

لعل بعض أبرز ما يلفت في سوق النفط العالمية ان هذه السوق باتت، منذ الثمانينات، سوقا" معروضة بعدما كانت، ولفترات طويلة سابقة، وفي السبعينات خصوصا" ، سوقا" مطلوبة على المستوى العالمي. والثابت ان الصدمة النفطية الاولى (١٩٧٣) والثانية (٧٩-١٩٨٠) دفعتا الدول المستهلكة، بقوة، الى اعتماد برامج قاسية أدّت، عبر عقلنة استهلاك الطاقة والضغط لزيادة الانتاج وبناء المخزون الاستراتيجي الكبير واستعمال المصادر البديلة عن النفط، أدت الى اتجاه جديد ما زال مستمراً، تمثل خصوصاً في فائض في الإنتاج وثبات نسبي، بل ربما تراجع فعلي للاسعار.

وقد زاد انتاج النفط العالمي من ٥٦,٢ مليون برميل يوميا" في ١٩٨١[٣٢] الى

٦٥,٥ مليونا" في ٢٠٠١ (+١٦,٥ ٪) منها نحو ٤١ ٪ حصة الدول الاعضاء في منظمة "اوبيك" (٤٠٪في ١٩٨١). لكن انتاج الغاز ارتفع من ١,٥٥ مليون متر مكعب قياسي في ١٩٨١الى ٢,٥٦ مليونين في ٢٠٠١ (+٦٥,٢ ٪) كانت حصة مجموعة "اوبيك" متدنية بوضوح فيها (١٦,٣٪). وفي شكل مطلق وشامل ارتفع انتاج الطاقة، من مصادرها المختلفة، من ٦,٩٠ مليار طن متري لمماثل النفط في ١٩٨٠ الى ٩,٧ مليارا" في ١٩٩٩[٣٣](الجدول رقم ١ ادناه).

وزادت الصادرات النفطية العالمية من ٢٥,٨٤ مليون برميل يومياً في ١٩٨١ الى ٣٣,٣٧ مليونا" في ٢٠٠١ (٢٢,٦ في ١٩٨٧)[٣٤]. اما استهلاك المنتجات النفطية المكررة فارتفع ، عالمياً ، من ٥٧,٥٥ مليون برميل يومياً الى ٧١,١٤ مليونا" في ٢٠٠١ كانت حصة "أوبيك" منها ٧,٢ ٪[٣٥]. وارتفع حجم الطاقة المستهلكة من ٦,٩٢ مليار طن متري لمماثل النفط في ١٩٨٠ الى ٩,٦٣ في ١٩٩٩ اي بمعدل نمو سنوي، بين ١٩٨٠ و ١٩٩٠ قدره ٢,٩ ٪ ، وبحيث زاد الانتاج من الطاقة، وبوضوح، على استهلاكها بعدما كانت الحصيلة معكوسة في بداية الثمانينات (وقبلها). ويشرح الجدول رقم ١ تطور انتاج واستهلاك الطاقة في مجموعات عالمية مختلفة وفي لبنان ايضاً.

الجدول رقم ١

انتاج واستهلاك الطاقة: لبنان ومجموعات دولية مختارة

الكميات / النمو — الدولة المنطقة	الطاقة المنتجة (الف طن متري لمماثل النفط) ١٩٩٩	الطاقة المستهلكة (الف طن متري لمماثل النفط) ١٩٩٩	متوسط النمو السنوي ١٩٨٠-١٩٩٩	الطاقة المستهلكة للفرد (مماثل كلغ نفط) ١٩٩٩	معدل النمو السنوي ١٩٨٠-١٩٩٩	صافي الطاقة المستوردة (٪ من الطاقة المستهلكة) ١٩٩٩
لبنان	١٦١	٥٤٦٩	٤,٨	١٢٤٠	٢,٨	٩٧
العالم	٩٧١٤٠٨٢	٩٦٣٥٤٦٥	٢,٩	١٦٧١	١,١	.....
الدول الفقيرة	١٣٥٩٣٣٤	١٢٦٢٩٨٣	٤,٩	٥٦٧	٢,٦	-٨
الدول المتوسطة الدخل	٤٦٤٨٧٨٥	٣٥٠٦٤٥١	٤,٤	١٣٢٥	٢,٨	-٣٣
الدول الغنية	٣٧٠٥٩٧٣	٤٨٦٦٠٣١	١,٧	٥٤٤٨	١,٠	٢٤
الشرق الاوسط شمالي افريقيا	١٢٠٨٩٥١	٣٦٥٩٦٧	٤,٨	١٢٧٩	٢,٠	-٢٣٠

المصدر: World Development Indicators 2002, World Bank

وجنباً الى جنب مع زيادة الانتاج (والاستهلاك) تضاعفت بوتيرة أوضح، الكميات المكتشفة المؤكد وجودها كاحتياطي، وقدرت هذه الكميات بنحو ١٠٧٤,٨ مليار برميل في ٢٠٠١ ، مقابل ٤٣٨ ملياراً في ١٩٨١ اي بزيادة نحو ١٤٥,٤ ٪ حصة اوبيك منها (٧٨,٧ ٪) ولا سيما الأطراف العربية في المنظمة وهي الاكبر[٣٦]. ويعكس الاتجاه العالي لاكتشاف الاحتياطيات الاضافية، معطوفاً على فائض العرض، مجدداً، حقيقة ان السوق باتت تميل الى كونها معروفة وانها ستبقى، كذلك، لسنوات عديدة مقبلة ,الأمر الذي يضغط على الأسعار وعلى مدى امتلاك القرار النفطي في الدول المنتجة وعلى العائدات الفعلية لتلك الدول.

٢- *مستويات الأسعار*

شهدت اسعار النفط تقلبات حادة في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي. واذا كانت الصدمة النفطية الاولى (١٩٧٣) قد لعبت دوراً في تصحيح جذري اول للسعر ، فان هذه الصدمة أدّت ايضاً ومن خلال ردود الفعل التي احدثتها، في التمهيد للصدمة الثالثة (١٩٨٧) وبالتالي في عودة الاسعار الى الانخفاض، ثم الهدوء، لاحقا". لكن حصيلة التطور كانت، منذ ١٩٧١، وحتى اليوم، ايجابية لمصلحة النفط اذ ارتفع السعر الرسمي للبرميل من ١,٦٧ دولار وسطيا" في ١٩٧١ الى ٢٣,١٢ دولارا" في ٢٠٠١ الا ان المضمون الحقيقي للسعر، محتسبا" من قبل منظمة "أوبيك" بحسب معدلات التضخم وتطور اسعار سلة من السلع الرئيسية الاخرى، زاد فقط من ٢,٣٨ دولار الى ٦,٥٦ دولارات[٣٧]. ويستدل على تقلص القيمة الحقيقية لسعر النفط من خلال متابعة مؤشر السعر محتسباً من قبل البنك الدولي جنباً الى جنب مع أسعار سلة من السلع المختارة تعرضت، هي الاخرى، وكما مواد أولية وزراعية تنتجها دول نامية، الى الإنخفاض.

الجدول رقم ٢

تطور مؤشر اسعار سلة من السلع المختارة (١٩٧٠-٢٠٠١)

السنة/المؤشر ١٩٩٠=١٠٠ / سلة السلع	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠	٢٠٠١
السلع الزراعية	١٦٣	١٧٥	١٠٠	٩٠	٨٣
الأغذية	١٦٦	١٧٧	١٠٠	٨٧	٨٩
السلع النفطية	١٩	٢٠٥	١٠٠	١٢٧	١١٠
معادن ومنتوجات منجمية	١٤٤	١٢٠	١٠٠	٨٥	٧٨
مشروبات	٢٠٣	٢٣٠	١٠٠	٩١	٧٥

المصدر: The World Bank, World Development Indicators 2002

وباختصار فان اسعار النفط، وإن كانت ما تزال جاذبة نسبياً، فهي اتجهت منذ سنوات الى حلقة "الجاذبية المحدودة" بما يوحي ان درجة الإفادة منها تتقلص بخلاف ما كانت عليه الحال قبل نحو ثلاثين سنة. وهذه الحقيقة مرشحة للإستمرار في العقد المقبل على الاقل وهو ما يفترض ان تبني عليه كل الدول المنتجة او المرشحة للانتاج ومنها لبنان. وتترافق هذه الحقيقة مع ضغوط عوامل اخرى تتحكم بمعظمها الدول المستهلكة الكبرى، وفي طليعة هذه العوامل دور شركات التنقيب والتسويق.

٣- *دور الشركات*

تخضع سوق النفط ايضاً، لتأثير مباشر واسع للشركات النفطية العملاقة. وعلى رغم ان دور هذه الشركات بات، ظاهرياً ربما، اقل وهجاً لمصلحة المؤسسات الحكومية والوطنية لكن المرتبطة، بشكل او بآخر، بالمجموعات الأم العالمية، إلا أن الشركات الكبرى ما زالت تحكم، بدرجة او بأخرى، بصورة او بأخرى، زوايا عدة رئيسية من سوق النفط العالمية.

ويكمن "سر" هذه الشركات في عدة عناصر من اهمها، حجم الإستثمارات والإمكانات المالية الضخمة التي تمتلكها او التي يمكن ان تحصل عليها،إضافة الى التقنيات المتقدمة والتي يقتصر تسويقها -او تسويق اهمها- على الدول والمجموعات الاعضاء في "نادي" هذه الشركات. ولا يخفى ما لهذه الشركات من فعل مباشر في السياسات العالمية (والمحلية) عبر "رجال" مخلصين في شتى الدول المستهلكة منها والمنتجة، كما لا يخفى دور هذه الشركات في مجالات اقتصادية عدة منها ، على سبيل المثال لا الحصر، سوق القطع وسوق الإستثمارات المباشرة والإعلام والسياحة والتسلح[٣٨]...

ولتعزيز قدراتها، ولمحاولة جبه تحدّيات السوق، اتجهت الشركات العملاقة اساساً الى التوحد في السنوات الأخيرة بما ضاعف من قدراتها وحدّ من امكان منافستها وقلل، بالتالي، من هامش حرية المناورة الوطنية ازاءها. وتعكس موازنات هذه الشركات والأرباح المعلنة (وليس بالضرورة الحقيقية) التي تجنيها، جانباً من عظمة هذه الشركات.

الجدول رقم ٣

أبرز النتائج المالية لشركات نفطية رئيسية في ٢٠٠١ (مليار دولار)

الشركة / النتائج	حجم المداخيل	الأرباح الصافية
B.P. amoco	١٧٥,٣	٩,٨٨
Exxon Mobile	٢١٢,٩	١٥,٣
Total finaElf	٩٤,٣	٦,٧
Royal dutch/shell	١٧٧,٢٨	١٠,٨٥
Chevron Texaco	١٠٦,٢	٣,٣
مجموع الشركات الكبرى	٧٦٦,١٣	٤٦,٠٧

المصدر: موازنات الشركات كما وردت ملخصاتها في تقرير "أوبيك"

OPEC annual statistical bulletin 2001, page 125

وللتدليل على اهمية هذه الشركات، مجددا"، يتبين ان حجم مداخيلها يمثل، في ٢٠٠١، نحو ٩١٪ من حجم الناتج القومي (٨٣٩,٦ مليار دولار) ونحو ٢٤٣٪ من حجم صادرات (٣١٤ مليارا") دول "أوبيك" مجتمعة.

وتعكس هذه الحقيقة جانبا" من سوء توزيع عائدات النفط بين الدول المنتجة وسائر أطراف السوق. وتبيّن هيكلية الأسعار ان هامش ارباح الشركات يصل الى أضعاف كلفة الإنتاج، وان هذه الكلفة تتراجع، خصوصاً مع إدخال تقنيات جديدة ومع توحد الشركات، في الدول الغنية بالمادة، خصوصاً وأن سعر النفط الخام يظل يمثل ٢٥ الى ٤٠ ٪ من مستوى مبيع المشتقات النفطية المكررة في الدول المستهلكة الرئيسية[٣٩].

وباختصار، فأن هذه الصورة لا تعني ان لبنان، كما سائر الدول المرشحة لأن تكون نفطية، المضطر، بفعل هذه المعطيات وبفعل خصائصه المالية والاقتصادية والسياسية والتقنية المعروفة ، للتعامل مع هذه الشركات ومع عناصر السوق الاخرى المرتبطة بها- ان لبنان لن يفيد مطلقا" من هذه الشروط، بل ان الصورة

تعني ان هامش الإفادة من المعطيات الدولية الحالية، كما هامش المناورة ازاءها، لن يكون كبيرا". ويزيد في تضييق اطار التوقعات عناصر عدة من المعطيات اللبنانية خصوصا" على مستوى الانتاج (المحدود على المدى القصير على الاقل) والاستهلاك والصعوبات المالية والأخرى المختلفة.

ثانيا" : في بعض المعطيات اللبنانية

ان تقييم "الجهد النفطي" اللبناني يفترض ان يقرأ، ايضاً، من خلال معطيات اساسية تتصل بشروط الانتاج وبفاتورة الاستهلاك ومقوماته .

١- شروط الانتاج

يصعب، بالتأكيد، الخوض في حجم الإنتاج المتوقع اذا افترضنا ,فعلا" ,ان لبنان يتجه- وهو في اعتقادنا كذلك- في طريق انتاج اصناف نفطية مستقبلا"، لكن، وعلى رغم ذلك، يمكن الإستناد في التحليل الى بعض المبادىء المؤيدة في العلم والمراقبة والواقع ، او المستقاة من مضمون القسم الاول من هذا البحث، ومنها :

أ - ان لبنان دخل، فعلا"، دائرة الترشيح للانتاج وان الخطوات اللاحقة تقرر، سلباً او إيجاباً وفق عمليات الإستكشاف والتنقيب الحقلية التي لا بد آتية.

ب- ان موقع لبنان الجغرافي وطبيعته الجيولوجية قد لا يكونان يشجعان، كما اشرنا في القسم الاول، إلى توقع وجود احتياطات كبيرة علما" ان الإحتياطات المؤكد توافرها في دول محاذية هي محدودة. وعلى سبيل المثال فإن الإحتياطات السورية المؤكدة بلغت، في ٢٠٠١ ، نحو ٢,٥ مليار برميل (١١٢,٥ مليارا" في العراق ، و٢,٩٤٧ مليار في مصر)[٤٠].

ج- ان الانتاج المتوقع ، نظريا" حتى الآن ، لا يجوز ان يقتصر على النفط الخام، بل ان ثمة ادلة، قد تكون اكثر جدية - بل هي كذلك - على احتمال وجود ثروة من الغاز الطبيعي في لبنان. وتشرح دوائر حكومية، استنادا" الى تقارير خبراء، ان تكون هذه الثروة المحتملة ملموسة خصوصا" ان الخط الذي تجري مراقبته في المياه الاقليمية يمتد، حتى الساحل المصري حيث اكتشف الغاز بكميات تجارية عالية[٤١]. ويبلغ الإحتياطي المؤكد اكتشافه في مصر في العام

٢٠٠١ نحو ١,٥٥٧ مليار متر مكعب قياسي.

د- ان الانتاج، اذا تأكد وجود كميات تجارية فعلا"، لن يتم قريبا" جدا". ويتفق، عموما"، على ان الهامش التقني الضروري بين تأكد وجود كميات وبدء الانتاج يمكن ان يمتد بين سنتين وثلاث سنوات[٤٢].

ه- ان كلفة الانتاج اللبناني - متى تأكد فعلا" - لن تكون، مبدئيا"، هي الاخرى محدودة بالمقياس العالمي نتيجة اعتبارات عدة أقلها الخريطة الجيولوجية اللبنانية. وقد يكون صحيحاً التصور ان هذه الخريطة جعلت عمليات الإستكشاف تتأخر حتى الآن باعتبار ان شركات التنقيب تتجه، عموماً، حيث العمليات أقل تعقيداً وكلفة. ويمكن ان يكون لبنان منتمياً، بالتالي، الى فئة الاراضي ذات الأكلاف الأعلى من الوسط بالمقارنة مع مناطق محدودة الكلفة (الخليج) واخرى عالية الكلفة (الولايات المتحدة، بحر الشمال)[٤٣].

و- ان ارتفاع الكلفة، الى الخصوصيات اللبنانية ومنها الصعوبات المالية المعروفة ، تجعل لبنان مرتهنا" اكثر لشروط الشركات الكبرى بكل ما يعنيه ذلك على المستويات التقنية والسياسية والادارية، وعلى مستوى العائدات الفعلية لعمليات التنقيب المحتملة ايضا" .

وتلك "فاتورة" اضافية يجدر التنبه اليها .

٢- *"الفاتورة" النفطية*

ارتفعت "الفاتورة" النفطية للبنان بقوة خلال السنوات الاخيرة. وقدّرت المديرية العامة للنفط حجم المستوردات النفطية بنحو ٤,٨٢٢ مليون طن متري من المشتقات المختلفة للعام ٢٠٠٢ بلغت قيمتها التقديرية نحو ١,٢٥٠ مليار دولار في مقابل ٤,٣٩٢ مليون طن في ٢٠٠٠ ونحو ١,١٣٦ مليار دولار[٤٤]، و ٤,٩٦ ملايين طن في ١٩٩٩ ونحو ٨٠٩ ملايين دولار[٤٥].

وعلى رغم ان عبء هذه "الفاتورة" بدأ يكون ثقيلا" خصوصا" انه تجاوز حدود ٧٪ من التقديرات الرسمية للناتج القومي، فان الاتجاهات العامة لوتيرة الاستهلاك، ولحركة النمو المسجلة او المتوقعة في المستقبل المنظور، تؤكد ان هذه

"الفاتورة" تتجه الى ازدياد واضح ,وربما بلغت مستوى مليار ونصف مليار دولار, بالأسعار الحالية للنفط ,في خلال عامين ,قبل ان تمضي ارتفاعاً ,خصوصاً اذا عادت حركة الانتاج الى الدوران العالي مستقبلاً.

ويزيد في احتمال تعزيز هذا الاتجاه ان الطاقة المستهلكة للفرد في لبنان ما زالت ادنى بوضوح من المستوى العالمي وكذلك من المستوى المعروف في الدول المشابهة، لجهة الدخل، عالمياً[٤٦]، وان وتيرة النمو السنوي لاستهلاك الطاقة في لبنان عالية، نسبيا"، وان الهدر المحلي للطاقة كبير ايضا" في شتى المقاييس.

ويمكن ان يستدل الى كل ذلك ، أكلاف وشروط انتاج و"فاتورة" عالية و...هدر، من خلال قراءة المثل الأبرز في مؤسسة كهرباء لبنان. وقدرت "فاتورة" المحروقات للمؤسسة وحدها بنحو ٤٠٠مليون دولار[٤٧]، وبعيدا" عن الخوض في هموم هذه المؤسسة (الكثيرة) يلفت ان لبنان ما زال يركز على دورات انتاج تقليدية وغالية للطاقة ، ومنها الكهربائية ، بينما كان يمكن ان يلجأ ، منذ سنوات ، الى خيارات اخرى اقل كلفة وتلويثا"، وهو ما تفعله دول عدة في العالم .

الجدول رقم ٤

مصادر انتاج الطاقة الكهربائية في لبنان ودول مختارة اخرى

(٪ من المجموع في ١٩٩٩)

	الماء	الفحم	النفط	الغاز	الطاقة النووية
لبنان	٤,١	....	٩٥,٩	....	....
اوستراليا	٨,٢	٧٨,١	١,٣	١٠,٦	....
بلجيكا	٠,٤	١٥,٠	١,٢	٢٣,١	٥٨,٨
البرازيل	٨٨,١	٢,٩	٥,٠	٠,٢	١,٢
كندا	٥٩,٩	١٩,٠	٢,٦	٤,٥	١٢,٧
مصر	٢٢,٣	....	٢٨,٦	٤٩,١	....

المصدر: The World Bank, World Development indicators 2002

ومن الطبيعي ان تترك هذه المعطيات اثراً مباشراً على شروط التنمية والإنماء كما على المؤشرات الإقتصادية والإجتماعية والعامة الاخرى في لبنان .

- ثالثا" : في الآثار الإقتصادية العامة

يحلو لبعض المحللين ان يذهب بعيدا" في المغالاة بالآثار الإيجابية نظرياً لاحتمال اكتشاف وانتاج النفط في لبنان. ومثل هذا الموقف ينطوي، حتماً، على مبالغة، لكنه يظل يعكس جزءاً من الحقائق المفترضة خصوصاً على مستويي الاقتصاد الحقيقي والمؤشرات المالية.

١- في الاقتصاد الحقيقي

تعاني القطاعات الاقتصادية المنتجة للسلع أزمة هيكلية ساهمت الطاقة في تفاعلها وتضخمها. ومن الادلة على ذلك ان ارتفاع اسعار الطاقة (نسبياً) يشكل احد العناصر الرئيسية في هيكلية كلفة الانتاج الصناعي ,وبالتالي في الحدّ من القدرة التنافسية للصناعة اللبنانية[٤٨]. وقد جعلت جمعية الصناعيين اللبنانيين مسألة الطاقة في رأس جدول مطالبها مركزة على وجوب مدّ المؤسسات بعناصر الطاقة بأسعار تفاضلية.

وكما الصناعة، كذلك الزراعة التي تضغط كلفة الطاقة سلبا" على مكونات تسعيرها خصوصا" عبر النقل. ويعتبر النقل ، اساسا"، رافعة اساسية للتضخم في لبنان خصوصا" ان السيارات الخاصة (وأسطولها قديم نسبيا") تمثل العمود الفقري لحركة النقل في ظل هزال القطاع المشترك. وليس أدل على ذلك من ان هذا الباب يأتي في مقدمة ابواب الانفاق في موازنة الاسرة اللبنانية (بنحو ٩٪ من انفاق الاسرة)[٤٩].

وفي المطلق، ارتبط مستوى اسعار النفط بمستوى التضخم في الدول المستهلكة ولا سيما الغربية الرئيسية منها، وكانت مرحلة السبعينات والثمانينات معبرة الى حد بعيد حيث شهد الاقتصاد العالمي، انطلاقاً من الغرب، موجة تضخمية حادة عادت تتجه الى التقلص مع اتجاه اسعار النفط نفسها الى التراجع.

في المقابل تظهر علاقة عكسية بين ارتفاع اسعار النفط (النسبية) وحالات

محددة من مستويات التشغيل وبالتالي النمو ,على رغم ان الطلب على النفط هو نفسه طريق الى النمو، ونتيجة له. ويرتبط الأمر بشيء من التوازن الفعّال بين العنصرين، فاذا زادت الاسعار بقوة تراجع النمو (والتشغيل)، واذا نما الطلب بهدوء، أمكن الحفاظ على معدلات نمو متصلة كما مستويات تشغيل عالية.

وثمة دعائم نظرية للعلاقة بين استهلاك الطاقة ونمو الناتج المحلي الإجمالي خصوصاً وان الطاقة (والنفط تحديداً) هي مدخول اساسي من مداخيل الانتاج (وهو ما يتبين من قراءة الناتج من زاوية العرض)[٥٠]، كما انها عامل اساسي من عوامل الاستهلاك (لدى قراءة الناتج من زاوية الطلب)، وهي تؤثر مباشرة على شروط التوزيع العادل (لدى معالجة الناتج من زاوية الدخل)[٥١].

وانطلاقاً من ذلك، وبالعودة الى الحالة اللبنانية، ثمة ما يشجع على الاعتقاد ان استهلاك الطاقة يتجه الى زيادة، وان هذه الزيادة يفترض ان تتعزز في حال الاكتشاف المؤكد لثروة ممكنة وفي حال استغلال هذه الثروة . وفي هذه الحال -او الأصح في إحدى هاتين الحالتين- يصبح توقع إنتعاش النمو امراً طبيعياً، وربما تحوّل هذا النمو الى حال من النمو العالي لاحقاً ,خصوصاً ,اذا أحسن لبنان استغلال الفرصة[٥٢].

ويرتبط الامر، الى حد بعيد، بتطوير آلة الانتاج المتآكلة في قسم كبير منها، وكذلك باعادة رسم سياسة التسعير خصوصاً بالنسبة للطاقة الموجهة الى القطاعات الإقتصادية[٥٣]، علماً ان اسعار الطاقة ما زالت، في مقارنة مطلقة مع دول قريبة او بعيدة، شبيهة او اقل شبهاً بلبنان، غير مرتفعة دائماً على المستوى الوطني العام لكنها -اي هذه الاسعار- تبقى مرتفعة نسبياً خصوصاً للمؤسسات، اذا قيست ببعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية الكلية وخصوصاً هيكلية أكلاف الانتاج ومستوى الدخل، (أنظر الجدول رقم ٥)[٥٤].

الجدول رقم ٥

سعر المحروقات في مجموعة مختارة من الدول

الدولة / المحروقات	بنزين سوبر دولار/ليتر في ٢٠٠٠	ديزل دولار/ليتر في ٢٠٠٠
لبنان	٠,٥٣	٠,٣١
الارجنتين	١,٠٧	٠,٥٢
فرنسا	٠,٩٩	٠,٨٢
الهند	٠,٦٠	٠,٣٩
اسرائيل	١,١٤	٠,٦٤
الاردن	٠,٤٥	٠,١٥
مصر	٠,٢٦	٠,١٠
روسيا	٠,٣٣	٠,٢٩
سوريا	٠,٤٤	٠,١٣
تركيا	٠,٨٨	٠,٦٦
الولايات المتحدة الاميركية	٠,٤٧	٠,٤٨

المصدر: The World Bank, World Development indicators 2002

وعلى مستوى الاقتصاد الكلي ايضا" ، وفي جانب آخر هام من جوانب الطلب ، وبالتالي النمو ، تجدر ملاحظة الصعوبات المستمرة على مستوى جذب الاستثمار الى لبنان ، وهي صعوبات يمكن تصوّر بعض وجوهها في مرحلة لاحقة من مراحل الاستكشاف والتنقيب ، وفي اي مفاوضات -لن تكون سهلة- مع الشركات العالمية. ويصنف لبنان غالبا" في موقع مرتجّ نسبياً لجهة معايير جذب الاستثمار الخارجي، (أنظر الجدول رقم ٦).

الجدول رقم ٦

مؤشرات حول موقع لبنان في مناخ الإستثمار

الدولة/المجموعة / مؤشرات في مناخ الإستثمار	لبنان	الدول الفقيرة	الدول الغنية	العالم
نسبة الإستثمار الخارجي من تكون رأس المال (٢٠٠٠)	١٠	٣,٤	١٤,٢	١٤
المرتبة على درجة المخاطر (ICRG) في كانون الاول ٢٠٠١	٥٦,٨	٥٩,٨	٨٣,٧	٦٩,١
المرتبة على لائحة مؤسسات الإستثمار	٣١,٦	١٦,٢	٨٥,٣	٣٣,٩
درجة استحقاق تسليفات دول "الأورو"	٤٤,٧	٢٦,٥	٩٠,٢	٣٨,٨

المصدر: (ترجمة بتصرف عن)

The World Bank, World Development indicators 2002

وتنعكس كل هذه المعطيات مباشرة على النتائج المالية المتوقعة وخصوصا" على عدد من مؤشرات المالية العامة.

٢ -*في المؤشرات المالية*

ينتمي لبنان ، كما بات معروفا"، الى فئة الدول المرتفعة الاستدانة . ويبدو ذلك جليا" من خلال المؤشر الرئيسي الذي يقيس الدين العام (٣١,٣ مليار دولار في آخر ٢٠٠٢) الى الناتج القائم (نحو ١٩٠ ٪). ويصعب، عموما"، تحديد الأثر المباشر لاحتمالات اكتشاف واستغلال النفط، بكميات تجارية، على هذه الصورة المالية العامة، لكن مراجعة الخصائص اللبنانية، وقراءة تجارب دول مماثلة، تسمح بالاعتقاد، في ظل افتراض ان اي انتاج محتمل لن يكون متوافراً بشكل ملموس قبل أقل من سنتين من انطلاق العمل الجدي الفعلي، ان النتائج الايجابية المنتظرة لن تكون كبيرة على المدى المنظور.

ويشجع على هذا الاعتقاد ان دور القطاع العام لن يكون حاسما"، في السنوات القليلة المقبلة على الاقل، في عمليتي الإنتاج والتسويق، وان الكميات المنتظرة، نفطاً او غازاً، لن تكون واسعة، وان الحاجات الإنفاقية هي، في القريب، الى توسع. لكن الامر لا يعني، طبعا"، سلبيات بل إيجابيات محدودة وربما سمحت الثروات النفطية النظرية بزيادة في الواردات العامة تنشأ خصوصاً عن النمو وعن تعديل جوهري في الميزان الجاري وعن خفض أكلاف اقلها، مثلا"، ما يتعلق بانتاج الطاقة الكهربائية.

ويزيد في محدودية النتائج، ايضاً، ان ثقل المديونية العامة يلقي بعبئه الهائل على الإحتمالات المستقبلية ويعرقل مسيرة التنمية والإنماء، لكن افتراض الثروة النفطية، ولو كان ضيقاً، يساعد، طبعاً، على ازالة العديد من العوائق، كما هي الحال في العديد من دول العالم الثالث، علماً ان بعض هذه الدول، ومنها دول نفطية عربية، جعلت، احياناً من الافراط في الاعتماد على النفط، سبباً اضافياً معرقلاً للنمو (والتنمية طبعاً).

وتختلف تجارب دول عدة ازاء التعامل مع اكتشافات نفطية ، ونكتفي بأمثلة دالة، من حيث بعض جوانب الهيكلية او المديونية، ومنها مثلا" اليمن (حيث بدأ الانتاج حديثا") إذ لم ترتفع الواردات العامة على نحو جوهري ، ونيجيريا(حيث ضغطت الاضطرابات) إذ تراجع الناتج نحو ٥٠٪ بين ١٩٨١ و ٢٠٠١ ، وتركيا (حيث الانتاج ما زال محدوداً) إذ زاد الدين الخارجي نحو ١٣٥ ٪ بين ١٩٩٠ و ٢٠٠٠ ، وفنزويلا - في المقابل- حيث تضاعف الناتج تقريبا" (من ٦٦,٤ مليارا" الى ١٢٤,٩ مليارا") بين ١٩٨١ و ٢٠٠١.

ويسجل ايضاً، في اطار وزن العائدات الضريبية من صحون نفطية ان العبء الضريبي اللبناني على بعض المشتقات كبيرة وربما تجاوز، على البنزين مثلاً، حدود ٥٥-٦٠٪ احياناً من السعر النهائي للمستهلك، على رغم انه يبقى محدودا"نسبيا"على مشتقات اخرى. وهذا يعني ان هامش المناورة الضريبية في هذا المجال بدأ يضيق لأسباب اقتصادية وكذلك وخصوصاً لأسباب اجتماعية.

ويشرح الجدول رقم ٧ هيكلية بعض اسعار النفط ووزن الضرائب عليها.

الجدول رقم ٧

هيكلية توزع سعر النفط (البرميل) في عدد من الدول المستهلكة الكبرى

الدولة / السعر ($ البرميل)	سعر النفط الخام	ضرائب	هامش حصة الشركات	السعر الاجمالي
الولايات المتحدة الاميركية	٢٢,٠	١٥,٤	١٧,٠	٥٤,٤
اليابان	٢٥,٠	٣٤,٩	٣٧,١	٩٧,٠
فرنسا	٢٤,٢	٥٩,٤	٢٣,٩	١٠٧,٤
المانيا	٢٤,١	٥١,٢	١٤,٨	٩٠,١
ايطاليا	٢٣,٩	٥٦,٤	١٥,٣	٩٥,٦
بريطانيا	٢٤,٦	٨٨	٣١,١	١٤٣,٦

المصدر: منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية

(OCDE, Bulletin pétrolier, Prix et taxes du pétrole,2002)

وفي اختصار ، واستناداً الى المعطيات المتوافرة ، سواء على المستوى المحلي او على المستوى الدولي، يصعب تصور تحول جذري عجائبي اقتصادياً لأي احتمال اكتشاف واستغلال النفط في لبنان، لكن، وفي المقابل، يصحّ تصوّر إيجابيات ,لا بد ان يؤدي أيّ استغلال نفطي الى تعظيمها ,خصوصاً على مستويي النمو والواردات العامة.

وكل النتائج تبقى مرتهنة بحسن الإدارة، وهو شأن طبيعي ... حتى بدون نفط.

LEBANON

SIMPLIFIED GEOLOGICAL MAP

LEGENDE

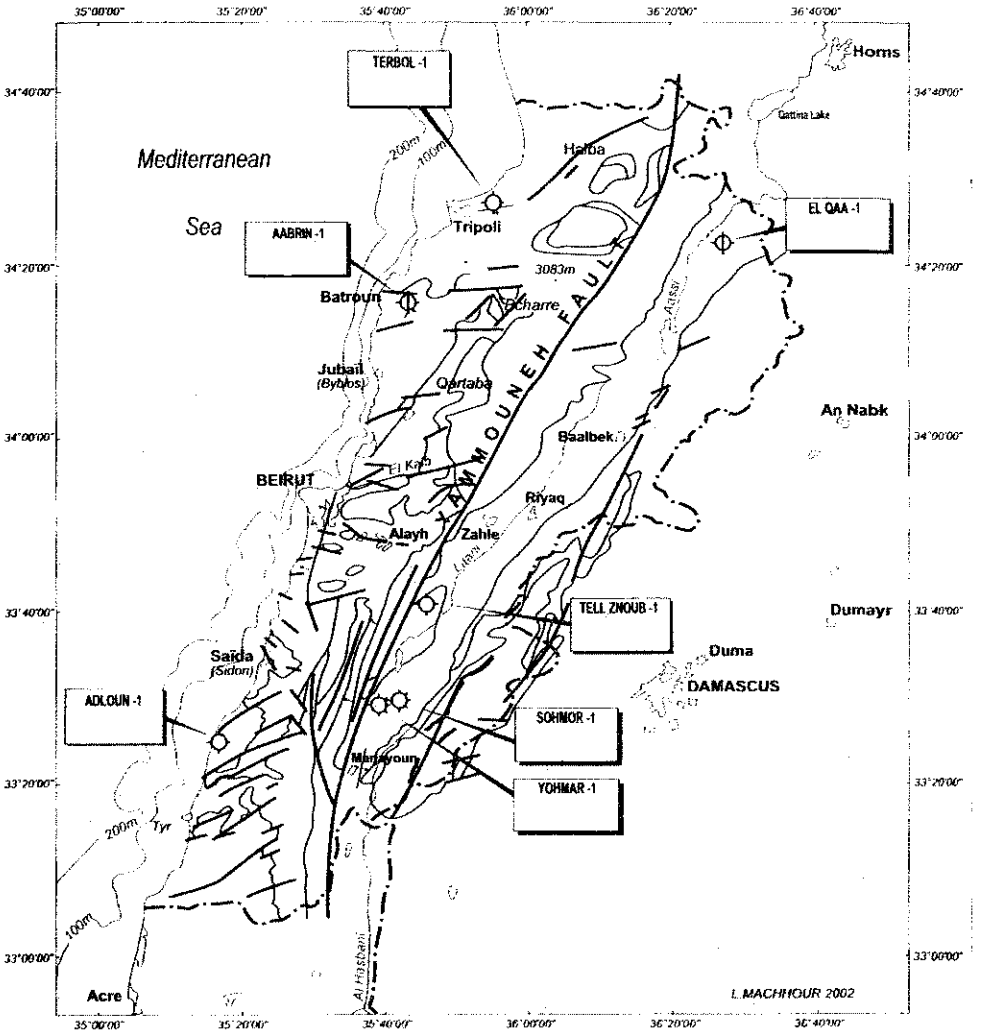

Faille principal

Faille

Puits d'exploration

Organisée par M. Mroueh
Adoptée de Beydoun 1977

0 — 50 km

TOTAL FINA ELF

مراجع وهوامش

1- K.E. Chapman 1976, Elsevier/Netherland, Petroleum geology.
2- G. Bignot 2001, GIB/France, Intoduction à la mocropaleontologie.
3- J.L Wilson 1975, Springer/USA, Carbonate facies in geologic hostory.
4- S.M Stanley 1999, Freeman/USA, Earth System History.
5- B.J. Skinner-S.C.Porter 1989, John Wiley/USA, The Dynamic Earth.
6- G.M. Friedman-J.E. Sunders 1987, John Wiley/USA, Principles of sedimentology.
7- M. Mroueh - G.Ashgirei 1983, Int'l symposium on the geology of the Taurus Belt-Ankara, Turkey. The position of Lebanon and adjacent area as the northwest border of Arab platform, according to the Taurus belt.
8- A.J. Vromen 1957, XX^{e} congres géologique internationale, Section V / Mexico. Strike-slip movements, their associated Features and their occurence in Israel.
9- Z. Beydoun-H. Dunnington 1975, Scientific Press/England, The petroleum geology and resources of the Middle-East.
10- G. Friedman-A. Barzel-B. Derin 1971, (Geological survey of Israel). Paleoenvironment of the Jurassic in the coastal Belt of Northern and Central Israel and their significance in the search for petroleum.
11- T.R. Geodicke 1999, CNRS No P 61378, Submarine canyons on the central continental shelf of Lebanon.
12- J. Angenieux 1951, Bull. Soc. Geol. de fr. / T. 1f.4-6. Une combinaison de mouvements verticaux et de mouvements tangentielle dans l'évolution structurale du Liban.
13- L. Dubertret 1947, Bull. Soc. de fr. / T. 17, 5^{éme} Sect. Problème de géologie du Levant.
14- G. Renouard 1955, Bull. of the American Petroleum geologists / N. 11 V. 39. Oil prospects of Lebanon.
15- Z. Beydoun 1974, AUB department of geology/ unpublished. A re-evaluation of the Petroleum prospects of Lebanon,
16- Z. Beydoun 1976, Marine geology/21. Observation of geomorphology, transportation and distibution of sediments in western Lebanon and its continental shelf and slope region.
18- Z. Beydoun 1981, Journal of Petroleum geology/ 3;3. Some open questions relating to the Petroleum prospects of Lebanon.
19- Z. Beydoun - J. Habib 1995, Journal of Petroleum geology/ V.18(1). Lebanon Revisited: New insights into Triassic Hydrocarbons prospects.
20- M. Mroueh - S. Svirnova 1984, 27th Int'l geological congress/Moscow. Quelques indices paléoécologiques du Crétacé inférieur au Sud Liban.
21- L. Dubertret, Notice explicative de la carte géologique du Liban 1/50000 (Feuille de Jezzine).
22- L. Dubertret 1971, Notes et Mémoires sur le Moyen Orient / T.XII. Sur la

dislocation de l'ancien plaque sialique Afrique -Sinai- peninsule Arabique.
23- P. Saint-MArc 1969, C.R. Som. Sean. Soc. Geol. fr. Fasc.3, séance 17. Niveau repère dans le campanien supérieur du Liban Nord (région de Ras Baalbeck).
24- P. Saint-Marc 1964, Bull. soc. geol. fr (7) XI. Etude gélogique de la région d'Hermel (Liban septentrional).
25- P. Saint-MArc 1971, Notes et Mém. sur le Moyen Orient XII. Le Crétacé inférieur et moyen du bord occidental du Jabal Sannine (Liban).
26- P. Saint-Marc 1972, Revista Esp. de micropaléontologia. Contribution à la connaissance des ostracodes crétacé du Liban.
27- P. Saint-Marc 1980, Gélogie Méditerrané T. XII-3. Le passage Jurassique crétacé et le crétacé inférieur de la région de Ghazir (Liban Central).

٢٨- عدنان الشهال (مغفل من التاريخ)، تقرير مطبوع ومنشور للمؤلف/منشوراته البترول في لبنان - مؤشرات ايجابية.

٢٩- قرار تشكيل لجنة للتنقيب عن البترول - صادر عن وزير الطاقة والمياه (أحد كاتبي هذا السطر عضو فيها) - ١٩٩٩.

٣٠- قرار تشكيل لجنة للتنقيب عن البترول - صادر عن وزير الطاقة والمياه (أحد كاتبي هذا السطر عضو فيها) - ٢٠٠١.

٣١- مصطفى مروة، تقرير غير منشور. الإشراف على حفر بئر زلايا (أرشيف مجلس الجنوب).

٣٢-التقرير السنوي لمنظمة "اوبيك" ٢٠٠١، فيينا ٢٠٠٢، ص ٢٦.

٣٣- البنك الدولي ,"World development indicators 2002" ,ص١٦٠ .

٣٤- المرجع في (١) ص ٣٨.

٣٥- المرجع في (١) ص ٣٤.

٣٦- تقرير "اوبيك" السنوي لعام ٢٠٠١. ص ٢١-٢٢.

٣٧- تقرير "اوبيك" ص ١٣١ . يمكن ,ايضا" ,في موضوع مواكبة الاسعار مراجعة تقرير "INSEE conjoncture, Avril 2003.information rapide",122

٣٨- تقارير عدة ,سياسية واقتصادية ,تناولت بتفصيل هذا الموضوع. يمكن ,على سبيل المثال لا الحصر ,مراجعة كتاب Lioubomir MIHAILOVITCH وJean-Jacques PLUCHART بعنوان Les compagnies petrolieres internationals PUF, coll Que Sais-je N1973,Paris 1981.)

يمكن ايضا" ,في الجانب السياسي وفي الجانب الاقتصادي ,قراءة "فخ العولمة" ل " هانس بيتر مارتين و هارالد شومان"، النسخة العربية، المجلس الوطني للثقافة والعلوم و الاداب، الكويت ١٩٩٨.

٣٩- راجع ورقة عمل عادل خليل المؤيد مدير عام التسويق في شركة "بنوكو"، "ندوة العولمة و اثارها الاقتصادية والاجتماعية" ,البحرين ٤-٦كانون الاول ١٩٩٩.

٤٠- تقرير "اوبيك" ٢٠٠١.

٤١- من حديث د .غازي يوسف ,امين عام مجلس الخصخصة,في المجلس الاقتصادي و الاجتماعي,أيلول ٢٠٠٢.

٤٢- المرجع في ٨ ص ٧.

٤٣- يمكن مراجعة موضوع الكلفة في ورقة عادل خليل ص٨.

٤٤- تقديرات منشورة في "السفير" بتاريخ ٢٧كانون الثاني ٢٠٠٣.

٤٥- تقديرات للمديرية العامة للنفط نشرت في "النهار" في ٢٠٠١/٢/١٩ , يمكن ايضا" متابعة الكميات (لا المبالغ) على صفحة مصرف لبنان على الانترنت.

٤٦- راجع الجدول رقم (١) اعلاه.

٤٧- حديث لمدير عام المؤسسة الى "السفير" ، ١/٢٧/ ٢٠٠٣.

٤٨- من ورقة عمل المؤتمر الصناعي العام، بيروت ٢٠٠٠.

٤٩- الاوضاع المعيشية للاسر عام ١٩٩٧، ادارة الاحصاء المركزي، شباط ١٩٩٨، ص ٧٢.

٥٠- من المفيد في هذا المجال مراجعة اندرو اوزوالد في "الفاينينشل تايمز"، ١٠ ايلول ١٩٩٩.

٥١- يمكن مراجعة العديد من المراجع العلمية في "الاقتصاد الكلي" بهذا الشأن. يمكن ايضاً قراءة ورقة علي صادق وحمدي صالح ومحمد البدراوي الى "مؤتمر الطاقة العربي الاول"، ابو ظبي، ٤-٨ آذار ١٩٧٩ صفحة ١٣ وما يليها.

٥٢- (حسب التقدير الرسمي للناتج)، مصرف لبنان.

٥٣- يمكن ، في هذا الاطار، مراجعة كتاب Pierre DHONTE،

La Dette des pays en developpement

الصادر عن La documentation Francaise, Numero 4521-22, Paris .1979

٥٤- تقرير البنك الدولي ٢٠٠٣.

الديموغرافيا الفلسطينية في حسابات الأمن القومي الإسرائيلي

إحسان مرتضى*

في أعقاب انتهاء معارك عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ وعقد اتفاقيات الهدنة بين عدد من الدول العربية وإسرائيل، تشتت العرب الفلسطينيون في دول عديدة، وانقسموا بالتالي الى ثلاث فئات:

١) عرب الأرض المحتلة: وهم الفلسطينيون الذين ظلّوا في المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨ ولم يهاجروا منها.

٢) اللاجئون الفلسطينيون: وهم الذين أرغمتهم مجازر الصهاينة ووحشيتهم وتآمر سلطات الانتداب البريطاني، على النزوح من أراضيهم، واللجوء الى المناطق المجاورة سعياً لتأمين الحماية والأمن للأطفال والشيوخ والنساء، وانتظاراً للعودة الى بيوتهم مع انتهاء الحرب وتوقف القتال. إلا ان تطور الأوضاع العسكرية والسياسية في فلسطين اضطرهم للبقاء في أماكن لجوئهم، والتي شملت الضفة الغربية وقطاع غزة وشرق الأردن وسوريا ولبنان،في حين اتجهت أعداد قليلة منهم الى العراق ومصر.

٣) سكان الضفة الغربية وقطاع غزة الأصليون: وهم سكان تينك المنطقتين، الذين نجت أراضيهم من الاحتلال الصهيوني عام ١٩٤٨، ولم يضطروا الى مغادرتها أو التشرد عنها.

ولم يكن هذا الشتات للشعب الفلسطيني سوى حلقة

(* باحث في الشؤون الإسرائيلية)

أولى من سلسلة هجرات متعاقبة تلتها، دفعتهم إليها الظروف المعيشية القاسية التي واجهوها في أماكن لجوئهم. فتوجهت أعداد كبيرة منهم بحثاً عن العمل الى الدول العربية الغنية بالنفط وخصوصاً الكويت التي كانت بدورها بحاجة ماسة الى اليد العاملة وأصحاب الكفاءات لتلبية مخططات التنمية السريعة. اما الحلقة الرئيسة الثانية من حلقات التشرد والنفي التي عاشها الفلسطينيون، فكانت في حرب عام ١٩٦٧، حين نزح نحو مئتي ألف من سكان الضفة الغربية بصورة خاصة، وبعضهم للمرة الثانية في حياته، الى الضفة الشرقية من الأردن[١].

وبالإضافة إلى تقسيم الأرض الفلسطينية بين الاحتلال والإلحاق والضمّ، وتمزيق الهيكلية الاجتماعية للفلسطينيين ,فقد تمّ أيضاً تدمير كيانهم السياسي والإقتصادي بحيث انتقل مسرح نشاطهم الأساسي الى الخارج ووقع نحو ١٥٦ ألف فلسطيني تحت الاحتلال المباشر. وكان واضحاً، منذ البداية، أن سلطات الاحتلال لم تكن ترحب ببقاء هذه الأعداد من السكان العرب في المناطق التي احتلتها وسيطرت عليها اثناء الحرب. فالمخططات والأطماع الصهيونية كانت تهدف دائما الى الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأرض العربية، وخصوصاً الفلسطينية، مع أقل قدر ممكن من السكان الأصليين، تمهيداً لجلب المهاجرين اليهود اليها من مختلف أنحاء الدنيا. وبالتالي، فالسياسة الإسرائيلية تجاه العرب الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال، تميزت دائماً بالمحاولات المستمرة لطمس الهوية الفلسطينية بجميع أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية، ومحاربتها بشتى الوسائل. وقد تركزت التجمعات السكنية العربية في الجليل شمالي فلسطين حيث تعيش الأكثرية العربية (نحو٦٠٪)، وفي منطقة المثلث في وسط إسرائيل، حيث يعيش٣٠٪ منهم. وأما باقي السكان العرب ,أي نحو١٠٪، فيقيمون في منطقة النقب وبئر السبع جنوب فلسطين[٢].

كان المبرر الأساسي للنظام السياسي في إسرائيل هو ضمان سيطرة العنصر اليهودي كمّاً ونوعاً، وبالتالي إلغاء الطابع العربي الفلسطيني بمختلف السبل والوسائل وأساليب الاحتيال غير القانونية تنفيذاً للمبدأ القائل "ارض بلا شعب لشعب بلا أرض". وقد فتحت إسرائيل منذ تأسيسها في ١٥ أيار ١٩٤٨ أبواب الهجرة أمام اليهود من مختلف أنحاء العالم، وسارعت الى منحهم الجنسية الإسرائيلية، في حين ضيّقت الخناق على السكان العرب الأصليين وطاردتهم في

ارواحهم وأموالهم وأملاكهم وأرزاقهم، لاقتلاع اكبر عدد منهم وإرغامهم على الرحيل والتشرد في الخارج. وأقرّ الكنيست الإسرائيلي في ٥ تموز ١٩٥٠، قانون "العودة" الذي يحق بمقتضاه لكل يهودي، أينما كان موطنه الأصلي ومهما تكن جنسيته، ان يهاجر الى إسرائيل، هذا بالإضافة الى اليهود الذين كانوا قد هاجروا الى فلسطين أثناء الانتداب البريطاني وقبله، او الذين ولدوا في فلسطين.

وتلا ذلك قانون "الجنسية" الذي أقرّه الكنيست بتاريخ ١ نيسان ١٩٥٢ ويمنح بموجبه أولئك المهاجرين الجنسية الإسرائيلية على الفور.

كان الهدف من هذين القانونين وسواهما واضحاً، وهو تغليب الطابع اليهودي (تهويد) على فلسطين ومصادرة الهوية الفلسطينية. إلا انه بالرغم من تدفق الهجرة اليهودية بأعداد كبيرة، تراوحت بين ٣١،٦٪ و ٥٩،١٪ من مجمل الزيادة العامة في عدد السكان اليهود، فقد حافظ السكان العرب داخل اسرائيل على نسبتهم العامة من مجموع السكان العام، بل حققوا أيضا في السنوات التالية زيادة مطلقة شكّلت بالنسبة للإسرائيليين مؤشر خطر ديموغرافي وبالتالي مؤشر اندلاع صراع ديموغرافي وعرقي بالغ الشراسة.

وبالإضافة إلى إغراق الكيان الصهيوني بالمهاجرين اليهود، فقد فرضت سلطات الاحتلال الصهيونية على السكان العرب ضرورة الحصول على الجنسية الإسرائيلية، وإلا اعتبروا "غائبين" وفقدوا الحق في املاكهم وحتى في أبسط الخدمات المدنية. وعلى الرغم من فرض الجنسية الإسرائيلية على من بقي من السكان العرب في فلسطين المحتلة، فان أنظمة الطوارئ والحكم العسكري تحرمهم عملياً من معظم الحقوق والإمتيازات التي يتمتع بها اليهودي في إسرائيل، بحيث أصبح العرب هناك، وفي احسن الحالات، مواطنين من الدرجة الثانية. وتتذرع السلطات الإسرائيلية باستمرار بحجة "الأمن القومي" من أجل التدخل في مختلف الشؤون الحياتية اليومية للسكان العرب، من حرية التنقل والعمل والإقامة والسكن، الى المناهج التعليمية في المدارس العربية وميزانيات البلديات في القرى العربية وحرية التعبير عن الرأي والتنظيم والعمل السياسي، وذلك في محاولة يائسة وعقيمة لمحو الهوية الوطنية الفلسطينية. بل ان سلطات

الاحتلال كثيراً ما لجأت إلى أسلوب العنف والتصفيات الجسدية وارتكاب المجازر الجماعية وتدمير المساكن لفرض الإرهاب والرعب على السكان العرب لتيئيسهم وإرغامهم على الرحيل، تحت ما يسمى "الترحيل الطوعي" (ترانسفير).

في هذا البحث سنحاول تسليط الضوء بشكل خاص على قضية الصراع الديموغرافي العربي اليهودي وخصوصاً في جوانبها المرتبطة بالأمن القومي الإسرائيلي.

المعادلة الديموغرافية الحرجة

يشكل العرب الفلسطينيون المقيمون في إسرائيل الفئة الرابعة من حيث العدد. ويمثل هؤلاء ما تبقى من أصحاب البلاد الأصليين اثر قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، فبعد ان كان سكان فلسطين ٧٥٠ ألف نسمة عشية قيام دولة إسرائيل، تبقى منهم ما يقرب ١٥٦ ألف نسمة فقط[٣]. وفي عام ١٩٩١ وصل عددهم إلى ٩٠٠ ألف نسمة (منهم ٦٩٥ ألف مسلم، و١١٦ ألف مسيحي و٨٥ ألف درزي و٤ آلاف ارمني وذلك من جملة سكان إسرائيل الذين بلغوا وقتذاك خمسة ملايين نسمة[٤]. وفي احدث تقرير حول هذا الموضوع نشرته صحيفة يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٣/٢/١٢ يظهر ان معدل زيادة المسلمين فقط في اسرائيل هو ضعف معدل اليهود وان عددهم وصل الى مليون و٣٧ الف نسمة أي مايوازي ١٥٪ من إجمالي السكان. وثمة تقديرات بان ترتفع النسبة الى ١٩٪ في نهاية العام ٢٠٢٠ أي الى ١,٦٧٧ مليون نسمة. كما ان العمر المتوقع لهذه الفئة هو في حدود ٧٢ سنة[٥]. وتعيش الى جانب هذه الفئات السكانية، جماعات أخرى، تعد من الناحية الدينية، فرقاً دينية يهودية وتتضاءل أعداد هذه المجموعات بحيث لا يبقى لها دور يذكر في حياة إسرائيل الاجتماعية والسياسية ومنها: السامريون والقراؤون والفلاشا وغيرهم.

لقد أثبتت التجارب الاستيطانية في العالم الحديث ان تكثيف الاستيطان وتمدده، عموماً، يقومان على موجات كبرى ومتتالية من المهاجرين الوافدين الجدد، بما يؤدي الى كسر التوازن الديموغرافي مع السكان الأصليين، الأمر الذي

يتطلب فائضاً ديموغرافياً للمستوطنين يساهم في تأمين اتساع العمليات الاستيطانية، والسيطرة على الأراضي الجديدة، والتحكم في مجالاتها الجغرافية، لتنظيمها على نحو مجد.

إلا أن إسرائيل، منذ نشأتها وحتى مطلع القرن الحادي والعشرين، لم تشهد سوى موجتين كبيرتين من المهاجرين الوافدين اليهود (انظر الرسم رقم ١):

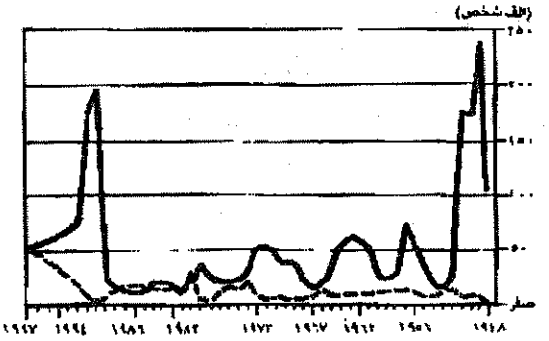

عدد الأشخاص المهاجرين الوافدين الى فلسطين المحتلة
عدد الأشخاص المهاجرين المغادرين من فلسطين المحتلة
الرسم رقم (١).

الموجة الأولى جرت في مرحلة النشأة، أي في أواسط القرن العشرين، والثانية في التسعينات من القرن المذكور، أطلقها انهيار الاتحاد السوفياتي، وتمثّلت بهجرة اليهود من جمهوريات الكتلة الشرقية المفككة لاسيما الروسية منها[٦].

ما بين الموجتين، لم يكن الميزان الديموغرافي، بين المهاجرين الوافدين إلى إسرائيل والمهاجرين المغادرين منها، يتمتع بالفائض الذي يمكّن المجتمع الإسرائيلي والدولة الإسرائيلية (وكلاهما في الأصل مجتمع استيطاني ودولة استيطانية) من امتلاك دينامية تنمو تلقائياً باتجاه التوسع. ففي عامي ١٩٥٣و١٩٦٦ انخفض الفائض الديموغرافي الى درجة الصفر.

وبعد احتلال أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧، أي بعد ان اشتدت حاجة إسرائيل إلى مهاجرين وافدين جدد لتحقيق طموحاتها الاستيطانية في الأراضي التي احتلتها، شهد عاما ١٩٧٥و١٩٧٦ انخفاضاً حاداً في حجم

المهاجرين الوافدين. أما الأخطر من ذلك فهو ما جرى بين عامي ١٩٨٠و ١٩٨٨ عندما سجّل عدد النازحين الإسرائيليين المغادرين، في بعض الأحيان، تفوقاً ملحوظاً على عدد المهاجرين الوافدين إليها، مما يعني حرمان دولة إسرائيل القدرة الاستيطانية السكانية التي أملت الحركة الصهيونية في ان تمارسها على اليهود في العالم[٧].

أما الموجة الأخيرة، أي التي عرفت باسم "الموجة الروسية" فعلى الرغم من أهميتها العددية وخطورة تداعياتها فإنها لم تؤد الى ارتفاع وتيرة الاستيطان في أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد قدّر مجموع الذين وصلوا الى إسرائيل، بين عامي ١٩٨٩و١٩٩٥ بمليون نسمة، ولكن غادر منهم حوالي٣٠٠ ألف باتجاه الولايات المتحدة والدول الأميركية الأخرى. كما تبيّن بعد مدة ان عشرات الألوف من مواطني الجمهوريات السوفيتية السابقة، من غير اليهود، قد تمكنوا من ان يندسوا في صفوف القادمين إلى إسرائيل، وهؤلاء، بطبيعة الحال، غير مبالين بالشؤون الإسرائيلية، لاسيما الطموحات الاستيطانية والتوسعية منها. وقد فضّلت الأغلبية الساحقة منهم البقاء داخل الخط الأخضر (حدود عام ١٩٤٨) الأمر الذي يثبت أن إسرائيل بالرغم من مرور نحو ربع قرن على احتلالها، لم تتمكن من إيجاد الشروط الاستقطابية للاستيطان اليهودي الواسع النطاق في كل من الضفة والقطاع.

وهنا يجدر بنا الربط ما بين إبرام اتفاقية أوسلو والاعتراف بشرعية قيام دولة فلسطينية، وبين بدء انحسار الموجة الروسية، بحيث ان إسرائيل أدركت في حينه عام ١٩٩٣ ان أفق استيطانها الواسع للأراضي المحتلة، قد بات ضيقاً. وعلى مدى هذه الفترة الزمنية زرعت إسرائيل أكثر من ١٨٠ مستوطنة تقدر قدرتها الاستيعابية، في حال توفر الشروط المطلوبة بنحو مليون نسمة. إلا أن عدد المستوطنين الفعليين بقي حتى عام ٢٠٠١ ضمن حدود ٣٠٠ ألف[٨]. مع العلم انه، في مطلع الثمانينات جرى احتساب استطلاعات ديموغرافية مستقبلية، فظهر ان عدد المستوطنين اليهود، في الضفة الغربية وقطاع غزة، يمكن ان يصل الى مليون نسمة، خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين[٩].

الى ذلك بلغت تكاليف المستوطنات في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة

حوالي ٣ مليارات دولار. وقد ساهم ارتفاع التكاليف في جعل هذه المستوطنات عبئاً على الاقتصاد الإسرائيلي مما حدّ من تمددها على نحو واسع وساهم، في الوقت عينه، في شق المجتمع الإسرائيلي، وفي إحداث خلافات في وجهات النظر، على الصعيد السياسي الخاص بالتسوية مع الفلسطينيين، بين السكان داخل الخط الأخضر من جهة، والمستوطنين المتشددين خارج الخط المذكور.

من ناحية اخرى نلاحظ ان المواجهة الديموغرافية بين الفلسطينيين واليهود تتجلى بصورة إجمالية في ان معدل التزايد السكاني الطبيعي الفلسطيني يتجاوز ٤٪ بينما لا يتجاوز ٢٪ في صفوف اليهود.

ويقدّر عدد الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة في مطلع عام ٢٠٠١، بثلاثة ملايين نسمة، مليونان منهم في الضفة الغربية، ومليون في القطاع. ويقدّر عدد الإسرائيليين بستة ملايين نسمة، إنما بينهم اكثر من مليون نسمة من الفلسطينيين العرب الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، مما يعني ان فلسطين، بحدودها الدولية الانتدابية، تضم خمسة ملايين نسمة من اليهود، مقابل أربعة ملايين نسمة من الفلسطينيين[١٠].

ويستفاد من الإحصائيات الواردة في السجلات الإدارية ومن المجموعة الإحصائية الإسرائيلية العدد ٥٢ لعام ٢٠٠١ (إصدار المكتب المركزي للإحصاء) ومن كتاب القدس الإحصائي العدد ١٦ (إصدار معهد القدس للدراسات الإسرائيلية) إضافة الى تقديرات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ان عدد السكان الفلسطينيين داخل الخط الأخضر هو ١،٠٠٢،٦٥٢ نسمة في نهاية عام ٢٠٠١، وكان عددهم بعد أحداث نكسة ١٩٤٨ ١٥٤ ألف نسمة. ويدل التركيب العمري لهؤلاء السكان على انهم مجتمع فتي، حيث بلغت نسبة الأطفال دون الخامسة عشرة ٤٠،٧٪ للذكور و٤١،٤٪ للإناث، في حين بلغت نسبة الشيوخ فوق ٦٥ سنة ٣،٤٪ للذكور و ٢،٨٪ للإناث. وبلغ معدل الخصوبة الكلي٣,٤ وهذا المعدل مرتفع مقارنة بمعدلات الخصوبة في إسرائيل. وبلغ المعدل العام للمواليد ٣٥ ومعدل وفيات الرضع ٨،٦ وبلغت نسبة الجنس ١٠٣,٦ أما توقعات البقاء فكانت حوالي ٧٥ سنة للذكور و٧٨ سنة للإناث ومعدل النمو السنوي ٣٤ بالألف. (انظر الجدول رقم ٢).

الجدول رقم (٢)

نسبة الجنس	١٠٣,٦
متوسط حجم الأسرة	٤,٨
معدل الخصوبة الكلي	٤,٣
توقع البقاء على قيد الحياة	
ذكور	٧٤,٩
اناث	٧٨,١
العمر الوسط	
ذكور	١٩,٤
اناث	١٩,٨
معدل المواليد العام	٣٥
معدل الوفيات العام	٣
معدل وفيات الرضع	٨,٦
معدل النمو السنوي	٣,٤

وقد بلغ عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة في نهاية عام ٢٠٠٠ نحو ٣،٢٢ مليون نسمة منهم ٢،٢١ مليون في الضفة الغربية و١،١ مليون في قطاع غزة، وبحسب تقديرات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني فان عددهم سيتطور ليصل الى نحو ٥ ملايين نسمة عام ٢٠١٠ منهم ٣،١ مليون في الضفة الغربية و١،٩ مليون من قطاع غزة ويتوقع أن يبلغوا نحو ٧،٣ مليون نسمة عام ٢٠٢٤ منهم ٤،٣ مليون في الضفة الغربية و٣ ملايين نسمة في قطاع غزة[١٢]. أما معطيات مكتب الإحصاء المركزي الأميركي ما بين أيلول ١٩٩٠وآذار ١٩٩١ فتنص على أن توقعات عدد الفلسطينيين في إسرائيل ما بين ١٩٩٠ و٢٠١٠ هي كالتالي[١٣].

السنة	١٩٩٠	١٩٩٥	٢٠٠٠	٢٠٠٥	٢٠١٠
عدد الفلسطينيين في إسرائيل	٦٨٦٨٩٥	٨٠٠٧٥٥	٩١٩,٤٥٣	١٠٢٩٣١٤	١١٦٠٣٧١
النسبة المئوية من إجمالي السكان	١٥,٥	١٦,٢	١٧,٣	١٨,٢	١٩,٠

إزاء هذه الأرقام والمعطيات، وحيث أنه لم يعد في الأفق موجة كبرى من الوافدين اليهود الى فلسطين، على غرار الموجة الروسية، حسبما يحلم به قادة إسرائيل وعلى رأسهم رئيس الحكومة أرييل شارون، فان الفارق العددي بين الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين آخذ بالتضاؤل، نظراً لارتفاع الزيادة السكانية الفلسطينية قياساً على الزيادة اليهودية، مما جعل عملية إغراق الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ بالمستوطنين اليهود، كمقدمة افتراضية لضمّ هذه الأراضي الى الدولة العبرية، أمراً شبه مستحيل، مع العلم بأن ضمّ هذه الأراضي حالياً يؤدي الى اكتساب ثلاثة ملايين فلسطيني للجنسية الإسرائيلية، يضافون الى المليون فلسطيني ونيّف الموجودين داخل الخط الأخضر، مما يعني ان هذه الأعداد، وما ستؤول إليه من زيادة، من شأنها ان تقوّض أسس الدولة الصهيونية برمتها، اذ من المتوقع ان يتجاوز عدد الفلسطينيين عدد اليهود، في فلسطين بحدودها الدولية الانتدابية، في أقل من عقدين من الزمن. وقد شاعت إزاء هذه المعطيات، لدى الإسرائيليين، فكرة ترحيل أعداد كبيرة من الفلسطينيين الى الخارج تحت اسم ترانسفير TRANSFER[١٤]. وقدمت في هذا الشأن اقتراحات كثيرة ومشاريع علنية وسرية، مثل اقتراح نقل أعداد كبيرة من الفلسطينيين الى العراق او إلى شبه جزيرة سيناء او الى الأردن. الا ان الوقائع الميدانية والاقتصادية والظروف الدولية قضت بتعطيل التنفيذ الجدي لهذه الفكرة الجهنمية لغاية تاريخه.

كذلك ارتسمت محاولات صهيونية أخرى ترمي الى فرض توطين اللاجئين الفلسطينيين في بلدان الشتات وتركيز الجهد على ما يسميه الخطاب الصهيوني"القنبلة الديموغرافية" في ما يخصّ عرب فلسطين ١٩٤٨ لترحيلهم وإقامة إسرائيل "نقية" يهودياً. وقد جاء في وثيقة مؤتمر هرتسليا الأول المنعقد في أواخر عام ٢٠٠٠ تحت عنوان "ميزان المناعة والأمن القومي-اتجاهات لسياسة عامة" والذي شاركت فيه اكثر من ٣٠٠ شخصية يمثلون النخب الصهيونية في مختلف المجالات حسبما ذكره الصحافي الإسرائيلي مئير شيلغ في صحيفة هآرتس (٢٠٠١/٣/٢٣) ان "الشعب الفلسطيني يضاعف عدده مرة كل عشرين سنة، حيث تبلغ نسبة زيادته السنوية ٤,٢٪ وهي من اعلى الزيادات في العالم. وان نسبة الولادة في أوساط المسلمين والمسيحيين في إسرائيل هي ٤,٦ مولود للمرأة. وهذا يكاد يكون ضعف نسبة الولادة عند اليهود في إسرائيل وهو

٢,٦ مولود للمرأة. وينطوي هذا الوضع بحسب وثيقة هرتسليا على مغزى أمني خطير يتعلق بحيوية إسرائيل كدولة يهودية، كما ينطوي على مغزى اقتصادي، اذ للوسط العربي المتكاثر في إسرائيل ميزات وخصائص اجتماعية واقتصادية تحوّله الى صخرة ثقيلة تعيق تطور الدولة ورفاهيتها ,وذلك بسبب انخفاض نسبة المشاركين في قوة العمل في أوساط فلسطين ١٩٤٨ (النساء والأطفال لا يعملون). وفي المقابل يستهلك هؤلاء السكان الفلسطينيون خدمات عامة (تربية، صحة، تأمينات) بدرجة تفوق نسبتهم من مجموع السكان. في ضوء ذلك توصي الوثيقة بإلغاء مخصّصات التأمين للعائلات الفلسطينية كثيرة الأولاد. كما توصي بتوطين سكان يهود في مناطق الكثافة الفلسطينية، وخصوصاً في الجليل والنقب، لمنع نشوء تواصل جغرافي، لأغلبية عربية في هذه المناطق. كما وتدعو الوثيقة الى تبادل في التجمعات السكانية بين إسرائيل والكيان الفلسطيني المنشود.

كما تقترح الوثيقة ترحيل حتى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، لكن من دون ذكرها صراحة، وهي تربطها بظرف محدد. وفي هذا السياق جاء في الوثيقة: "ستكون هناك حاجة لإيجاد مخرج للمأزق في غير إسرائيل، ربما في شرق الاردن، لتوطين السكان الفلسطينيين في الضفة اذا لم يكبحوا من وتيرة تكاثرهم". وطالما ان الفكر الصهيوني يخطط لحشد عشرة ملايين يهودي في فلسطين بأكملها، وطالما ان مصادر المياه والأرض محدودة، فخيار الترحيل قائم على جدول الأعمال الصهيوني باستمرار وبكل اصرار.

ومع وصول أرييل شارون الى السلطة، بات رموز الترحيل يتسنمون سدة القرار السياسي والأمني في الكيان الصهيوني من أمثال زئيفي وليبرمان وإيتام. وفي هذا السياق يقول الكاتب الإسرائيلي مئير شتيغليتس في صحيفة يديعوت أحرونوت (٢٠٠١/٥/١) ان مؤيدي الترحيل "يتعززون يوماً بعد يوم. ومنذ الآن فان مسألة نقل السكان الفلسطينيين غدت جزءاً مشروعاً من الجدال العام، وستغدو في المرحلة التالية موضوعاً مركزياً، في الانتخابات، والمسألة باتت مسألة وقت حتى نحظى بمشاهدة اليافطات الكبرى بصيغة (الترحيل الآن)".

في هذا السياق تجدر الإشارة الى ان مساعدي رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون، يعدون في هذه الأثناء، مشروع قانون جديد لمكافحة ظاهرة تعدد الزوجات بين صفوف المواطنين العرب في إسرائيل ووضع حد لها بشكل قسري.

ولا يقدم هؤلاء على هذه الخطوة بدافع تنظيم الأسرة ولا التكافل الاجتماعي، بل لدوافع عنصرية مكشوفة، اذ يعتبرون تعدّد الزوجات سبباً لكثرة الأولاد، "الذي يقود الى أخطار كبيرة على أمن إسرائيل واقتصادها وسياساتها" حسبما جاء في تقرير سري أعده مسؤول دائرة الإسكان في وزارة الداخلية، وهو عقيد في الاحتياط يدعى هرتسل غدار. وحسب هذا التقرير الذي نشرته صحيفة معاريف بتاريخ ٢٠٠٣/٢/٤ فان هناك ما لا يقل عن ٢٠ ألف امرأة عربية تعيش في إسرائيل بشكل غير قانوني، آتيات من المناطق الفلسطينية او الأردن او مصر او سوريا او المغرب او سواها وقد تزوجن من رجال عرب من مواطني إسرائيل بمثابة زوجة ثانية او ثالثة او رابعة.وهؤلاء النساء ينجبن اطفالاً، والاطفال يحصلون على الجنسية الإسرائيلية ويصبحون من أصحاب حق الاقتراع في انتخابات الكنيست، مما يعني انهم يساهمون في إقرار اتجاهات الحياة السياسية ويزيدون من وزن العرب السياسي على حساب اليهود، ويحصلون على مخصصات الأطفال التي تدفعها مؤسسة الضمان الوطني وفي هذا يشكلون خطراً كبيراً على الدولة العبرية في شتى المجالات. والجدير بالذكر ان القانون الإسرائيلي يمنع تعدد الزوجات، ولكن السلطات التنفيذية تغض الطرف عن هذه الظاهرة خصوصاً وان الكثيرات من الزوجات وصلن الى البلد بواسطة مسؤولين حكوميين، لكون رجالهن من المتعاونين مع السلطات.

ولا يخفى ان خطورة موضوع "القنبلة الديموغرافية" العربية في فلسطين المحتلة تبرز بشكل أوضح وأدق اذا علمنا ان المجتمع الإسرائيلي ما يزال حتى الآن مجتمع مهاجرين ,بحيث لا يزال نحو ٤٠٪ من بين أفراده من اليهود المولودين خارج إسرائيل. كما وان هذا المجتمع يختلف عن مجتمعات المهاجرين الأخرى في العالم، مثل المجتمع الأميركي او الأسترالي، في انه يقتصر على المهاجرين اليهود فقط ويرفض استيعاب غيرهم[١٥]. وهذا يؤكد على ان المعركة مع الصهيونية ودولتها الزاحفة إسرائيل، هي في جوهرها، معركة ديموغرافية في صراع مرير وطويل الأمد على تفاصيل الجغرافيا والتاريخ والحضارة والمستقبل والمصير. وعلى هذا الأساس يأخذ البعد الديموغرافي طابعاً استراتيجياً في مخطط الأمن القومي الصهيوني ,لاسيما وان معطيات الهجرة المعاكسة (النزوح) من دولة الاحتلال تدعو الى القلق، حيث نجد ان تزايد أرقام هذه المعطيات تخيف قادة

العدو، وتشكل لهم همّاً يقضّ مضاجعهم ويؤثر تأثيراً حيوياً ومباشراً على المشروع الاستيطاني التوسعي ويخيّب آمال وتوقعات رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق اسحق شامير الذي قال متباهياً بهجرة اليهود الروس في مطلع التسعينات "ان هجرة كبرى هي بحاجة لإسرائيل كبرى"[١٦].

وفي هذا الصدد أيضاً يؤكد الدكتور يسرائيل شاحاك انه "في الكتابات اليهودية المقدسة وصايا كثيرة بإبادة غير اليهود على أرض إسرائيل. وهناك مقاطع نادرة تخفف من فظاعة إبادة الجنس الكاملة، وتطرح فكرة الترانسفير"، فنحن نرى، حسب قول شاحاك، في مقطع مشهور من التلمود، يشوع بن نون قبل دخوله الى فلسطين التي سيفتحها، يوجه إنذاراً الى السكان "إما ان تخضعوا وتقبلوا بالعبودية، وإما ان تصبحوا حطّابين وسقّائين كما حدث لأهل جفعون" (الإصحاح ٩ الأسطر ٢١،٢٣،٢٦،٢٧)، "وإما ان تهاجروا بإرادتكم"[١٧]. وفي مطلع عام ١٩٤٨ كتب دافيد بن غوريون: "عندما نقوم بهجوم يجب أن نكون مستعدين لتوجيه الضربة القاضية، أي تدمير الموقع السكاني او طرد سكانه لكي نأخذ مكانهم"[١٨].

ورأى البروفسور أرنون سوفير ان "المشكلة الديموغرافية هي الخطر الأكبر الذي يتهدد أساس الدولة اليهودية الصهيونية، وهي تتطلب قرارات سياسية جريئة وصعبة من اجل استدراك المشكلة قبل فوات الأوان"[١٩].

وبعد ان يعدد سوفير "الحلول المقترحة" لهذه المشكلة، بدءاً من الإبادة الجماعية، والطرد الجماعي، والدمج، يصل الى خيار "الرقابة الدائمة" لعرب فلسطين حيث اثبت هذا الأسلوب (حسب رأيه) نجاعته. وبأسلوب ناضح بالعنصرية يتساءل: "اذا طردناهم جميعاً، من سيجمع القمامة في إسرائيل؟ من سيبني البلد؟ من سيوفر الخضروات؟ ومن سيقدم (الطعام) في المطاعم ؟"[٢٠].

ويتطرق أرنون سوفير الى الأرقام والنسب المئوية في الموضوع الديموغرافي فيرى ان "نسبة اليهود في أرض إسرائيل انخفضت عام ١٩٨٩ من ٦٢٪ ألى ٦١٪ من مجموع السكان بسبب النزوح وارتفاع نسبة التكاثر لدى العرب. ومن اجل إعادة هذه النسبة المئوية يترتب على إسرائيل استيعاب ١٧٠ ألف يهودي جديد في السنة. واذا افترض بان النزوح سيكون معدوماً، ففي هذه الحالة لن يتغير الوضع الديموغرافي تغيراً مهماً في تخوم ارض إسرائيل. وحتى داخل الخط الأخضر

فان هجرة مليون يهودي ستزيد نسبة السكان اليهود الى ٨٤٪ بدلاً من ٧٨٪ التي كانت متوقعة من دون هجرة الروس"[٢١].

ورأى مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية السابق، شلومو غازيت ان "زيادة التأييد والحماس للترانسفير انما هي نتيجة أمرين مهمين لهما تأثير على الرأي العام والشخصيات السياسية أيضاً:

الأول: البروز الواضح لخطر المشكلة الديموغرافية العربية_اليهودية.

الثاني: صمود مواطني الأرض المحتلة وانتفاضتهم على وهم إمكانية التعايش في ظل الحكم الأجنبي".

أما وزير السياحة الأسبق اللواء العنصري الراحل، رحبعام زئيفي، زعيم حزب موليديت، المشهور بتنظيره لسياسة ترحيل الفلسطينيين والذي وصفه اسحق رابين بأنه "رجل كل المهمات" فانه يعبر عن رأيه في هذه المسألة بكل دقة ووضوح، انطلاقاً من جوهر الصهيونية وطبيعتها، وذلك على الشكل التالي: "صحيح أنني أؤيد فكرة الترانسسفير لعرب يهودا والسامرة وغزة الى الدول العربية، إلا إنني لا أملك حق ابتكار هذه الفكرة لأنني أخذتها من معلمي الحركة الصهيونية وقادتها، مثل دافيد بن غوريون الذي قال، من جملة أمور أخرى، " إن أي تشكيك من ناحيتنا في ضرورة ترحيل كهذا، وأي شك عندنا في إمكان تحقيقه، وأي تردد من قبلنا في صوابيته، قد تجعلنا نخسر فرصة تاريخية "[٢٣] ويضيف زئيفي قائلاً: "كما إنني تعلمت هذا من بيرل كتسنلسون وآرثر روبين ويوسف فايتس وموشيه شاريت وآخرين ". ثم يستطرد ويقول: "لقد زعموا ان هذه الفكرة غير خلقية، وفي رأيي انه لا توجد فكرة أكثر خلقية منها، لأنها تحول دون وقوع الحروب وتمنح شعب إسرائيل الحياة. فان كانت هذه الفكرة غير خلقية، فان الصهيونية كلها وتجسيدها خلال أكثر من مائة عام هما غير خلقيتين. ان مشروع الاستيطان وحرب الاستقلال حافلان بعمليات ترحيل ونقل العرب من قراهم. فهل كان هذا خلقياً وهو الآن غير خلقي ؟"[٢٤]. ثم يمضي زئيفي في منطقه التبريري المراوغ بقوله: "لقد استوعبنا في إسرائيل أغلب يهود الدول الإسلامية والعربية، والآن جاء دور هذه الدول لتستوعب السكان العرب من مناطق الضفة وغزة"[٢٥].

على خلفية ما تقدم ليس من الغرابة في شيء ان تقوم فكرة اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه على أسس ومقومات تتمثل بما يلي:

١- تهجير سكان فلسطين العرب الى خارج البلد.
٢- تهجير اليهود من أرض الشتات التي يقيمون فيها وفق المبدأ الصهيوني الداعي الى "لمّ شمل المنفيين".
٣- استيطان اليهود في فلسطين كنتيجة أساسية لفعل التهجير.
٤- نقل ملكية الأرض من العرب الى اليهود.
٥- إعادة تركيب البلد وفق الصيغة الإستيطانية الجديدة.
٦- نزع الصفة العربية في شكل خالص عن فلسطين وتغيير كل المعالم التي تؤكد هذه الصفة واستبدالها بمعالم وصفات يهودية بحتة.
٧- إقامة دولة صهيونية عنصرية خالية من أي شعب آخر، ويطلق عليها اسم "دولة اليهود" وليس "الدولة اليهودية".

هذا وقد اقتنع آباء الصهيونية المؤسسون، منذ البداية، أن الحل الصهيوني الأساسي "للمشاكل الديموغرافية العربية" لا يؤتى الا من موقع القوة العسكرية، ومن إيجاد الحقائق الاقتصادية والعسكرية والاستيطانية وفرضها بالقوة في فلسطين العربية الإسلامية والمسيحية.

وعلى هذا الأساس، انصبت جهودهم ونشاطاتهم للاستيلاء على فلسطين، مؤكدين ان حل "المسألة العربية" لا يمكن ان يمر عبر الاتفاق مع السكان المحليين الأصليين، بل عبر فتح عسكري يجعل الترحيل أمراً واقعاً[٢٦].

ولعل دافيد بن غوريون يختصر سياسة الصهيونية التهجيرية ومراميها بشكل أوضح من غيره حين يقول: "إذا أردنا خلاصاً يهودياً مائة بالمائة فلا بد من استيطان عبري مائة بالمائة ومزرعة عبرية مائة بالمائة"[٢٧].

وفي كتابه المنشور عام ١٩٢٠ بعنوان: the voice of Jerusalem يقول يسرائيل زانغويل، وهو من كبار آباء الصهيونية المؤسسين: "اذا أردنا ان نعطي بلداً لشعب بلا بلد، فمن الحق بمكان ألا نسمح بان يصبح في هذا البلد شعبان، فهذا لا يجلب سوى المتاعب. وسيعاني اليهود كما يعاني جيرانهم. ثمة واحد من أمرين: يجب إيجاد مكان آخر إما لليهود و إما لجيرانهم". ولمّا كانت فلسطين هي "الوطن القومي اليهودي"، في التفكير الصهيوني، لذلك كان لا بد لجيرانهم من ان يجدوا لأنفسهم مكاناً آخر. من هنا -يقول زانغويل- بمنطقه السقيم والأعوج: "علينا ان نقنع العرب بلطف ان يرحلوا نحو البادية. أليست جزيرة العرب ومساحتها مليون

ميل مربع كلها لهم؟ ليس ثمة ما يدعو العرب الى التمسك بهذه الحفنة من الكيلومترات. فمن عاداتهم وأمثالهم المأثورة: طي الخيام والتسلل، دعهم الآن يعطون المثل بذلك"[٢٨].

من هنا يتبين ان فكرة اقتلاع الفلسطينيين أولاً وليس آخراً، من أرضهم ووطنهم ورميهم في الخارج، إنما تشكل جوهر المشروع الصهيوني وعموده الفقري، فضلاً عن دورته الدموية، القائمة على حركتي التهجير والتهويد. ومن هذا المنطلق ركز قادة الصهيونية وروادها على هدف اقتلاع المزارعين الفلسطينيين أولاً، والذين كانوا يشكلون أغلبية البلد حيث ان الأرض هي الشرط الذي لابد منه للاستيطان اليهودي في فلسطين، على حد تعبير آرثر رؤوفين. ومن هنا كان هؤلاء الفلاحون أحد أهم العناصر في تأجيج الثورات في الريف الفلسطيني فيما بعد، حيث عبّر عنهم حاييم وايزمان، أول رئيس لدولة إسرائيل، بقوله: "ان عرب فلسطين كصخور منطقة يهودا، عوائق يجب إزالتها من هذا الدرب الصعب"[٢٩].

والجدير بالذكر انه لم يكن هناك اتفاق بين هؤلاء الآباء المؤسسين للحركة الصهيونية بشأن المكان الذي سيرحل إليه العرب الفلسطينيون، بينما كان الاتفاق واضحاً على مشروع الترحيل من فلسطين الى خارجها. لذلك منهم من اقترح ترحيل العرب الفلسطينيين الى بلاد ما بين النهرين، ومنهم من اقترح منطقة الجزيرة الواقعة على الحدود السورية-العراقية كمنطقة إقامة للمرحلين، ومنهم من اقترح سوريا وشرق الأردن، في الوقت الذي رفض فيه البعض هذا الاقتراح وذلك "لأنهما جزءان من ارض إسرائيل"[٣٠].

لقد اجمع الصهاينة على إنجاز تخفيض جذري في عدد العرب في "الدولة اليهودية". وتحقيقا لهذا الهدف، طبقوا سلسلة تدابير وخطوات عملية على هذا الصعيد، بدءاً بالضربات الهجومية المنسقة والمخطط لها بعناية ضد السكان المدنيين العرب في المدن الرئيسية والريف، والغارات الليلية، وعمليات التهجير العنيفة، وقطع طرق المواصلات، ونسف المنازل وتدميرها أو حرقها، وانتهاءً بالمجازر المنظمة والهادفة الى ترويع العرب وحملهم على الرحيل. وهكذا شهدت المدن الفلسطينية وقرى الريف حملات إرهابية ضخمة لم تشهد لها مثيلاً من قبل.

وقد قامت "كتائب السحق" (بلوغوت ماحاتس) بقيادة يغآل ألون، قائد البالماخ بدور أساسي في ذلك، فضلاً عن الدور الكبير الذي أدّته أيضا العصابات الصهيونية الأخرى مثل اتسل وليحي وهاغانا وسواها. كما لم يوفر القادة الصهاينة أية وسيلة أخرى إلا واستخدموها مثل الحرب النفسية وحملات الإشاعات الكاذبة التي برع فيها إلياهو ساسون، فضلاً عن خطط تسميم آبار المياه، وخصوصاً في النقب، وصولاً الى تدمير المعنويات العربية كمقدمة ضرورية للاقتلاع والطرد. ذلك ان هدف قلب الميزان السكاني لمصلحة اليهود كان دائماً في صلب جميع المخططات والمشاريع الصهيونية المتعلقة بمصير الأرض والإنسان في فلسطين المحتلة، قبل إنشاء الكيان الإسرائيلي وبعده، وما يزال قائماً أيضا في صلب كل المخططات والمشاريع الصهيونية الموجهة ضد العرب والوجود العربي في كامل فلسطين المحتلة، كما تمثل في عمليات استقدام المهاجرين اليهود من اليمن والفلاشا من أثيوبيا فضلاً عن الاتحاد السوفياتي السابق وأميركا الشمالية والجنوبية وبعض الدول الأوروبية. ذلك ان العنصرية الصهيونية كأية عنصرية فاشية أخرى، لا تقيم أي وزن للأخلاق ولا للقيم الإنسانية النبيلة، ولا تعترف بحقوق الإنسان، وحتى عندما كان القادة الصهاينة يقبلون ببعض التكتيكات السياسية المتعلقة بإعادة النظر في انتشار الاحتلال، فان ذلك ما كان يتم إلا من منطلق الحسابات الأمنية. ومن هنا جاء قول شمعون بيرس تعليقاً على اتفاق أوسلو: "إن حكومة حزب العمل لم تتخل في قطاع غزة عن الأرض، وانما تخلت عن مئات الآلاف من السكان"[٣١]. والحقيقة أن قطاع غزة تبلغ مساحته ٣٧٠ كلم٢ ويصل عدد سكانه الى مليون نسمة، وبالتالي فالكثافة السكانية فيه هي الأعلى في العالم إذ تتجاوز ٢٧٠٠ نسمة في الكيلو مترالمربع الواحد. وأسباب هذا الحشد البشري الهائل في هذه المساحة الضيقة تعود الى أن ٨٠٠ ألف نسمة من سكان القطاع هم من اللاجئين الذين أنتجتهم المواجهات العسكرية المتكررة في فلسطين[٣٢].

على الرغم من ذلك فقد زرعت إسرائيل في قطاع غزة ١٦ مستعمرة. لكن عدد المستوطنين اليهود فيها لم يتجاوز حتى عام ٢٠٠١ الستة آلاف مستوطن. وقد صادرت إسرائيل ٣٥٪ من أراضي القطاع، على نحو يمكّنها من محاصرة السكان ,كما ربطت المستعمرات بشبكة من الطرق يمنع على الفلسطينيين

ارتيادها، مما يعني ان إسرائيل، قد وضعت في تصرف المستوطنين الستة آلاف أكثر من ١٢٠ كم٢ من أراضي القطاع، بينما لم يبق للمليون فلسطيني سوى أقل من ٢٥٠كم,٢ وعليه فان تقسيم الأراضي على هذا النحو يجعل ما معدله ٢٥٠ متراً مربعاً للفلسطيني الواحد مقابل ١٢٠ ألف متر مربع للمستوطن اليهودي الواحد، علماً بأن هذا التفاوت آخذ بالازدياد لصالح المستوطنين اليهود لأن معدل التزايد السكاني الخاص بالفلسطينيين في القطاع يصل الى ٤,٣٪ وهو أعلى من مستوى التزايد الفلسطيني العام في الضفة والقطاع مجتمعين[٣٢].

هذه الأوضاع تنبئ بمزيد من التفاقم وتزايد التحديات في وجه الاحتلال الإسرائيلي، بما يجعل إسرائيل عاجزة عن استنباط وسائل التعامل مع السكان الفلسطينيين بحيث تحافظ معها، الى هذه الدرجة او تلك، على صورتها الديموقراطية المزعومة، تجاه العالم الغربي الداعم لها.

يضاف الى ذلك انتفاء مختلف التبريرات الأمنية الإستراتيجية أو الدينية لاحتلال قطاع غزة والاستيطان فيه. ولهذا كان اسحق رابين، رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي اغتيل على أيدي أحد المستوطنين المتعصبين دينيا، يردد أمام وسائل الإعلام أثناء المواجهات الدامية بين الجيش الإسرائيلي وسكان غزة، أن القطاع يشكل له كابوساً ولذلك فهو يتمنى ان يستيقظ يوما ويجده قد غاص في البحر.

أما في الضفة الغربية فيختلف الوضع عما هو عليه في القطاع. ففي الضفة الغربية تبدو السياسة الاستيطانية اليهودية اكثر تشدداً. كما ان لكل مجموعة من المستوطنات وظيفة تختلف عن وظيفة المجموعات الأخرى.

تصل مساحة الضفة الغربية الى نحو ٦ آلاف كلم٢ ويقدّر عدد سكانها، مع مطلع عام ٢٠٠١، بمليون فلسطيني و٣٠٠ ألف مستوطن إسرائيلي، أي بكثافة سكانية مرتفعة تتجاوز ٣٨٠ نسمة للكيلومتر المربع الواحد. وبلغ معدل الزيادة السكانية للمستوطنين اليهود فيها ٢،٢٪، مع الإشارة الى ان معدل الزيادة السكانية الطبيعية في إسرائيل، داخل الخط الأخضر، هو في حدود ١,٨٪ ,أما المدن الرئيسة في الضفة، فهي فضلاً عن القدس الشرقية، نابلس، طولكرم, قلقيليا، أريحا، بيت لحم، الجليل، رام الله. وهذه الأخيرة أهم المدن الفلسطينية في الضفة الغربية، اذ يتجاوز عدد سكانها الخمسين ألف نسمة، وتعتبر العاصمة

الاقتصادية للضفة ومركز المؤسسات الرسمية للسلطة الفلسطينية، ويؤمها يومياً عشرات الألوف في النهار[٣٤].

كانت الضفة الغربية من أكثر المناطق التي توجه اليها اللاجئون الفلسطينيون واستقروا فيها بعد عام ١٩٤٨ فد خل اليها ٣٨٪ من اللاجئين، في حين بلغ عدد سكانها في مطلع الخمسينات نحو ٤٧٠ ألف نسمة وشكل اللاجئون ٣٦٪ من ذلك المجموع، وهذه النسبة تماثل نسبة اللاجئين الى الضفة الشرقية في العام نفسه. وقد تكررت مأساة الترحيل والتهجير بحق الفلسطينيين مرة أخرى عام ١٩٦٧، وتوجه العديد من اللاجئين والنازحين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية بعد حرب عام ١٩٦٧ ، وقدّرت الحكومة الأردنية عدد اللاجئين والنازحين في صيف عام ١٩٦٨ بنحو ٤٠٨ آلاف نسمة منهم ٣٦٠ ألف نسمة من الضفة ونحو ٤٨ ألفاً من قطاع غزة، ونتيجة لسوء الأوضاع التي سادت الأراضي المحتلة، فقد ارتفع عدد الذين قدموا الى الأردن حتى عام ١٩٧٦ الى ٤٢٨٦٩ منهم ١٦٧٢١١ لاجئاً وحوالي ٢٣١٣٨١ نازحا[٣٥].

وكان من أهم الأسباب التي دفعت السكان الفلسطينيين للهجرة:الضغوط التي مارستها سلطات الاحتلال الإسرائيلي ,والهادفة الى تفريغ الأرض من أصحابها. وكذلك ضآلة فرص العمل في الضفة الفلسطينية، وتوفرها في الأردن، نتيجة التركيز الصناعي والتجاري، وما تمنحه وكالة الغوث للاجئين وعليه شكلت الضفة الغربية الفلسطينية منطقة الطرد البشري والأردن منطقة الجذب البشري، ونتيجة لذلك فقدت الضفة الفلسطينية جزءاً كبيراً من عوامل معدلات النمو السكاني من خلال التهجير الكبير للسكان بصورة مباشرة وغير مباشرة[٣٦].

وأشارت معطيات الجهاز الإحصائي الفلسطيني في رام الله الى ان مجموع الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع بلغ عشية انتفاضة الأقصى في ٢٠٠٠/٩/٢٨ نحو ٣,٢ مليون فلسطيني، ارتفع الى ٣,٧ مليون فلسطيني في عام ٢٠٠١، ويصل المجموع تبعاً لمعدل النمو السكاني الى ٣,٩٨ مليون بحلول عام ٢٠٠٥، ثم الى ٤,٩ مليون نسمة عام ٢٠١٠[٣٧].

في تقديرات الجهاز المركزي للإحصاء في رام الله ان عدد الفلسطينيين المقدر في العالم في نهاية العام ٢٠٠٠ قد بلغ ٩,٣ ملايين نسمة منهم ٣,٦ ملايين في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧[٣٨]. ويعيش ٢,٣ مليون في الضفة الغربية

ويمثلون ما نسبته ٦٣,٥٪ من سكان الداخل و ١,٣ مليون في قطاع غزة أي ما نسبته٣٦,٥٪. يضاف الى هؤلاء أيضاً مليون فلسطيني داخل حدود الخط الأخضر.

وكان الجهاز أصدر تقريراً بتاريخ ٢٠٠٣/١/٨ عن الفلسطينيين في نهاية العام ٢٠٠٢، استندت بياناته الى مصادر مختلفة ,منها مسوح ميدانية وتعدادات وتقارير هيئات دولية ومراكز ومؤسسات خاصة تعنى بقضايا الفلسطينيين، والى بعض المنظمات الدولية التي تهتم باللاجئين في العالم.

وجاء في التقرير ان عدد السكان في الأراضي الفلسطينية يحتاج إلى ١٩ سنة ليتضاعف ,بينما يحتاج عدد السكان الفلسطينيين داخل إسرائيل الى ٢١ سنة لتحقيق ذلك.

وتفيد البيانات المتوافرة عن الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية في نهاية عام ٢٠٠٢ ان نسبة الأفراد دون الخامسة عشرة من العمر هي ٤٦,٤٪ ونسبة الذين تبلغ أعمارهم ٦٥ سنة فما فوق هي ٣,١٪. وبلغ متوسط حجم الأسرة الفلسطينية عام ٢٠٠٠ ما قيمته ٦,١ أفراد.

وأظهرت البيانات أيضاً بشأن الفلسطينيين المقيمين في إسرائيل لعام ٢٠٠١ انه مجتمع فتي، اذ بلغت نسبة الأفراد دون الخامسة عشرة من العمر ٤١,٢٪ ونسبة الذين تبلغ أعمارهم ٦٥ سنة فما فوق ٣,٥٪ وبلغ متوسط حجم الأسرة الفلسطينية ٤,٨ أفراد[٣٩].

وجاء في تقرير نشرته صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية[٤٠] على أبواب العام ٢٠٠٣ أن عدد سكان إسرائيل يقدّر بنحو ٦,٦ ملايين نسمة. وتبلغ نسبة السكان اليهود (المسجلين كيهود بحسب الديانة في سجل السكان) نحو ٧٥,٦٪ وثمة نحو ٣,٥٪ من المهاجرين غير المسجلين كيهود في سجل السكان مع أولادهم، بينما تبلغ نسبة العرب ما يقرب من ٢٠٪. وتعتمد هذه المعطيات على تقديرات سكانية مؤقتة لنهاية العام ٢٠٠٢ بقيمة ١٢٧ ألف نسمة أي ما يشكل تزايدا بنسبة ١,٩٪، مقارنة بعدد السكان في العام الذي سبقه.

ويشار الى أن العامل الأساسي في بطء وتيرة التزايد السكاني هو الانخفاض الذي طرأ على عدد المهاجرين إلى إسرائيل. فقد شكل ميزان الهجرة في عام ٢٠٠٢ قرابة ٢٣٪ من مجموع التزايد السكاني مقابل نسبة ٢٩٪ في العام الذي

سبقه.

وقد وصل الى إسرائيل عام ٢٠٠٢ ما يربو على ٣٤ ألف مهاجر ,مقابل ٤٤ ألف مهاجر في العام ٢٠٠١.

مأزق الديموغرفيا والتنمية والبشرية

لقد أدرك الإسرائيليون إزاء المعطيات الديموغرافية آنفة الذكر، والتي لا تعمل لصالحهم مع مرور الوقت، حجم المخاطر التي تهدد أمنهم القومي في دولتهم اليهودية التي يحاولون إعطاءها عبثاً صفة الدولة الديمقراطية التي من المفترض ان تكون لجميع مواطنيها. وفجأة وجدوا أنفسهم أمام معضلة بالغة التعقيد عندما أدركوا انه من المستحيل عليهم ان يكونوا ديموقراطيين وفي الوقت نفسه يحتلون أراض شاسعة مأهولة بهذه الكثافة السكانية.

وكان لا بدّ من إيجاد رد على هذا التحدي. هنا طرحت فكرة ارتكاب المجازر الجماعية لإحداث حركة هجرة وفرار من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧. مثلما طرحت أفكار الترانسفير والترحيل الطوعي أو بالا كراه. وفي هذا السياق شن الإسرائيليون على المجتمع المدني الفلسطيني "حرب تنمية" بالغة الضراوة. وفرض الإسرائيليون حصاراً كاملاً لا ينقطع على الضفة و القطاع وعملوا على تدمير كل ما بنته حكومة رابين منذ العام ١٩٩٣ من بنى تحتية لحكم ذاتي قائم على أساس اتفاقيات أوسلو. وهكذا رسمت وطبقت السياسات الاقتصادية الجائرة والقاتلة إزاء الاقتصاد الفلسطيني من أجل تفكيكه واعادة هيكلته لصالح الاقتصاد الإسرائيلي. وأكد المنسق الخاص للأمم المتحدة بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/٥ أن هناك أكثر من ٢٦٠ ألف شخص في الأراضي الفلسطينية يعانون البطالة ,أي ما يشكل ٤٠٪ من إجمالي قوة العمل الفلسطينية في عام ٢٠٠٠. وقدّر مساعد الامين العام للامم المتحدة تري رود لارسن بأن أكثر من مليون فلسطيني يعانون من خسائر حادة في مداخيلهم ,وهو ما يقارب ثلث الشعب الفلسطيني، وقال: إن التقدّم الذي تمّ تحقيقه خلال السنوات الثلاث الماضية، قد جرى تدميره خلال شهرين من الصراع ,وأعرب عن قلقه من ارتفاع نسبة الفقر التي تصل بين الفلسطينيين في الضفة والقطاع الى ٣٢٪ حسب إحصاءات البنك الدولي، مؤكداً ان نصف الفلسطينيين يعيشون بأقل من ٢,١٠ دولار أميركي في

اليوم. ولفت الى ان خسائر الاقتصاد الفلسطيني زادت عن ٥٠٠ مليون دولار في الستين يوماً الأولى من الأزمة فقط. وحذر لارسن إسرائيل من نتائج إغلاق الحدود مع الفلسطينيين لأن البطالة والفقر ينتجان الإستفزاز[٤١].

ونتيجة السياسات الاحتلالية أثناء فترة الانتفاضة الأخيرة (انتفاضة الأقصى) قدر مكتب الإحصاء الفلسطيني في دمشق خسائر الاقتصاد الفلسطيني خلال العام الأول من الانتفاضة بنحو ٦ مليارات دولار أميركي وارتفعت نسبة الذين يعانون من الفقر الى ٤٥,٥٪ من اجمالي السكان الفلسطينيين في الضفة والقطاع، وقدّر الجهاز الإحصائي الفلسطيني في رام الله خسائر الاقتصاد الفلسطيني يومياً بنحو ٨,٤ مليون دولار.

ومع أشهر الانتفاضة التي جاءت رداً على الاحتلال وسياساته الاستيطانية والاقتصادية واجه المجتمع الفلسطيني أزمات مستعصية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي خصوصاً في ظل غياب الدعم العربي الذي لم يرقَ الى حجم التحدي الحاصل في المواجهة العنيفة ما بين المجتمع الفلسطيني والجيش الإسرائيلي الرسمي وجيش المستوطنين المدججين بمختلف أنواع الأسلحة، ما تسبب بتصعيد الأزمات المعيشية والأمنية والاجتماعية في صفوف الفلسطينيين ولا سيّما مع سقوط أعداد كبيرة من الشهداء والجرحى والمعوقين مما يزيد من أعباء الإعالة في ظل غياب معيل الأسرة وغياب أعداد كبيرة من قوة العمل الفلسطينية، الأمر الذي يهيئ الأسباب والظروف الملائمة لعمليات الترحيل الطوعية والقسرية معاً.

والجدير بالذكر ان تقارير التنمية البشرية الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي خلال الفترة ما بين ١٩٩٠-٢٠٠٢ تخلو من أي إشارة الى اتجاهات التنمية البشرية في الضفة والقطاع حيث أثّرت الإجراءات الإسرائيلية المبرمجة سلباً في المؤشرات ذات الدلالة على التنمية المذكورة. فمنذ عام ١٩٦٧ كانت سلطات الاحتلال الإسرائيلية قد عمدت الى اتخاذ إجراءات تعسفية على صعيد الاستيطان والتدابير الأمنية الاحترازية، أدت في نهاية المطاف الى تغيير انطلاقة مستقلة بما فيها التنمية البشرية التي أصبحت معياراً لتطور الأمم والشعوب. والسنوات المقبلة مرشحة لأن تشهد المزيد من التخلف والحصار بوجه التنمية البشرية الفلسطينية حيث نجد أنه بالإضافة الى استشهاد أكثر ممن ١٨٠٠

فلسطيني وجرح نحو ٣٦ ألفاً، كانت خسائر الاقتصاد الفلسطيني أيضاً كبيرة وقدّرت بنحو ٧,٥ مليار دولار بحيث تراجع الاقتصاد الفلسطيني وبات يعمل بنحو ٢٪ من قدراته. ونتيجة ذلك تراجع دخل الفرد الى أقل من ٦٥٠ دولاراً في السنة في نهاية العام ٢٠٠٢ مقابل أكثر من ١٧٠٠ دولاراً عشية انطلاقة انتفاضة الأقصى في نهاية ايلول ٢٠٠٠. ومع تراكم معدلات البطالة التي فاقت ٦٥٪ من حجم القوة العاملة ووصول معدلات الفقر الى نحو ٦٠٪ من المجتمع الفلسطيني بسبب الإجراءات الإسرائيلية من إغلاق وتدمير للبنى التحتية ,لا بدّ أن يزداد الوضع سوءاً خصوصاً مع ازدياد السكان وتراجع الناتج المحلي وتراجع الخدمات الصحية وارتفاع كلفة المعالجة ,ما يضع التنمية الاجتماعية الفلسطينية في حالة تدهور مستمر. والأخطر من ذلك انه نتيجة المعازل والحواجز الإسرائيلية التي قسمت الضفة الى ٦٤ معزلاً والقطاع الى ثلاثة معازل ,فقد حصل تدهور كبير في الأوضاع الصحية و الدراسية للشبان والأطفال الفلسطينيين.

وعلى ضوء ما تقدم من مؤشرات خطيرة على صعيد الصراع الكمي والنوعي بين الديموغرافيا الفلسطينية والديموغرافيا اليهودية يمكن تعداد الاستهدافات الصهيونية الحالية لجهة حماية عناصر ومقومات الأمن القومي الإسرائيلي على حساب عناصر ومقومات الأمن القومي الفلسطيني على الوجه التالي:

١- السيطرة اليهودية على موارد الأرض الفلسطينية والمياه والموارد الطبيعية فيها.

٢- تقطيع التواصل والاتصال الحيزي (الجغرافي) والعمراني والقروي الفلسطيني وشرذمته الى وحدات تتصل بواسطة حيز مكاني تسيطر عليه المستعمرات.

٣- تكوين أطر ونظم إدارية وبلدية، مزدوجة وثنائية، للنظم الفلسطينية الأمر الذي يسبب ازدواجية إدارية، وذلك في مقابل إحالة النظم والقوانين الإدارية الإسرائيلية على جزء من الأراضي الفلسطينية.

٤- تخطيط وتنفيذ بنى تحتية مرتبطة بإسرائيل، ومنع الفلسطينيين من السيطرة على هذه البنى بهدف استغلالهم.

٥- تعميق تبعية المجتمع الفلسطيني، وخصوصاً القروي، من خلال توفير فرص العمل في قطاع البناء والعمالة الرخيصة والصناعة التي تطورت في

المستعمرات ,وبذلك تلحق اقتصاد هذه القرى بالمستعمرات الأمر الذي يحول دون استقلالها الاقتصادي.

هذه الإستراتيجيات التي تشمل النواحي الحيزية المكانية والإدارية والاقتصادية تؤدي الى تقليص فرص الحراك التنموي الفلسطيني لاسيما وان مفهوم إسرائيل للصراع بشأن الأرض مع الفلسطينيين بعد اتفاق أوسلو هو ان هناك أرضاً متنازعاً عليها ما بين سلطتين، لا أراض محتلة كما كانت عليه الحال قبل الاتفاق، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم التكافؤ بين السلطتين[٤٢].

وبنتيجة هذه المعادلة غير المتكافئة لأوضاع الفريقين المتصارعين يمكن ملاحظة الاعتبارات السلبية التالية التي تطال المجتمع الفلسطيني تنموياً وديموغرافيا على حد سواء:

١) ان النمو الاستيطاني والديموغرافي الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ من شأنه ان يقلص الموارد التي يمكن ان تشكل رافعة للتنمية البشرية الفلسطينية (الأرض بما فيها من مياه وخيرات، والتنمية والتواصل الجغرافي) الأمر الذي يحول دون تحقيق تواصل عمراني وبيئي فلسطيني يأخذ بعين الاعتبار المصلحة والأهداف القومية الفلسطينية.

٢) ازدواجيات إدارية ومؤسساتية (فلسطينية إسرائيلية) في الحيز الجغرافي نفسه يكون من الصعب، ان لم يكن من المستحيل، التنسيق بينها ,والتعاون في واقع يشعر المستوطنون اليهود فيه بالفوقية، وأنهم مسيطرون على موارد وأسباب القوة من خلال دولة إسرائيل وذراعها الضاربة الجيش الإسرائيلي.

٣) تهديد الأمن الشخصي والعام للفلسطيني، بنتيجة التناقض بين المصالح الفلسطينية ومصالح الاحتلال ومستعمراته، الأمر الذي يؤدي بدوره الى اعتداء المستوطنين على المدنيين الفلسطينيين وتنغيص حياتهم ومعيشتهم.

٤) إهدار الموارد المتوفرة في الأراضي الفلسطينية ونقلها الى إسرائيل من خلال المستعمرات وتحجيم فرص التطوير الاجتماعي والاقتصادي الفلسطيني.

٥) تقليص الاستقرار والشعور بالأمن داخل المجتمع الفلسطيني الذي لا يشعر بالأمان مادام الاستقرار مهدداً بتوسيع الاستيطان وتقطيعه له، وهو ما يجعل أولويات المجتمع الفلسطيني مركزة على عملية المواجهة السياسية والعسكرية لا على عملية التنمية، خصوصاً وان أية عملية تنموية تتطلب استقراراً سياسياً

واجتماعياً ونفسياً للمجتمع بأسره ولأفراده.

٦) ازدواجيات مؤسساتية وخدماتية فلسطينية، نظراً الى عدم التواصل الحيزي المكاني والتكافل الفلسطيني الأمر الذي يؤدي بدوره الى إهدار موارد كثيرة، وقيام علاقات شائكة تعوق عملية التنمية مستقبلاً.

٧) سيطرة إسرائيل والمستوطنين على الطرق والمعابر، التي تربط بين المناطق الفلسطينية والضفة الفلسطينية وقطاع غزة والدول العربية وغيرها من الدول. وهذه السيطرة تؤدي بدورها الى ضبط ومراقبة انتقال البضائع والتسويق وحتى إقامة المؤسسات وامدادها بالحاجات التي تساهم في انطلاقها وتنميتها. وهذا يعني ان السيطرة تؤدي الى استمرار اعتماد الاقتصاد والتنمية الفلسطينيين على إسرائيل وتبعيتهما لها بحجة المستعمرات وحمايتها وتوفير احتياجاتها الأمنية والمادية[٤٣].

إسرائيل في معطياتها الديموغرافية والأمنية

لما كان الهدف المركزي للمشروع الصهيوني هو إقامة الدولة اليهودية "النقية"، انطلاقاً من مقولة "الوطن القومي يحل المشكلة القومية" القائمة على الوعي الذاتي في النظر الى ان اليهود في العالم يشكلون قومية، فان "الدولة القومية" لم يكن لها ان تقوم إلا بالإستيطان الذي لابد من ان يكون إجلائياً، أي ان يقيم الصلة الجديدة بالأرض المنوي استيطانها عبر قطع العلاقة القائمة بينها وبين سكانها الأصليين. وبناءً عليه فلكي تصبح أرض فلسطين، "قاعدة آمنة" للمشروع الصهيوني، لابد من تهويدها كاملةً أرضاً وشعباً. وهذا يعني ان أمن إسرائيل القومي الاستراتيجي على هذا الصعيد، يتطلب نجاحه في هذه المهمة (تهويد فلسطين)، تغييب سكانها الأصليين وإحلال مستوطنين يهوداً او أشباه يهود مكانهم بكثافة كبيرة.

لقد كان تعداد السكان عشية إعلان دولة إسرائيل في أيار ١٩٤٨ كما يلي: ٥٥ ألف يهودي و١٥٦ ألف عربي[٤٤]. وبسبب تزايد نسبة العرب قياساً الى نسبة اليهود، وحسب تصورات القادة الإسرائيليين ومساعيهم لتهويد الأرض والسكان، ساور مراكز التخطيط الإسرائيلية القلق. ففي العام ١٩٧٠ بلغ عدد السكان ٣,٠٢٢,١٠٠ نسمة منهم ٢,٥٨٢,٠٠٠ يهودي و٤٠٠,٠٠٠ عربي (داخل حدود

الدولة ١٩٤٨) من دون سكان القدس الشرقية"[٤٥]. فبحثت إسرائيل في حينه ما سمي "حل المشكلة الديموغرافية" ،ومن أبرز الوثائق التي حملت مقترحات التخلص من هذه المشكلة، مذكرة يسرائيل كينيغ. وجاءت فيها الإشارة الى ان "واقع لواء الشمال، حيث تعيش أكثرية عرب إسرائيل، وموقعه الجغرافي، ووضع السكان اليهود فيه، يبرز المشاكل التي نشأت حديثاً، وما قد ينجم عنها على المدى القريب والبعيد... فالطمأنينة الاجتماعية والاقتصادية تمنحهم (العرب) من حيث يدرون أو لا يدرون متسعاً من الوقت للتفكير في أمور اجتماعية وقومية"[٤٦]. وأرفق كينيغ مذكرته بالمقترحات التي تبرز وجهاً عنصرياً في السعي لإكراه العرب على مغادرة أراضيهم، أو إغراقهم في مشكلات العيش الصعب والمرير حتى لا يواكبوا قضاياهم الوطنية والقومية.

ومنذ السنوات الأولى، من إعلان الدولة، تركزت الإجراءات وسنّت القوانين، في سبيل التهويد، فقامت إسرائيل " بنزع ملكية وحقوق العرب الذين غادروا وأصبحوا لاجئين. وقلصت ملكية وحقوق العرب الذين بقوا تحت الحكم الإسرائيلي. ومن أهم القوانين التي صدرت كما سبق وأشرنا قانون العودة لعام ١٩٥٠ (بخصوص هجرة اليهود الى فلسطين وتمتعهم بحقوق كاملة)، وقانون أملاك الغائبين لعام ١٩٥٠ ايضاً (بخصوص الأراضي العربية والمنازل والممتلكات التي غاب أصحابها عنها)، وقانون أملاك الدولة لعام ١٩٥٠ كذلك وقانون الجنسية لعام ١٩٥٢ وقانون استغلال الأراضي لعام ١٩٥٣"[٤٧].

وقد واجهت إسرائيل مشكلة جديدة بعد احتلالها الضفة الغربية وقطاع غزة في حرب عام ١٩٦٧. فإضافة الى مشكلة الجليل الديموغرافية، ادخل الاحتلال كتلة بشرية كبيرة، فأصبحت رقعة الأرض التي تسيطر عليها الدولة تحتوي على عدد من العرب يهدد مبدأ "يهودية الدولة". وكان الأمل معقوداً على هجرة كبيرة من يهود العالم الى إسرائيل بعد تلك الحرب، الا ان ذلك لم يتحقق كما هو مطلوب، ولم تحقق عملية الاستيطان البشري تناسباً مع الرقعة الجغرافية المحتلة. وتعويضاً عن ذلك، ومن أجل الاحتفاظ بالأرض، تحركت الآلة العسكرية بكل شراستها ووحشيتها لإغلاق الفراغ الحاصل. ومثلما كان الجيش عام ١٩٤٨ أداة إنشاء الدولة "فهو أصبح منذ العام ١٩٤٨ وما بعده أداة توسّع هذه الدولة"[٤٨].

وفي سبيل التخلص من عبء الديموغرافيا الفلسطينية بتبعاتها الأمنية والجغرافية، اعتمدت إسرائيل سياسة الجسور المفتوحة مع الأردن، التي تهدف الى إنجاز حركة استنزاف ديموغرافية -اقتصادية. وتضمنت تلك التسهيلات إجراءات متشددة تعطل عودة الفلسطينيين المغادرين. أما تخطيطها الاستيطاني، فبسبب ضعفه العددي، كان يركز توزيعه في كتل او أطواق لخدمة استراتيجية "الفصل" بين الفلسطينيين و"الوصل" الاستيطاني اليهودي[٤٩].

وتجدر الإشارة هنا الى ان إسرائيل قد طرحت بعد حرب عام ١٩٦٧ مشروعاً يعرف باسم "مشروع آلون" من أجل التسوية في الضفة والقطاع، وهو يهدف الى تخفيف العبء الديموغرافي ويركز في جوهره على مقولة "أكبر مساحة ممكنة من الأرض مع أقل عدد ممكن من السكان العرب". ولكن التناقض بين التيارين الصهيونيين في إسرائيل اللذين ينادي أحدهما بـ "يهودية الدولة" والآخر بـ "ارض إسرائيل الكاملة" عرقل اتخاذ القرار المفضي الى حل سياسي للاحتلال.

وكان الليكود على رأس اليمين الصهيوني قد اعتقد انه من خلال غزوه للبنان عام ١٩٨٢ سيحقق هدفه القومي في تغييب الفلسطينيين سياسياً من المعادلات ومن حلبة الصراع، وبذلك يضمن على الأقل انكفاء الحضور الرمزي والاعتباري للديموغرافيا الفلسطينية بصفتها تشكّل شعباً له حقوق على أرضه. الا ان الفترة منذ العام ١٩٨٧ وحتى اليوم، شهدت تطوراً نوعياً حدّد أمن إسرائيل بالذات داخل الخط الأخضر، وتمثل في الانتفاضتين اللتين أثبتتا بهتان الزعم الإسرائيلي بان فلسطين هي "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

والآن وبعد أكثر من مائة عام "لم تنجح الصهيونية في تجميع أكثرية يهود العالم في فلسطين. وبهذا يمكن القول ان المؤسسات الصهيونية قد فشلت في أداء دورها كما كان متوقعاً منها في إطار العمل الصهيوني العام"[٥٠].

وإذ بدت هجرة يهود الاتحاد السوفياتي السابق إنقاذاً لتدهور الهجرة اليهودية، فان أزمات داخلية نشأت عنها، مما دفع الى التحذير من عدم وجود تخطيط شامل لهذه المهمة حتى الآن في مجال السكن والأشغال، وقد اعتبر ذلك من الدلائل التي لا تبشر باستيعاب ناجح لليهود السوفيات. كما كشفت دراسة أعدتها دائرة الإنعاش في الهستدروت ان ٥٠٪ من المهاجرين الجدد حصلوا على أعمال في إسرائيل أدنى من مستوى الأعمال التي كانوا يقومون بها[٥١].

خلاصة القول ان الأمن الإسرائيلي داخل رقعة الدولة وفي رقعة الاحتلال، بات يشكل هاجساً حقيقياً وعميقاً لقادة إسرائيل، مصدره الخلل الواضح في التركيبة الديموغرافية ,وبالتالي في آليات تطور المشروع الصهيوني نحو "الدولة اليهودية" ضمن إطار ما يسمى "ارض إسرائيل الكاملة". ومن تداعيات هذا الخلل تبرز حقيقة المساعي المتناقضة للخروج من المأزق او التخفيف من احتدامه، وهي تتمثل بنوع خاص في برامج التسوية التي تطرحها أطراف المؤسسة السياسية والعسكرية صاحبة القرار في إسرائيل. وفي هذا السياق جاء مصرع اسحق رابين، وتهاوي الحكومات الإسرائيلية ذات العمر القصير تباعاً الواحدة تلو الأخرى مع رؤسائها من شامير الى شارون مروراً ببيريس ونتنياهو وباراك.

خلاصة واستنتاجات

تبين على ضوء ما تقدم، ان تهويد فلسطين، من البحر الى النهر، في الواقع الموضوعي، كان يستلزم مسارين متواكبين ومتكاملين: تهجير أعداد كبيرة من اليهود وتوطينهم فيها، وفي المقابل، تغييب شعبها عنها، بصورة او بأخرى. إلا ان مقاومة الشعب الفلسطيني للاستيطان اليهودي جعلت منهما مسارين متناقضين، الأمر الذي عرقل المشروع الصهيوني ومنعه من التطور بوتائر متسارعة كما كان يتمنى ارباب المشروع التوسعي الاكبر، وبالتالي تسبب في خلق أزمة استراتيجية ذات أبعاد قومية تمثلت بنوع خاص في استحالة تهويد فلسطين، طالما كان شعبها حاضراً، عسكرياً وثقافياً وسياسياً. والذي حصل هو أنه كلما حققت الصهيونية نقلة في بناء مشروعها الاستيطاني، عبر هجرة يهودية جديدة، أدى ذلك الى تصعيد ردة الفعل الفلسطينية، وبالتالي العربية، الأمر الذي انعكس بالضرورة سلباً على العمل الصهيوني في إطاره اليهودي القومي. وما من شك في ان المقاومة الفلسطينية بجميع أشكالها كانت عاملاً أساسيا في ردع وإحباط الهجرة اليهودية الى فلسطين حتى ولو بصورة نسبية، ولاسيما وأنها كانت سبباً فاعلاً في عملية نزوح المستوطنين الوافدين في حركة هجرة مضادة بالغة الأهمية. ولقد تبين بوضوح ان التزام القيادات الإسرائيلية عقائدياً وسياسياً بتهجير يهود العالم الى فلسطين وتوطينهم فيها، لم يقابله حماس جامح في أوساط المستوطنين القدامى لاستقبالهم واستيعابهم. وقد عبّر رئيس دائرة الاستيعاب في الوكالة

اليهودية، غيورا يوسفتال، عن ذلك في مقولة مشهورة: "ان إسرائيل تريد الهجرة، غير ان الإسرائيليين لا يريدون المهاجرين". وفي الواقع فان قطاعات واسعة، شعبية ورسمية، لم تكن ترغب في تدفق الهجرة الواسعة على البلد، وفضّل البعض ان تكون انتقائية، حسب مواصفات حاجة الدولة للطاقة البشرية. وقال رئيس الحكومة الأسبق ليفي اشكول "ان ارض إسرائيل صغيرة، ولا نستطيع ان نستقبل كل مهووسي يهود العالم". وتذمر آخرون أيضاً من استقدام المرضى والعجزة والمسنين والمشكوك في يهوديتهم ,الأمر الذي جعل نظرة الإسرائيليين الى المهاجرين الجدد شديدة التعقيد، ومشبعة بالتناقضات، ومشحونة بالعواطف، وطافحة بالأفكار المسبقة، مما أساء الى عوامل الوحدة الوطنية وشجع أكثر فأكثر عوامل التفكك والفرقة بين يهود اشكنازيين ويهود شرقيين ويهود من البيض وآخرين من السود ويهود متدينين وآخرين علمانيين، ويهود شوفينيين وآخرين يساريين ويهود أغنياء وآخرين فقراء وهكذا.

من هنا يتبين لنا ان الواقع الديموغرافي لم يكن هو الوحيد الذي قلب ظهر المجن لأصحاب فكرة "الأغلبية اليهودية في أرض إسرائيل" وجعل من النقاش في طابع وماهية هذه الأغلبية نقاشاً حول مستقبل أمن إسرائيل كدولة في الشرق الأوسط. فهناك الواقع السياسي المعقد داخل الكيان والناجم عن تشبث الإسرائيليين بأرض الميثولوجيا اليهودية وتبنيهم نهج اليمين في "محاورة" الفلسطينيين، الأمر الذي أدى الى انعدام فرص الحل في المدى القريب لاسيما ما يتعلق بقضايا لاجئي عام ١٩٤٨ والقدس والمستوطنات. وغياب أو تغييب مثل هذا الحل لم يفض إلا الى تقدم فكرة الفصل بين الشعبين اليهودي والعربي خصوصاً في أعقاب تزايد اعتماد الفلسطينيين على العمليات الاستشهادية في محاربة الاحتلال وتصاعد وتيرة المواجهات العسكرية.

في ضوء ما تقدم تجدر الإشارة الى المبادرة التي قام بها "المركز المتعدد المجالات" في هرتسيليا من أجل عقد مؤتمر دراسي سياسي بتطلعاته تحت عنوان "ميزان المناعة والأمن القومي" بمشاركة مجموعة كبيرة من الشخصيات السياسية والأمنية والأكاديمية (شارون، بيرس، باراك، نتينياهو، موفاز، وأفرايم هاليفي رئيس الموساد سابقاً). وقد أطلق البرفسور أرنون سوفير، أستاذ الجغرافيا في جامعة حيفا أثناء المؤتمر تحذيراته الساخرة من أن "الساعة الديموغرافية حول

إسرائيل تتسارع بوتيرة الفهد، بينما يتسارع اتخاذ القرارات القومية بوتيرة السلحفاة في أحسن الأحوال"[٥٢]، مضيفاً أن "بإمكان النزاع أن يتواصل، لكننا نتناقص مع المزولة (الساعة الرملية) الديموغرافية، لذلك يجب على إسرائيل اتخاذ قرار شجاع وصعب للغاية والمبادرة الى فصل أحادي الجانب".

لم يكن سوفير هو الوحيد الذي طرح فكرة الفصل، وبالإمكان القول ان تطور الواقع الديموغرافي السياسي في البلاد، خلافاً لتطلعات المشروع الصهيوني، قد عمّق المخاوف من الزحف العربي على الدولة اليهودية، بعد ان تبلورت مجموعات سكانية عربية فلسطينية في مناطق التماس بالتحديد، محولة بعض التجمعات السكنية اليهودية الى جزر صغيرة في محيط عربي كبير، تماماً كما هي عليه الحال اليوم بالنسبة للمستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا ناجم بالطبع عن سياسة زرع الاستيطان اليهودي في كل مكان، في الخليل كما في الجليل، بصورة تعسفية استفزازية، الى جانب غياب أفق سياسي للحل مع حكومة إسرائيلية يمينية بقيادة آرييل شارون مما يجعل الواقع الديموغرافي المركّب يشجع على فكرة الفصل التي اعتمدها شارون بصورة جزئية في الجدار الفاصل ويعتمدها زعيم حزب العمل الحالي عميرام متسناع كمشروع استراتيجي للحل تلافياً للتدهور والفوضى التي يمكن ان تنتشر في كل الاتجاهات.

ومن المؤكد أن "الآباء المؤسسين" للصهيونية لم يحلموا بواقع فوضوي مختلط كهذا .وهناك شهادات ووثائق تدل على أنهم حرصوا كثيراً على تجنّبه. فقبل نصف قرن امتنع دافيد بن غوريون، مؤسس الدولة اليهودية، عن ضم العرب الفلسطينيين المتبقين في وطنهم بعد عمليات الترحيل في السنوات ١٩٤٨-١٩٤٩ خشية حصول دمج بين مناطق الدولة اليهودية والتجمعات العربية الكبيرة. ويشير الأستاذ الجامعي دان تشفتين في كتابه "حتمية الفصل" الصادر عن جامعة حيفا عام ١٩٩٩ الى أن بن غوريون في أواخر ما يسمى "حرب الاستقلال" امتنع عن احتلال "البلاد كلها مع أن القوة العسكرية كانت تسمح بذلك. وقد دل هذا القرار التاريخي على الأهمية التي أولاها لتجنب نهش ما لا يمكن ابتلاعه، ومدى الخطورة الكامنة في تجربة ابتلاع ما لا يمكن هضمه من الأساس". وفي نظرة الى الوراء، يبدو أن عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ قد فتح شهية حكومة إسرائيل برئاسة ليفي أشكول على الإبتلاع، مما جعلها تحصل على أكثر من

مليوني فلسطيني إضافي في ما يسمى "أرض إسرائيل الغربية" وهذا كان في خطوة تمرد سافر على رغبة أولئك "الآباء" المؤسسين، مما أوقع الجميع في المأزق السياسي الأمني الدامي ,المتوالية وقائعه وأحداثه الجسيمة والمأساوية يومياً في حرب وجود مفتوحة على أخطر الإحتمالات ,ليس فقط على مستوى العلاقات الفلسطينية _الإسرائيلية بل أيضاً على مستوى محنة الحسم الجيوسياسي التاريخي في المنطقة كلها.

المصادر:

١- فلسطين تاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ص١٣٣.
٢- المصدر نفسه ص ١٣٥.
٣- أحمد السيد النعماني، التركيب الاجتماعي للمجتمع الإسرائيلي وأثره على الشق السياسي ١٩٤٨1975_، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة،١٩٨٠ ص ٨١ و٨٢.
4- Gilbert, M, the arab israeli conflict: its history in maps (writen feld and nicolson, london, fifth edition) p.136.
٥- عبد الفتاح محمد ماضي، الدين والسياسة في إسرائيل، مكتبة مدبولي ١٩٩٩ ص ٢٥.
٦- انظر معين حداد "الشرق الأوسط" دراسة جيوبوليتيكية، قضايا الأرض والنفط والمياه شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت ١٩٩٦.
٧- معين حداد، أرض لا تهدأ، الرهانات الجيوبوليتيكية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ص ٢٦.
٨- المصدر السابق ص ٢٧.
9- Michel fouchet :israel-palestine quelles frontieres - herodot no:29-30 paris .1983
١٠- معين حداد أرض لا تهدأ، مصدر سابق ص ٢٨.
١١- مجلة الأرض، دمشق، العدد الرابع نيسان ٢٠٠٢ ص ١٠ وما بعدها.
١٢- مجلة الأرض، العدد الرابع مصدر سابق ص ١٣.
١٣- مجلة الدراسات الفلسطينية، صيف ١٩٩١، العدد ٧ ص ٢٢١-٢٢٢.
١٤- انظر نور الدين مصالحة، أرض أكثر وعرب أقل، سياسة الترانسفير الإسرائيلية في التطبيق ١٨٤٩-١٩٩٦، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٩٧.
١٥- دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثالثة ١٩٩٧ ص ٣٩.
١٦- مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد الثاني، بيروت ربيع ١٩٩٠ ص ١٨ وانظر أيضاً مجلة الفكر الاستراتيجي العربي العدد ٣٤ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٠ ص ٢١٣.
١٧- انظر أيضاً د. صالح زهر الدين، مشروع إسرائيل الكبرى بين الديموغرفيا والنفط، المركز العربي للأبحاث و التوثيق ص ١٥ و ١٦.
١٨- عبد الحليم قنديل، مقال بعنوان: الأمن العرب و الحرب الإسرائيلية المقبلة، مجلة الشاهد العدد ٥٩-٦٠ تموز / آب ?يوليو- أغسطس ١٩٩٠ ص ١٩.
١٩- مجلة الدراسات الفلسطينية العدد الأول، بيروت شتاء ١٩٩٠ ص ١١٧ ومجلة الفكر الاستراتيجي العربي العدد ٣٣ تموز / يوليو ١٩٩٠ ص ١٩٣.
٢٠- المصدر نفسه ص ١٣١-١٣٢.
٢١- هآرتس ٨ /٣ /١٩٩٠.
٢٢- مجلة الشاهد العدد ٥٩-٦٠ تموز-آب ١٩٩٠ ص ١٨.
٢٣- مذكرات دافيد بن غوريون المجلة الرابع ص ٢٩٩.
٢٤- هآرتس ١٧ /٨ / ١٩٨٨ ومجلة الدراسات الفلسطينية العدد الأول شتاء ١٩٩٠ ص ١٣٦.
٢٥- عبد الحليم قنديل، مجلة الشاهد العدد ٥٩-٦٠، ١٩٩٠ ص ٢٢.
٢٦- نور الدين مصالحة "طرد الفلسطينيين" مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٢ ص ٢٥ وانظر أيضاً ٥٣و٥٥.
٢٧- مذكرات بن غوريون، تل أبيب عام عوفيد ١٩٧١-١٩٧٢ المجلد الثالث ص ١٦١.
٢٨- انظر زانغويل.
٢٩- نور الدين مصالحة، مصدر سابق ص ١٩.

٣٠- المرجع نفسه.
٣١- د. صالح زهر الدين، مشروع إسرائيل الكبرى، مصدر سابق ص ٩٠.
٣٢- د. معين حداد، أرض لا تهدأ، مصدر سابق ص ٣٢.
٣٣- المصدر نفسه.
34- Alain,Gersh_dominique virlol, les cents portes de proche_orient.L?atelier paris 1996
٣٥- كتاب باحث للدراسات السنة الأولى العدد ١ ص ١٧٩.
٣٦- المصدر نفسه.
٣٧- لمزيد من التوسع انظر موقع الجهاز الإحصائي على الإنترنت موقعhttp\\www.pcbs.org
٣٨- صحيفة النهار ٩ /١/٢٠٠٣.
٣٩- المصدر نفسه.
٤٠- يديعوت أحرنو ٢٠٠٣/١/١.
٤١- صحيفة الوطن السعودية ٢٠٠٠/١٢/٦.
٤٢- مجلة الدراسات الفلسطينية شتاء ١٩٩٩ العدد ٣٧ ص ٥٦.
٤٣- المصدر السابق ص ٥٧ و٥٨ وانظر أيضاً كتاب باحث للدراسات العدد ١ السنة الأولى ص ١٨٩.
٤٤- محمود ميعاري دليل إسرائيل العام، ومرجع سابق ص ٥٠.
٤٥- المصدر السابق.
٤٦- يسرائيل كيينغ، مذكرة بشأن الخطر الديموغرافي الذي يمثله العرب في الجليل، شؤون فلسطينية العدد ٦٠ بيروت ص ١٦٧-١٨٤.
٤٧- أنيس شقور، النظام القانوني والنظام القضائي، دليل إسرائيل العام مرجع سابق ص ٥.
٤٨- علي الدين هلال، تكوين إسرائيل (القاهرة_دار الهلال ١٩٨٠) ص ١٣٥.
٤٩- خالد عايد، الوجود الاستيطاني في الأراضي المحتلة، دليل اسرائيل مرجع سابق ص ٣٣٧-٣٣٨.
٥٠- د. الياس شوفاني، التسوية المحطة (دمشق: دار النبرات للدراسات الفلسطينية ١٩٨٣. ص ٢ وانظر أيضا الياس شوفاني، إسرائيل في خمسين عاماً ج١ ص ٤٥٤ دار جفر للدراسات و النشر.
٥١- سمير جبور، الهجرة الجماعية ليهود الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية العدد ٢ بيروت ربيع ١٩٩٠ ص ٢١٤-٢١٥.
٥٢- إسرائيل: ديموغرفيا ٢٠٠٠-٢٠٢٠ مخاطر واحتمالات، أوراق إسرائيلية رقم ٧، بقلم أرنون سوفير ترجمة وتقديم محمد حمزة غنايم ص ٩.
مؤسسة بحثية حديثة العهد احتضنت مختلف الجنرالات المتقاعدين من الجيش والأجهزة الأمنية الإسرائيلية، وعدداً كبيراً من خبراء الصراع والأساتذة الجامعيين، وفي مقدمتهم آرنون سوفير وسرجيو دي لا فرغولا.

36- Keith Suter, Is Islam a threat to international peace and security? Contemporary Review, Vol.269,No.1571, December 1996,p.283.
37- Mahmood Monshipouri, The West's Modern Encounter with Islam: From Discourse to Reality., Journal of Church and State, Vol. 40, No.1, winter 1998, pp. 25-56, p.40.
38- Patrick Comerford, West needs to rethink attitudes to Islamic Civilizations, Irish Times, Dublin, May 11, 2002, pp.15-16.
39- Salman Rushdie,Anti-Americanism has taken the World by storm, The Guardian, Wednesday, February 6, 2002.
40- Al-Nahar, April 22, 2003, p. 6.

15- Salman Rushdie, Rushdie attacks paranoid Islam. New York Times, 2001, p. 25

16- Naom Chomsky, 9-11, New York: Seven Stories Press, 2001.
17- Mark Tessler, The US, the Middle East and Islam: Reflections on the Current Crisis, Department of Near Eastern Studies Symposium, University of Michigan, September 25,2001.
18- Joshua Muravchik, Hearts, minds, and the war against terror, Commentary, Vol.113, No.5, 2002, pp. 25-31.
19- CNN.com-poll. The Gallup Poll. Available: CNN.com-poll: Muslims call U.S. ruthless, arrogant, February 26, 2002.
20- www.zogby.com/features, The 10-Nation Impressions of America poll, April 11, 2002.
21- Tony Judt, America and War, New York Review, November 15, 2001.
22- Shibley Talhami, Understanding the challenge, The Middle East Journal, Vol.56, No.1, winter 2002, pp. 9-19.
23- Riad Z. Abdelkarim, Why do they hate us: the question that won't go away, Washington Report on International Affairs, Vol.21, No.2, March 2002, p.84.
24- Sheikh Farid El-Khazen, Al-Irhab Huwa Al-Itihad Al-Soviaty Al Jadid Li Amrica (Terrorism is The New Soviet Union For The US), part of the series The American Event: Reflections on The Islamic World, The Arab World and Lebanon, Al-Nahar, 26 September, 2001 p. 12
25- Assem Qansu,. Al-irhab fi amrica natijat inhiazha li israil) terrorism in America is the result of its bias for Israel). An-Nahar, September 17, 2001,p.5.
26- Mahmood Souaid, Al-Nahar, 25 September, 2001: 15.
27- Mustafa Kamel El-Sayed, To an American Friend, Al-Ahram Weekly Online, No.561, 22-28 November 2001.
28- Colin Powell, Powell Unveils Plan to Ease Anti-Americanism among Arabs, APS Diplomat Recorder, Vol.57, No.24.
29- John B. Judis, Some Mideast Realism Please: The War on Terrorism Hinges on Renewing the Peace Process, The American Prospect, Vol.13, No. 24, January 13 2003, pp. 9.
30- See Arthur Kent, Girding for a postwar Battle Installing a retired US general to run interim government would alienate the Arab World, MacLean's, April 14, 2003, p.30.
31- Al-Nahar, Sunday February 9, 2003.
32- Al-Nahar, Saturday April 12, 2003, p.13.
33- Tom Masland and Christopher Dickey, The Rage Next Time: While Americans See Victories in Iraq, Arab and Muslims see Mostly Victims, Newsweek, April 14, 2003, p.49.
34- Al-Nahar, April 22, 2003, p.6.
35- Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (Cambridge 1983).

Endnotes

1- In October 2002, a car bomb attack on the Indonesian holiday island of Bali killed more than 200 the majority of which were foreign tourists. A second bomb went off near the US consulate in Sanur, near Kuta.The Bali attacks were believed to be part of a pattern that included attacks a week before which killed a US marine in Kuwait and another attack on a French oil tanker. During March 2003, explosive attacks on American food outlets wounded several people in Lebanon and Egypt and the killing of an American nurse working as a missionary in South Lebanon. To date, Americans living in Beirut continue to receive several messages of warning from extremist Lebanese Islamic groups and some have fled the country after a terrorist network of Islamist militants was arrested and blamed for the crimes. The group confessed planning attacks against US embassy and other US interests in Lebanon.

2- John l. Allen jr., Antiwar Feeling remains Strong across the Globe: Pope Leads Catholic Voices Decrying Military Action in Iraq, National Catholic Reporter, Vol. 39, No.22, 2003, p.3.

3- A Symposium of Views, Why Does the World Hate America? The International Economy, Vol.17, No.1, Winter 2003,p.30.

4- Hilal Khashan, Roots and Causes of 11 September, Security Dialogue, Vol.33, No.1, March 2002; Meyrav Wurmser, Why Does The World Hate America?, The International Economy, Vol. 17, No.1, Winter 2003,p.27.

5- Hilal Khashan,The New World Order and the Tempo of Militant Islam British Journal of Middle Eastern Studies, Vol.24, N0.1, 1997,pp.5-24.5

6- Mahmoud Faksh, The Prospects of Islamic Fundamentalism in The Post-Gulf War Period, International Journal, Vol.109, No.2, spring 1994,p.186..

7- ibid., p.187

8- Ussama Makdessi, Arab hostility to America is a recent phenomenon, Al-Nahar, Tuesday, 22 November, 2002.

9- Al-Nahar Friday 31 January, 2003, p.13.

10- Nuber Hovsepian, Competing Identities in the Arab World, Journal of International Affairs, Vol. 49, No.1, p.7.

11- John L. Esposito, The Islamic Threat: Myth or Reality? (New York: Oxford Univ. Press, 1992), p.47.

12- An editorial in the September 11, 2001 of Al-Hayat Al-Jadida, a leading Palestinian newspaper, stated that suicide bombers in Israel were following the noble tradition set by those who bombed the U.S. Marine barracks in Beirut in 1983.

13- Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the remaking of world order. New York: Simon and Schuster, 1996.

14- PatrickK Hassner, Morally Objectionable, Politically Dangerous. The National Interest, Winter 1995, pp.63-69; William Pfaff, The Reality of Human Affairs. World Policy Journal, 14,1997, pp. 89-96.

centuries and the West's slow reaction to Christian violence against Muslims, i.e Serbian and Croatian massacres in Bosnia[36].

On the other hand, several writers draw our attention to the need for dialogue and a redirection in the United States foreign policy toward the Muslim world. Monshipouri deplored this reductionist vision in the United States that reduce the conflict with Arab states to its cultural component, he advised the US to craft a coherent policy approach towards the Arab/Muslim world that is sensitive to Islam if it intends to play an enduring role in the region's peace process. Treating Muslims as enemies in a new cold war would not promote such a role. [37] Comerford advised that real dialogue with the Islamic world is the only way of removing prejudice and fears of an imaginary threat[38].

The cycle of religiously inspired violence has punctuated the lives of Middle Easterners for more than three decades. It eventually spilled into Western Europe before hitting the U.S. with unimaginable ferocity. Bringing peace, stability and order to the Middle East is long due. If the problems of the region are not acted upon immediately, they may soon slip past the point of resolution. Since September 11 many writers have been imploring the U.S. to help resolve the region's outstanding problems and display magnanimity towards them. Fuller (2002) warned that "it will be a disaster for the United States, and another cruel chapter in the history of the Muslim World, if the war on terrorism fails to liberalize these battered societies and instead [continues] to exacerbate those very conditions that contribute to the virulent anti-Americanism of today. Salman Rushdie conceded that anti-US radicalism would not be undermined until a comprehensive and acceptable settlement is reached in the Middle East. However, even then anti-Americanism would not abate[39]."

Hassan Nassrullah, the general secretary of Hizbullah in Lebanon went further, days after the US-led coalition ousted Sadam's regime from Iraq, to assert: US intervention in Iraq will encourage Islamists to conduct retaliation attacks against US interestsÉthe continuation of this policy will turn all Muslims and Arabs to enemies of the US[40]. The achievement of genuine peace between Israel and the Palestinians and the instauration of democracy in a post Saddam Hussein Iraq would go a long way in improving Arab publics' perception of the U.S. and curtailing the surge of militant Islam's universal dimension.

Lebanon went further, days after the US-led coalition ousted Sadam's regime from Iraq, to assert: ÚS intervention in Iraq will encourage Islamists to conduct retaliation attacks against US interestsÉthe continuation of this policy will turn all Muslims and Arabs to enemies of the US[34].

Conclusion and Implications

Western fear of militant Islam is not new. Albert Hourani noticed the absence of militant tendencies in Islam:

Two strands of thought ... moved further apart from each other: ... those who stood fast on the Islamic bases of society, and ... moved closer to a kind of Muslim fundamentalism ... [and] those who continued to accept Islam as a body of principles or ... of sentiments, but held that life in society should be regulated by secular norms, of individual welfare or collective strength.... For most of ... this generation, the secular principle was [Ottoman, Egyptian, or Arab] nationalism[35].

However, he observed "The rage of Arabs and other Muslims continued to grow throughout the rest of the twentieth century, not because of any teachings of Islam as such but as a result of the forced domination of Muslims by Western nations, which increased with one nakba [defeat] after another."

In Hourani's phrase, the kind of Muslim fundamentalism that developed after 1920 was represented by Egypt's Muslim Brotherhood and the formative years of two guiding spirits of what would become the "Islamic resurgence: Sayyid Qutb and Mawlana Mawdudi", both of whom were to advocate external jihad and martyrdom, though few outside the Muslim world took them literally at the time.

Few decades after Hourani's assertion, most Arabs and Muslims continue to see radical Islam as a consequence of Western invasions of their territories, as well as a result of the excesses of unpopular political elites whom they installed in power against public will.

The media has bombarded us with generalizations that the Western-led U.S. is largely responsible for Arab and Muslim misfortunes. Sutter lists several reasons that account for the revival of Islam as a political force during this century, namely the permanence of deep-seated resentment at the West's violence to Islam over the

At present, the stated aim was to destroy weapons of mass destruction but no evidence of them was ever found. As such, many in the Arab world are suspicious about Washington real motives. As soon as the US troops entered Baghdad, Kent deplored the US plan to impose an Interim authority under the ultimate command of general Tommy Franks, led by a retired general Jay Garner who believes the US can project its power into the region by way of the Israeli state and military. He adds To many Arabs, this project smacks of arrogance and hegemony. By the same token, Mustapha Karkuti, an elected council member of Britain's Royal Institute of International Affairs, considers that this idea will catalyze reprisals against the Americans people in the region won't take this lying down. Certainly they will resist, they willl defend, and this US policy will end with tragedy throughout the Middle East[30].

In an opinion poll, Lebanese respondents considered that the real reasons behind the war on Iraq is to attempt to control oil fields (64%) and that the US will subsequently try to impose a peace deal in favor of Israel[31].Another poll by Information International found out that 94% of those interviewed disapprove of the US-led war on Iraq, believe that the war's final outcome will affect negatively the Iraqi people. The overwhelming majority endorsed retaliation attacks against US troops to force their retreat from Iraqi territories[32].

US occupation of Iraq and plans to instigate peace in the region appear to be dangerous. Islamists are calling for suicide attacks, and radicals of every stripe are competing to hijack the anger engendered by this war. In Beirut, Ayatollah Muhammad Hussein Fad Allah told Newsweek

This war has united the Islamic world from border to border against the United States if more massacres take place and if more occupation is seen, I fear that we will witness a wave of terrorism that no one will be able to control[33].

Even Egyptian president Husni Mubarak has warned of darker days to come this war will have horrible consequences instead of having one Bin Laden; we will have hundred Bin Laden.

The US needs to learn from the past. From Beirut in 1983 to the events of September 11 and their aftermath, the images of American casualties serve as a reminder for what the US is about to undertake. Sayyid Hassan Nassrullah, the general secretary of Hizbullah in

treatment for Israel[25] .Similarly, the director of the Beirut based Institute for Palestine Studies, Mahmood Souaid argues that US support for oppressive Arab regimes who lack democratic outlets promote the surge of Islamic extremism such as Osama bin Laden[26]. Sayed advised the US administration to adjust its policy in the area in order to appease popular resentment[27].

Acknowledging Arab negative perceptions of his country, US State Secretary Colin Powell announced an initiative aiming at improving the US poor image in Arab states by helping them build democracy and increase economic opportunities. However, Powell announced no change in fundamental policies cited by many Arabs as underlying their resentment such as the Israeli-Palestinian conflict, US pressure on Iraq, and other countries said to support terrorism[28].

VI-The Occupation of Iraq: A Catalyst of Militant Islam?

Long before the beginning of America's recent military campaign to liberate Iraq, replete with 'shock and awe', there were serious concerns that this war will radicalize Muslims and fuel anti-American sentiments already ignited in the Middle East. Many thought that Saddam will paint any attack on Iraq as a conflict pitting Islam against the West. Earlier this year, former American security Advisor, Brent Scowcroft argued that Saddam Hussein is seen as a brutal dictator oppressing his own people but not an immediate threat to the US or its neighbors. A nuclear-armed Iraq could menace its neighbors and the stability of world oil supplies but this could be met initially through resuming UN role and a decision to go to war should have the backing of a multinational force. There is a widespread sentiment that United Nation Security Council ought to be the principle arbiter of international security but an invasion without UN backing could transform Hussein into an Islamic martyr, Scowcroft warned. It is equally likely that after an interval of months or a year, Hussein overthrow would set off an explosion of radicalism and terrorism that would resound for decades to come[29].

Complicating matters the fact that justification for the assault on Iraq is not as clear as it was in 1991. At that time, the rationalization was to liberate Kuwait, which had been ravaged by Saddam's troops.

That interest derives from many factors: historical ties dating back to America's early support for the creation of the state of Israel in 1948, shared Judeo_Christian religious sensibilities, and common democratic values. Israel enjoys the strong and emotional support of a large segment of the American population. This support is more broadly based than the Jewish community, although this community's ties with the Jewish state are especially close. Israel's long_term security requires a stable peace with its Arab neighbors. The Arabs look with disaffection the continued American military and technological support that helps assure conventional Israeli security.

The Oslo Accords enabled Jordan to sign a peace treaty with Israel, led to negotiations between Israel and Syria, and emboldened Arab states in the Gulf and North Africa to forge closer ties with Israel. The deadlock in the peace process in the past year has halted further normalization of relations between Israel and the Arab world and has intensified opposition to normalization by the general Arab public and its intellectual elites, putting strains even on the peace agreements with Egypt and Jordan. There is no dearth of scholars who attempt to explain the causes of political terrorism to legitimate grievances, related to US policy, that contribute to Arab hatred. Shibley Telhami, professor of Peace and Development at the University of Maryland explains: ʻThere is legitimate anger and genuine despair in the Middle East, which provides fertile ground for terrorists to exploit, unless we address the root of this anger and despair, new terrorists exploiting public hopelessness could replace the ones we destroy(22). ʻAbdelkarim maintained that Muslim and Arab resentment grows exponentially when they look toward America's foreign policy stands that are perceived as anti-Muslim and anti-Arab namely US military support for Israel and failure to acknowledge Palestinian and Iraqi people sufferings(23).

A chorus of voices in the Arab world called on the US to redirect its foreign policy in the area. Sheikh Farid Elias El-Khazen remarked that US unconditional support to Israel, the on-going conflict between US and Iraq, and US stationing its troops in the Gulf, all of this has not only fostered a breeding ground for Arab disaffection with the US but provided a cause for fighting the US(24). ʻThis view is shared by a member in the Lebanese parliament who saw the attacks as ʻthe end product of a cumulative process of humiliating Arabs and preferential

neo-fundamentalist Islam was a contradiction of terms[15].

Within the context of these reactions therefore, Islam is portrayed as a primary security concern and Muslims frequently referred to as extremists, fanatics, terrorists, or fundamentalists, associating Islam as a religion with violence.

III-Arab Alienation and US Foreign Policy in the Aftermath of September 11

Many academics, observers and policymakers attributed the September 11 attacks to perceived anti-Americanism across the Arab world, which stems from Washington's foreign policy. Chomsky argued that terrorism needed to be understood as a response to and product of United States foreign policy[16]. Tessler readily acknowledges, "This sentiment, wherever present in the Arab world, is usually based on U.S. foreign policy toward Israel, toward Iraq, and above all perpetuation of the status quo[17]. In an opinion poll, Lebanese Muslims expressed an unfavorable opinion of the United States, with the vast majority of respondents believing that U.S. military action in Afghanistan was morally unjustified. Most of the people questioned said they thought the United States was aggressive and biased against Islamic values. Specifically, they cited bias against the Palestinians. The survey also found that respondents viewed American culture as a corrupting influence on their society[18]. The poll which included nine Muslim countries, contended itself with reporting that two-thirds of those interviewed expressed unfavorable opinion of the U.S. and that the September 11 attacks had no moral justification[19]. Similarly, a poll by Zogbi International limited itself to reporting that 86 percent of Lebanese it interviewed have negative impressions of U.S. policy toward Arab nations[20].

US role in the Arab-Israeli conflict is often cited as the leading issue that continues to breed anger among Arabs in the Middle East. American Historian Tony Judt sustains this reality:

In my reading of European and Near Eastern sentiment today, the Israel-Palestine conflict and America's association with Israel are the greatest single source of anti-American sentiment, crossing political, ideological and national boundaries[21].

Arabs know about America's interest in a secure and peaceful Israel.

hostage between 1984 and 1990 was sealed into the American mind. Faction of the Lebanese resistance carried out suicide attacks against Israeli forces in Lebanon. These attacks created the perception that these groups including Hizbullah, were the most compelling factor in Israel's withdrawal from southern Lebanon in May of 2000. Hizbullah's religious beliefs inspired other Islamist groups in Palestine, namely Hamas and Islamic Jihad.[12]

Outside the Lebanese realm, the 1991 Gulf War and US military presence in the region engendered a wave of anti-American terrorism inside and outside the United States. The litany of Islamic militant attacks against the U.S. included the bombing of the World Trade Center in 1993, the Khobar Towers in 1996, U.S. embassies in Dar al-Salam and Nairobi in 1998, and the U.S.A. Cole in Aden in 2000. On September 11, 2001, suicidal Arab Muslim militants seized four commercial carriers and crashed into the World Trade Center and Pentagon- symbols of American economic and military might. Thousands of civilians were killed in the attacks, making it the largest loss of civilian life in a single terrorist attack anywhere in the world. While many denounced the terrorist attacks, calling them a perversion of Islam, Osama bin Laden, the alleged instigator, and a chorus of voices in the West portrayed the suicide bombings and US retaliation as a clash of civilizations. The issue of Islam's role in generating conflict has become especially controversial since Samuel Huntington[13] asserted that Islam has bloody borders and predicted that the dynamics of civilization conflict in the post cold war era would reinforce and intensify this phenomenon. His analysis is part of a larger notion that conflicts are defined by a clash of civilizations. Huntington holds that conflicts involving Islamic civilization will be particularly common and violent and that Islamic civilization will be the greatest threat to Western civilization.

While many aspects of Huntington theory are controversial, his arguments concerning Islam have found acceptance among intellectuals and policymakers. And that may, as some maintain, make Huntington's analysis self-fulfilling. They suggested that the conflict between the US and Muslim fanatics is more rooted in the nature of Islam than its defenders suggested[14]. Novelist Salman Rushdie wrote an opinion piece Yes this is about Islam, in which he spoke of the need for a depoliticized Islam assailing the religion and asserting that a

the region, especially its support for Israel. Anti-Americanism is not rooted in Arab culture or Islam[8]. In fact, as early as 1953, Stephen Penrose, the president of the American University of Beirut observed that "the Arabs perceive with bitterness America's support for Israel" a support emanating from domestic and electoral policy considerations for the Jewish lobby in the US .He advised his country to adopt an impartial policy in the Middle East, to show respect for democratic values and real understanding of Arab mentality[9]. Historical setbacks, such as the military defeat of 1967 have led to the resurfacing of Islamist movements, who are at least in their rhetorical stances, totally opposed to the West, and in particular to the United States. Thus, they rejected US-brokered Egyptian-Israeli peace treaty of 1979 and subsequent efforts for Arab-Israeli peace, which they regarded as evidence of new forms of Western encroachment on sacred Arab territory[10].

II-Militant Islam and the United States

The current wave of antagonism toward the United States stems from the Iranian revolution which associates, in the minds of Americans, with fundamentalism conjuring up images of mobs shouting death to America, embassies in flames, assassins and hijackers threatening innocent lives, hands chopped off, and women oppressed[11]. The West viewed the Iranian regime as fanatic and aggressive characterized by excessive religious zeal, violence, radicalism and antagonism toward the United States. Israel and the United States have long served as this groups primary targets. The success of Iranian-sponsored suicide bombings throughout the 1980s and 1990s in linking religious zeal to political objectives, sparked martyr operations, which have been on the rise since the 1990s. It has been transformed from an exemplary act of sacrifice into an inspirational model for revolution and action. This helped create an atmosphere that is conducive to suicide bombings. During the 1980s, a series of suicide bombings were staged against the U.S. Embassy in Beirut and U.S. and French military compounds. These attacks led to the withdrawal of the Multinational force, which had been operating in Beirut under a mandate from the UN Security Council in the aftermath of Israel's 1982 invasion of Lebanon. The image of US citizens held

when Napoleon's armies invaded Egypt and faced Muslims with a spectacular display of force, the extent of their cultural, scientific, and military incompatibility with the West.(4) Arab alienation was accelerated by the decline of the Ottoman Empire, the surge of European imperialism after the establishment of the mandate system, the failed experiments of liberalism and the consolidation of the modern state system after the First World War. Many argue that the imperative of modernization itself have caused a resurgence of Islam, especially in the form of religious fundamentalism. Khashan(5) contends that modernization has failed and religious issues have become important in reaction to this failure. Insufficient modernization efforts and the continued dependence of Arab states on the West have added to the grievances of religious movements. Islamic fundamentalism is the product of cultural and intellectual stagnation, Western colonialism and the failure of secular nationalist mode of government. Faksh blames fundamentalism on the failure of secular national ideologies and movements advocating secular nationalism that rallied millions across the Arab World(6). Old ideologies have failed to deliver their promises of national strength, social and economic development and political freedom, i.e. they failed to handle effectively the conflict with Israel, to achieve economic self-sufficiency, to stem the widening gap between rich and poor, to halt deeply entrenched corruption and nepotism, and to resist Western cultural and political hegemony. He adds: The first Gulf War Represents a shocking testimony to Arab impotence and to their paralyzing dependence on the West to solve their problems after fifty years of independence(7). Furthermore, modernization has contributed to a breakdown in community values, lifestyles and traditions, causing widespread feelings of dislocation, alienation and disorientation. The failure to secure independence coupled with political corruption and chronic economic stagnation, paved the way for the appearance of Islamist movements struggling against the West.

With the creation of Israel and the end of European colonialism, the people of the Middle East became that much more disillusioned with the West and, subsequently, with the leader of the West, the United States. However, according to Makdessi Arab hostility to the US does not result from old and long term resentment toward American values, but stems from a recent disaffection with America's foreign policy in

war. Another manifestation of anti-American feelings occured when Millions took the streets to protest US war on Iraq, they were especially colossal and unprecedented in Britain, Italy, Spain and Australia, the countries whose governments support US policy making this support massively unpopular with their own populations. Even the pope spoke against the war "Violence and arms can never resolve the problems of man"(2).

US unilateralism has apparently antagonized its European allies who are demanding a multipolar world. Resentment grew also because the US was perceived to be exerting its power in an unfair, biased, and arbitrary manner in pursuing its national interests. Norbert Walter points out that hatred results from a felt mismatch between US claims of pursuing universal human rights on the one hand, and the promotion of US economic and security interests i.e. Middle East Oil supplies(3).

With the end of the invasion and while the political debate regarding the future of Iraq rages, Arab anti-American sentiment continues to worry US policy-makers. For, in the Arab world public discontent with US policy and action in Iraq retains a more alarming and powerful message: anti-Americanism blends with significant endorsement for the tenets of political Islam producing a toxic mix. This reality has been confirmed by the fact that the perpetrators involved in anti-American violence during the last decade were mostly Arabs.

This study examines the nature and evolution of anti-American sentiment in the Arab world, especially in light of the September 11 attacks and the US-led war on Iraq. Anti-Americanism is broken down into two dimensions: growing resentment of US foreign policy and extreme manifestation of hatred for the United States in the form of terrorist reprisal against American interests.

I-Anti-Americanism in the Middle East: A Historical Legacy

Arab-US relations have been characterized by a history of mutual antagonism: from the early Arab conquests through the crusades, into the rise of the Ottoman Empire and through the fall of Constantinople. Specifically, several scholars attribute the roots of Arab-Islamic disaffection with the West to the last years of the Eighteenth century

The Aftermath of Saddam: Arab Apprehensiveness about the United States

*Josiane Feghaly**
*Dr. Simon Haddad**

Abstract

This study examines the nature and evolution of anti-American sentiment in the Arab world, especially in light of the September 11 attacks and the US-led war on Iraq. Anti-Americanism is broken down into two dimensions: growing resentment of US foreign policy and extreme manifestation of hatred for the United States in the form of terrorist reprisal against American interests. The discussion shows that, unless the US opts for a shift in its Middle Eastern policy, endorsement for political Islam and therefore the propensity of violent retaliation against US targets will increase.

Introduction

The US-led war on Iraq has generated an intense wave of anti-American sentiments across the globe. International opposition to the invasion has varied between two poles: negative attitudes and street protests on one hand, and active hostility in the form of terrorist attacks on US interests on the other(1). In fact, the diplomatic fallout over the war has produced standard-bearers of potent anti-Americanism. Despite close historical cooperation between the US and some European countries, serious tensions have marred US relations with standard allies such as France and Germany over the

**Josiane Feghaly, Researcher*
**Dr. Simon Haddad is a professor at Notre-Dame University*

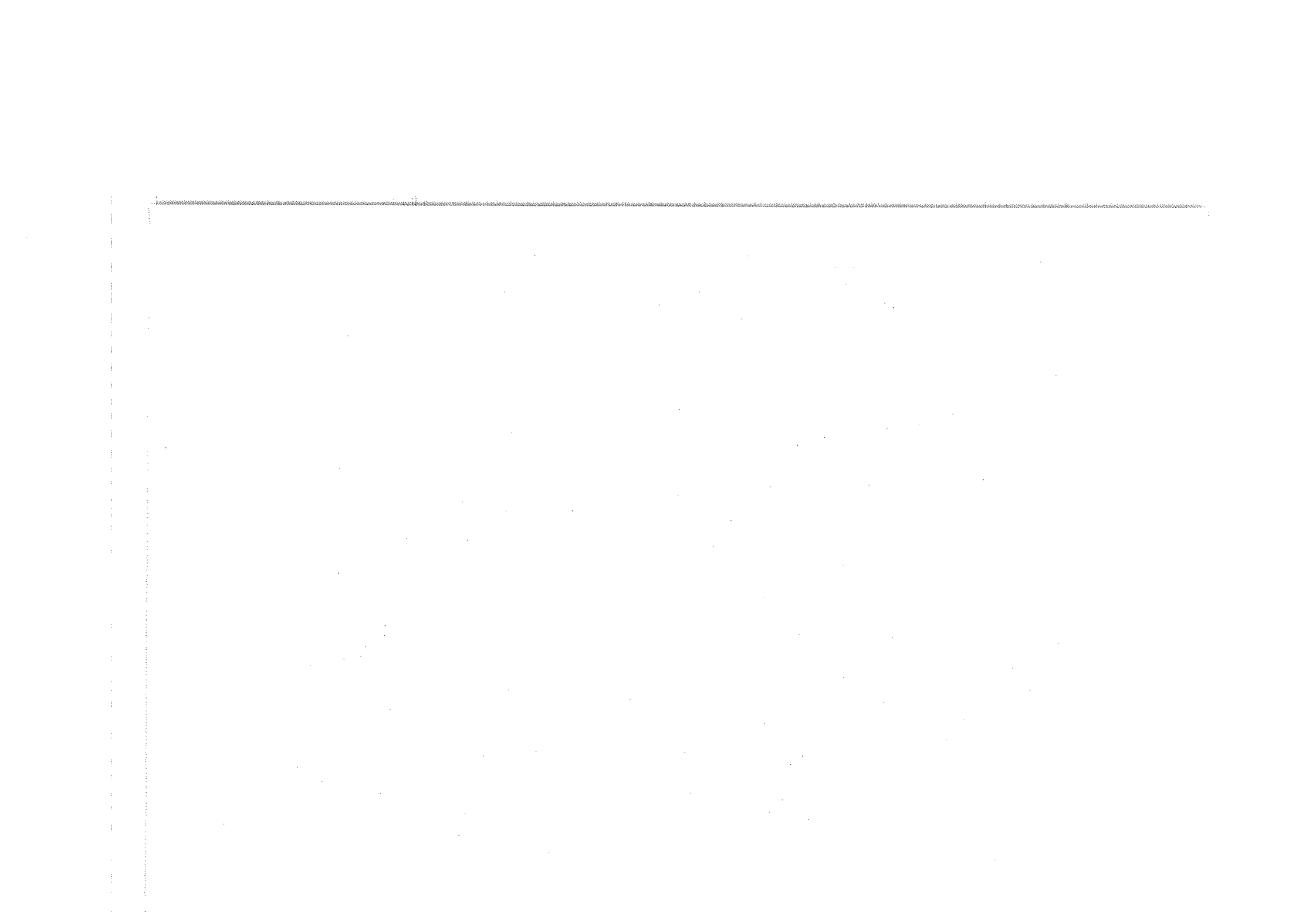

printemps 1993
13J. Nye, Soft Power, in Foreign Policy (Automne 1990, n° 80)
14P. Moreau-Defarges, Les grands concept des relations internationales, 1994
15J. Nye, Bound to lead
16Sommes-nous cependant si loin de l'analyse aronienne? Rien n'empêche d'avoir une interprétation plus large du paradigme aronien et peut-être, finalement, plus conforme à l'esprit dans lequel Aron a voulu conceptualiser les moyens de la puissance.En fait, la démarche de Joesph Nye apparaît en conformité fondamentale avec le fond de l'analyse de Aron qui voit dans la puissance "un potentiel de commandement, de contrainte et d'influence".
17Susan Strange, Toward a theory of transnational empire, 1989
18B. Badie, M-C. Smouts, Le bouleversement du monde, 1995

BIBLIOGRAPHIE

1 - ARON, Raymond, Paix et Guerre entre les Nations, ed, Calmann-Lévy, Paris, 1962
2 - BONIFACE, Pascal, La Puissance Internationale, ed, PUF, Paris, 1994
BADIE, Bertrand, SMOUTS, Marie-Claude, Le Bouleversement du Monde, ed, Seuil, Paris, 1995
3 - KENNEDY, Paul, The Rise and Fall of Great Powers, ed, Vintage Books, NY, 1987
4 - LAMOUREUX, Claude, De l'arme économique, Fondation pour les Etudes de Défense Nationale, Paris, 1987
5 - NYE, Joseph, Bound to Lead, The Changing Nature of American Power, Wall street journal editions, NY, 1990
6 - LELLOUCHE, Pierre, Le Nouveau Monde, ed, Grasset ; Paris, 1992
7 - MOREAU DEFARGES, Philippe, Les Grands Concepts des Relations Internationales, ed, Hachette, Paris 1994
8 - STRANGE, Susan, Toward a Theory of Transnational Empire, ed, Lexington Books, Lexington, 1989

Périodiques :

1 - H Kessinger, C, Vance, Bipartisan objectives for american foreign policy, in, Foreign Policy, summer 1992
2 - C Layne, The unipolar illusion, in, International Security, spring, 1993
3 - S Huntington, Why international primacy matters, in, International security, spring 1993
4 - J Nye, in, Foreign Policy, Autumn 1990, N, 80

1R. Aron, Paix et guerre entre les nations, 1962
2P. Boniface, La puissance internationale, 1994
3P. Kennedy, Naissance et déclin des grandes puissances, 1989
4H. Kissinger et C. Vance, "Bipartisan objectives for American foreign policy", Foreign Policy, été 1988.
5C. Lamoureux, De l'arme économique, 1987
6Ibid.
7J. Nye, Bound to lead - the changing nature of American power, 1990
8P. Boniface, La puissance internationale, 1994
9C. Layne, "The unipolar illusion" "Why new great powers will rise", International security, Printemps 1993
10P. Kennedy, "Rise and fall of the great powers", 1989
11P. Lellouche, Le Nouveau Monde
12S. Huntigton, "Why international primacy matters", International security,

contre 74% la seconde. Comment les États-Unis pourraient-ils jouer leur rôle de "super-grand" alors que les Américains eux-mêmes ne semblent plus le souhaiter et que les États-Unis ont perdu leur image impérieuse d'invulnérabilité. N'ont-ils pas dû demander à leurs alliés de financer l'opération "Tempête du Désert"? Ne se sont-ils pas retirés "précipitamment" de Somalie? En outre, la suprématie américaine est aujourd'hui largement contestée car on trouve, à-côté du "géant américain", une foultitude d'acteurs influents: le Japon, les "Grands d'Europe", l'Union européenne - la Chine? - mais aussi Coca-Cola, Microsoft voire même George Soros! Que peut-on donc conclure de cette analyse? Y aurait-il une superpuissance américaine et une multitude de grandes puissances? Une grande puissance et plusieurs puissances moyennes? Certains tablent même sur une disparition de la puissance, laissant place à une sorte d'anarchie généralisée parsemée de conflits locaux dont les riches se croiraient protégés - illusion dramatique à l'heure où le monde est caractérisé par le transnationalisme et la mobilité des idées, des hommes et des capitaux.

Conclusion

La puissance est une aptitude, une capacité à influencer; voici en substance ce que l'on sait d'elle. Dès lors, chercher à distinguer des grandes puissances dans le monde d'aujourd'hui semble être devenu un exercice stérile tant le niveau d'abstraction requis est considérable. L'internationaliste ne devrait-il pas humblement accepter de décliner sa compétence et cesser de théoriser ce concept sans cesse plus imprécis?

peut s'en faire car elle est fluide et par conséquent difficile à quantifier. La puissance devient subjective voire irrationnelle; elle dépend de l'image que l'on a de soi, de l'image d'autrui, du monde et de ses menaces; elle dépend aussi de l'image que l'on a de l'idée que les autres ont de soi et d'eux-mêmes. Par conséquent, la puissance est plus diffuse et incertaine que jamais. "Omniprésente mais insaisissable, la puissance ne se prête pas aux paradigmes". Est-il donc bien raisonnable penser le monde en termes de puissance alors que la théorie montre ses limites? Si oui, alors il conviendrait de dire qu'une grande puissance à l'heure actuelle est un acteur non exclusivement étatique qui peut influencer tout ou partie du système international dans le sens de ses intérêts et ce de façon plus marquée qu'il ne doit lui même se plier à des exigences extérieures. En d'autres termes, le plus puissant des acteurs est celui qui est le moins vulnérable, c'est-à-dire celui qui peut consentir des concessions au moindre coût, mais il n'est pas omnipotent pour autant. Il ne peut donc exister qu'un leadership légitime qui se traduise dans les faits par une aptitude à assurer la cohésion de l'ordre mondial. C'est sans doute ainsi qu'il conviendrait aujourd'hui de discerner quelles sont les grandes puissances mondiales. Concrètement, seuls les États-Unis apparaissent à même de remplir complètement cette mission. Cependant, on peut véritablement se demander si la puissance correspond encore à un désir des Américains. De manière plus générale, l'impérialisme américain n'a-t-il pas vécu pour laisser place une volonté de "cocooning stratégique"? En effet, des deux superpuissances qui ont lutté pour la suprématie depuis 1945, l'une a implosé, l'autre est épuisée. Le leitmotiv actuel de la Maison Blanche n'est-il pas le fameux "America first"? Cette tendance rend bien compte du fait que les États-Unis sont las de porter le fardeau de la puissance, car l'investissement stratégique extérieur est désormais perçu comme une atteinte à la prospérité et non plus comme une nécessité impérieuse face au danger communiste. Un sondage commandé part la chaîne de télévision ABC (octobre 1993) proposait un choix entre les deux affirmations suivantes: 1) Parce que les États-Unis sont le pays le plus fort et le plus riche, ils ont la responsabilité de prendre le rôle de leader des affaires du monde. 2) Parce que les États-Unis ont des ressources limitées et des problèmes intérieurs, ils doivent réduire leur implication dans les affaires mondiales. 22% des Américains choisissent la première affirmation

territoriales étatiques. La puissance structurelle semble dès lors être anonyme: "on est soumis à des forces que l'on n'identifie pas; des alliances stratégiques, industrielles et commerciales se nouent et dessinent les nouvelles cartes du développement comme autrefois les États dessinaient la géopolitique".

Il apparaît donc que la puissance est un concept dont l'acception a bien évolué depuis quelques années. De l'aptitude d'un État à imposer sa volonté aux autres en ayant recours à la force si nécessaire, la théorie des relations internationales a abouti à une conception radicalement différente. Le monopole étatique sur la puissance a éclaté, laissant place à une kyrielle d'acteurs plus ou moins clairement définis. Comme le dit B. Badie, "le monde ne s'organise plus autour de blocs, de camps, mais de la compétition technico-économique: il n'y a plus de puissance à part, mais des concurrents disposant de plus ou moins d'atouts"(18).

Ainsi, la puissance est devenue une aptitude à transformer des ressources de moins en moins brutes en capacités d'orienter des décisions collectives. La primauté internationale apparaît comme étant cette faculté de persuasion au sein d'un système relationnel. Or ceci ne va pas de soi, car la coopération entre acteurs n'est pas évidente. En effet, la fin de la guerre froide n'a pas fin mis à tous les problèmes mondiaux, loin s'en faut. L'antagonisme entre libéralisme et communisme n'a jamais été l'unique cause de conflit international; en outre, la chute du communisme ne signifie nullement la fin des idéologies. Un conflit s'est donc éteint, mais d'autres, passés sous silence durant la guerre froide, se réveillent (conflits ethniques). On comprend donc que la puissance hégémonique ne soit plus possible dans ce système international où l'interdépendance va croissant, sans pour autant être accompagnée de l'émergence d'une position commune des acteurs.

En outre, la puissance des États étant actuellement "rongée" par les OIG d'une part et, d'autre part sérieusement amputée par les firmes trans-nationales, l'essentiel de la puissance semble appartenir aujourd'hui à des acteurs souvent anonymes, ce qui engendre bien des fantasmes. Les États concurrents s'accusent mutuellement de tous les maux et infamies, sans comprendre que la source de leurs problèmes provient désormais d'acteurs souvent impalpables qui les dépassent largement. Qui plus est, la puissance varie avec la représentation qu'on

à contourner les barrières font que la puissance ne cesse de se déplacer, appartenant provisoirement à ceux qui occupent les bons croisements13. On vit donc actuellement une ère de l'influence sans puissance, c'est-à-dire une époque où la puissance des acteurs se mesure à leur capacité d'affecter le comportement des autres sans volontarisme ni hostilité. On est ici très proche de la théorie économique des "effets de domination" de F. Perroux. Selon cette thèse, seuls quelques acteurs déterminent les règles de l'économie politique mondiale et délimitent la marge de manoeuvre de tous les autres. Concrètement, cette nouvelle forme de la puissance peut se traduire par une aide financière accordée en contrepartie d'avantages économiques et stratégiques (cf. l'attitude américaine à l'égard de la Chine suite à son attitude conciliante au Conseil de Sécurité durant la guerre du Golfe)[14]. Ainsi, il apparaîtrait terriblement réducteur d'appréhender la puissance de l'après guerre froide sous l'angle unique de l'action diplomatico-stratégique[15].

La thèse de l'interdépendance est très proche de celle de la puissance structurelle développée par Susan Strange[17] en ce qu'elles prennent toutes deux comme point de départ la diffusion de la puissance. La "puissance structurelle" est cette capacité de déterminer la façon dont seront satisfaits les quatre besoins de base d'une économie moderne: sécurité, savoir, production et finances. Tous ces objectifs relèvent du système plus que des relations inter-étatiques en elles-mêmes. L'internationalisation aurait donc cassé les liens qui existaient entre puissance et territoire, et par conséquent engendré la création d'un vaste empire trans-national. Parmi les fondements de la puissance structurelle, on trouve le savoir et la production industrielle. Pour S. Strange, l'industrie et la technologie sont les deux principales armes de guerre économique et constituent le socle de la souveraineté politique d'une nation. La puissance technologique est en effet le prolongement de la puissance économique et commerciale: la capacité de créer, de produire et d'assimiler de nouvelles technologiques est un facteur de développement qui concourt directement à la puissance. Le niveau technologique est fonction des orientations militaires, de la puissance politique et du rayonnement culturel. C'est le véritable déclic de puissance; or cette combinaison industrie-technologie semble échapper aux États au profit des entreprises; ces entreprises investissent partout dans le monde et passent donc outre les contraintes

est mobile, les capitaux, les entreprises, les technologies, les hommes...

B- Emergence de nouveaux acteurs incontournables à la redéfinition de la puissance

Dans ce contexte de globalisation, des acteurs non-étatiques, dotés d'une autorité et de moyens d'action ne procédant pas de la légitimité étatique, ont émergé: organisations internationales, souvent dans la nébuleuse onusienne, entreprises transnationales, milieux de la drogue et de la mafia. Le système international est donc devenu profondément hétérogène: il dépend non plus des États mais des acteurs tels que les définissent J. Nye et R. Keohane, c'est-à-dire ceux dont les décisions affectent les ressources et valeurs et dont l'action les uns sur les autres s'exerce par delà les frontières. Il existe par conséquent des États qui ne sont pas des acteurs: en effet, ceux qui ne font partie ni des grands sommets mondiaux, ni du Conseil de Sécurité, ni du G7, ni du conseil d'administration du FMI... n'existent presque pas sur la scène internationale en tant que participant actif. Il est donc difficile actuellement de se représenter le système géopolitique mondial tant sa composition s'est complexifiée. Il existe toutefois un point commun entre tous ces acteurs disparates: la puissance. En effet, si ces différents acteurs existent sur la scène internationale, c'est qu'ils sont par différents moyens capables de peser sur le cours des événements. La puissance demeure donc la condition sine qua non pour exister au plan international (cf. infra), mais elle n'est plus la propriété exclusive des Etats.

Or, dans ce monde où l'interdépendance va croissant, il s'agit moins pour les acteurs de développer une puissance militaire ou hégémonique qu'une influence qui incite les autres à prendre des décisions compatibles avec leurs intérêts: c'est ce que Nye résume dans son concept de "soft power"[13]. L'influence, le prestige, l'attrait idéologique ou la communication acquièrent une importance grandissante. La puissance n'est plus véritablement faite par la possession - qui, certes, y contribue encore - mais par la capacité de contrôle des réseaux de flux. Il est essentiel de tenir les flux (de marchandises, de personnes, de services, d'informations...) ou plutôt leur points de rencontre, leurs carrefours. Or, en cette fin du 20ème siècle, l'amplification et la mobilité des flux, leur rapidité à pénétrer ou

Sud à l'égard du droit d'ingérence, elle s'explique principalement par la non-réciprocité de ce droit dans la pratique: en effet, il sera toujours plus facile de s'ingérer dans les affaires d'un pays faible que dans celles d'une superpuissance.

Il demeure cependant que le "juridisme" est une dynamique importante de cette fin de siècle et qu'avec elle se développe les prérogatives réelles des organisations internationales qui encadrent, à défaut de contrôler, les puissances. Mêmes si elle émane des Etats-membres, l'Union européenne prend souvent des décisions à la majorité qualifiée, ce qui implique une délégation de pouvoir et donc de puissance de l'Etat à un échelon supranational. Quant aux autres OIG, plus intergouvernementales, elles reflètent la volonté de chacun de ses membres mais permettent aussi la confrontation d'idées et surtout l'approbation de facto que certaines décisions ne peuvent être prises qu'en commun: chacun dispose d'un droit de veto mais nul ne peut seul imposer ses vues (Conseil de sécurité). Or si ces dispositions institutionnelles existaient bien avant la fin de la guerre froide, il semblerait que le tournant de 1989 ait véritablement permis leur bon fonctionnement: durant la guerre froide, les tensions et menaces entre les deux blocs ne souffraient aucune règle de droit. Aujourd'hui, les grands semblent accepter cette nouvelle organisation de la scène mondiale (Bosnie, Soudan...)

Ainsi, dans le système international actuel caractérisé par une grande instabilité engendrée par l'émergence du polycentrisme et de l'affirmation de puissances militaires locales, il n'est pas évident qu'un seul acteur puisse imposer la paix (paix par l'empire). Cela vaut aussi pour les États-Unis qui ont dû avoir recours au financement de ses alliés durant la guerre du Golfe: on s'oriente donc vers une logique de coalition et de coopération. De l'hégémonie des oligarques mondiaux, le monde est en train de passer - dans le meilleur des cas - à la société juridique; durant la transition cependant, force est de constater l'éparpillement de la puissance car le droit ne peut dès à présent proposer un modèle stratégique aussi cohérent que celui du "tout à l'Etat"

En outre, on a récemment pu constater l'avènement d'une ère radicalement nouvelle, celle d'un monde en voie d'intégration économique rapide où les Etats-nations n'ont plus les moyens de leur souveraineté; un monde constitué de réseaux trans-nationaux où tout

projet de plus long terme. Il s'agissait de substituer à l'ordre antagoniste Est-Ouest révolu, un ordre coopératif fondé sur l'acceptation d'un ensemble de règles et de valeurs communes. Dès lors, si la capacité militaire et le potentiel économique déterminent toujours en gros le rang de puissance, l'usage de la force pour répondre à des menaces autres que militaires devient de moins en moins envisageable.

Des organisations internationales qui régissent les rapports de puissance: nous vivons dans une ère où le juridique tente de prendre le pas sur l'hégémonique. Dans le domaine économique, l'influence du FMI est très importante: ses prêts sont souvent subordonnés à un droit de regard sur la politique économique des États bénéficiaires - une OIG peut donc prendre le pas sur un gouvernement. Dans le domaine stratégique, le Conseil de sécurité est plus que jamais le locus décisionnel. Même si la force armée reste l'apanage des États, celle-ci semble aujourd'hui régie par des grands principes moraux universels tels que le droit d'ingérence ou la promotion de la démocratie. Parallèlement à la morale, le droit fait véritablement son apparition sur la scène internationale: avec l'éclatement de la structure bipolaire et l'affirmation grandissante de nombreux États, le droit apparaît aujourd'hui comme étant le seul moyen d'orchestrer toutes ces revendications de puissance. Ceci étant, le droit ne domine pas encore les relations internationales: il se développe (un traité de non-prolifération nucléaire n'aurait pas été pensable il y a encore une dizaine d'années...), encadre la puissance mais ne la supplante pas entièrement. Il est donc encore nécessaire d'être puissant pour exister au plan international.

Quels sont les enseignements à tirer de l'affirmation du droit international? Le développement du droit au plan mondial a pour principale conséquence de limiter les différentiels de puissance et leurs répercussions néfastes en termes d'équité. En ce sens, le droit s'oppose à la puissance et particulièrement à la primauté des grandes puissances. Cependant, sur la scène internationale, la règle de droit est encore subordonnée à celle de la puissance - à l'exception peut-être du cas très spécial de l'Union européenne. En outre, l'élaboration de la règle de droit est souvent déterminée par des rapports de force: les traités sur la réduction du format des forces sont surtout l'oeuvre des grandes puissances militaires. Quant à la réticence actuelle des pays du

leur politique en la matière entre la fin des années 1980 et le début de la décennie 1990. Ces deux vagues de fond ont des répercussions consubstantielles sur la notion même de puissance: le phénomène marquant de ces dernières années est en effet la perte du monopole de la puissance par les États. Avec la fin de l'antagonisme Est-Ouest, de nouveaux acteurs non-étatiques émergent sur la scène internationale et supplantent les États dans tout ou partie de leurs prérogatives de puissance. Comment analyser cette dynamique? Quelles sont ces acteurs? Peut-on encore parler de grandes puissances à l'heure actuelle?

Nous avons jusque là montré que les hiérarchies de puissance pouvaient subir des changements internes: l'ordre change mais les acteurs restent les mêmes. Or c'est ce dernier point qui ne s'avère plus vérifié. Ce qui caractérise cette période de la fin du 20ème siècle sur le plan géopolitique, c'est la déconcentration de la puissance. L'apanage des États sur la puissance est mis à mal "par le haut" avec l'affirmation des instances internationales et "par le bas" avec l'émergence d'acteurs infra-étatiques ou transnationaux qui s'imposent peu à peu comme les véritables détenteurs de la puissance d'aujourd'hui. C'est la thèse de l'école de l'interdépendance, et notamment de J. Nye, qui montre en effet que la puissance s'est diffusée sous l'effet de cinq grandes tendances: la mondialisation de l'économie; l'émergence et l'affirmation d'acteurs transnationaux; le développement du nationalisme dans les États faibles; l'expansion de la technologie et la modification des grands enjeux de la politique internationales. Par conséquent, le paradigme aronien qui conçoit les relations internationales comme des relations exclusivement inter-étatiques semble dépassé: l'Etat ne peut plus prétendre au monopole de l'existence et de la représentation au niveau international. Par conséquent, la puissance se diffuse et devient donc moins physique.

Avec la fin de la guerre froide, on assiste à une recomposition fondamentale des relations internationales. De cette mutation ressort une volonté des grandes puissances de créer une sorte de nouveau concert des nations. Dans son discours du 9 novembre 1990, en pleine crise du Golfe, le président Bush déclarait: "Un nouvel ordre mondial peut émerger de ces temps troublés, une nouvelle ère, plus forte dans la recherche de la justice et plus sûre dans la recherche de la paix". Propos de circonstances? Sans doute en partie. Mais énoncé aussi d'un

États-Unis durant la guerre froide était de contenir la progression communiste et de propager les valeurs du "monde libre". Quant à J-C Casanova, il distingue, comme objectif éternel de la puissance, la recherche de la sécurité qui est essentielle pour assurer le maintien en l'état des corps et entités politiques dans un environnement à dominante conflictuelle.

Cette approche par finalités est sans aucun doute plus satisfaisante, dans le cadre de notre analyse, que celle par critères. Elle permet en effet de comparer plus facilement les performances de chacune des puissances afin de déceler un groupe de tête qui constituerait le club très fermé des grandes puissances. Ainsi, dans la pensée réaliste, une grande puissance serait un État qui, mieux que les autres, combinerait les facteurs de puissance précédemment énumérés (capacité militaire, haute technologie, performances économico-financières et rayonnement culturel, le tout orchestré de façon optimale grâce à la cohésion nationale) dans le but d'assurer sa sécurité et de satisfaire ses objectifs stratégiques et diplomatiques[12]. On peut ainsi énumérer une liste des grandes puissances: les cinq membres permanents du Conseil de sécurité de l'ONU ainsi que, dans une moindre mesure, le Japon et l'Allemagne, car ces deux derniers ne disposent, de façon opérationnelle, que de la composante économique de la puissance, même si leur capacité militaire conventionnelle fait bien des envieux chez certains comme la France ou l'Angleterre.

A l'heure actuelle, il semblerait toutefois que la perspective réaliste est trop restrictive car elle pense la puissance dans un contexte de guerre, et surtout de guerre froide. La fin des années 1980 va porter un coup sérieux à la pertinence de cette analyse. En plus de la fin de l'antagonisme Est-Ouest, la décennie 1980 symbolise aussi un phénomène moins visible car décrit bien souvent à tort et à travers: la poursuite de la mondialisation économique (Uruguay Round) et surtout la globalisation des marchés financiers. C'est en effet à la fin des années 1980 que les derniers contrôles des changes sont levés en Europe grâce à l'Acte unique européen qui impose les fameuses "quatre libertés" sur le marché unique (France: 1987): les capitaux circulent actuellement librement ou presque dans toute l'union européenne (à l'exception de certains secteurs dits "stratégiques" pour lesquels un délai plus long est nécessaire). Mais ce phénomène n'est pas propre à l'Europe: le Japon, Hong Kong et Singapour assouplissent

du communisme sur la Terre entière. Cette tension se corrompant (constitution d'une nomenklatura, de mafias...), les murailles de la forteresse devenant poreuses (des informations parviennent de l'extérieur), l'idéologie n'étant plus qu'un instrument de pouvoir, vidé de sa promesse d'un avenir radieux, l'édifice impressionnant s'est écroulé.

De même, avec l'effondrement de l'URSS, certains ont parlé de l'émergence d'un monde unipolaire, car plus aucun État ne pouvait se comparer aux États-Unis (Fukuyama). Mais l'unipolarité est de courte durée et les hégémonies potentielles échouent invariablement dans leur volonté de préserver une domination durable. Pour C. Layne, "le réalisme structurel conduit à prédire que l'hégémonie produit l'apparition de pouvoirs concurrents sous la forme de nouvelles grandes puissances"[(9)]. Le débat sur le déclin américain animé notamment par P. Kennedy[(10)], la montée en puissance du Japon et de la Chine ou l'affirmation de l'Union européenne, s'ils se confirmaient, ouvriraient les perspectives d'un monde multipolaire. S'il ne s'agit pas de conjoncturer l'avenir, il convient toutefois de souligner que l'émergence de nouvelles puissances est un phénomène très lent: le peloton des grandes puissances reste aujourd'hui à peu près ce qu'il était il y a un siècle, mais dans un ordre modifié. On retrouve ainsi les États-Unis, la Russie, le Japon, les États européens - France, Grande-Bretagne, Allemagne pour l'essentiel. Seule la Chine est venue s'y joindre. Pour le reste, les puissances potentielles du 19ème siècle (on citait par exemple l'Argentine) sont restées des puissances potentielles, même si leur influence n'est pas négligeable. Au total, les réalistes concluent sur une certaine stabilité de la puissance étatique même si ses expressions et sa nature sont en pleine mutation.

Conscients des limites de leur analyse par critères, certains réalistes ont tenté d'adopter une nouvelle approche qui repose, elle, sur les finalités de la puissance. Soulignons toutefois que cette réflexion demeure dans le cadre de la pensée réaliste car elle pose comme postulat la détention exclusive de la puissance par les États dont le théâtre d'opération est dominé par la tension et les conflits. P. Lellouche, par exemple, définit la puissance comme la faculté de défense des intérêts nationaux, c'est-à-dire une capacité à mobiliser des "ressources matérielles ou humaines" pour "l'action diplomatico-stratégique"[(11)]. Ainsi, l'objectif de puissance des

conséquent la stabilité - fragile reposait sur son approbation par les acteurs du jeu international. Une hiérarchie de puissance doit revêtir un caractère inexorable. Les puissants doivent être sûrs de leur force tout comme les faibles doivent être résignés à leur soumission. C'est la théorie d'Organsky qui voit en l'inégalité des puissances la source de la pérennité de la hiérarchie en place. En effet, tant que l'on sait que l'autre est bien plus fort que soi, on ne remet pas en cause son leadership, en tout cas pas par la force. Organsky peaufine son analyse en prenant en compte l'insatisfaction des dominés: la stabilité de la hiérarchie est fonction du degré d'insatisfaction des dominés. Dès lors, toute hiérarchie est amenée tôt ou tard à se justifier et non plus à s'imposer; les hiérarchies ne disparaissent pas mais elles deviennent discutables.

Relative par définition, la puissance est donc évolutive par nature. La puissance d'aujourd'hui ne sera pas nécessairement la puissance de demain. Plus encore, les critères qui sacrent la puissance aujourd'hui pourront être dévalués ou inopérants demain. La possession de ressources naturelles était jadis un élément clé de la puissance. Aujourd'hui, le Japon qui en est dépourvu fait la course en tête au niveau international. La possession de gisements de pétrole n'était d'aucune utilité il y a deux siècles alors qu'elle fut considérée comme le facteur-clé des rapports de force internationaux dans les années 70. On peut faire un parallèle mathématique en considérant la puissance - dans l'approche réaliste - comme fonction de différentes variables affectées chacune d'un coefficient qui fluctue. Ces coefficients varient car le système international est en pleine mutation, ce qui engendre une métamorphose de la problématique de puissance.

A - Déboussolement international à la sortie de la guerre froide

Les hiérarchies de puissance se font et se défont au gré de l'évolution de l'importance de chacun des critères de puissance, des transformations du système international et d'impondérables. L'Union soviétique, des années 20 à sa dissolution en 1991, illustre assez bien l'alchimie complexe et instable de toute puissance. De Staline à Brejnev, l'Union soviétique a la force et finalement la faiblesse d'une forteresse: assiégée par le monde capitaliste et impérialiste, menacée de subversions intérieures, l'URSS, pour garder son unité, doit rester mobilisée en un combat total et permanent jusqu'au triomphe du Bien,

l'étendue du territoire national que de l'organisation sociale, de l'éducation des hommes, de leur solidarité et des valeurs qui les lient". Nous avons vu que les critères de puissance pouvaient avoir un effet positif, négatif ou neutre. En fait, ces différents critères auront un effet positif s'ils s'appuient sur une organisation étatique efficace engendrant une cohésion sociale. "Ceci semble être le critère surdéterminant qui valorise ou dévalorise tous les autres". J-C. Casanova a bien su intégrer cette notion dans un modèle assez souple qui tend à définir la puissance comme un concept multifactoriel. Pour lui, la puissance est fonction de trois variables distinctes: les ressources, l'efficacité et l'élasticité. Par "ressources", il entend l'ensemble du potentiel démographique, culturel, militaire ainsi que des ressources en capital et en matières premières... Or la possession de ces ressources en elles-mêmes ne saurait garantir la puissance. Il faut savoir les combiner afin d'en dégager un produit: c'est ce qu'il dénomme l'efficacité. Enfin, l'élasticité est un multiplicateur de dimension, c'est-à-dire un indicateur de la capacité qu'à un pays d'adapter ses ressources à de nouveaux usages. L'élasticité caractérise donc la capacité qu'à un État à transformer les aspects de sa puissance en fonction de données exogènes (concept de fungibility)

II – Une nouvelle approche du concept de puissance

Il apparaît à la lumière de l'analyse réaliste que l'on ne peut pas distinguer de critère primordial de la puissance; celle ci résulte de la combinaison et de la maîtrise des différents critères ainsi que de leur adéquation interne. Pour reprendre l'expression de P. Boniface, "la puissance est une chaîne dont la résistance s'apprécie à partir du maillon le plus faible"8. Ce modèle est par conséquent difficilement utilisable. En effet, certains des critères cités n'étant pas quantifiables, il est difficile d'établir une comparaison entre les différentes puissances dans le but de dégager les plus puissantes d'entre-elles: les "grandes puissances". En outre, l'importance de chacun des critères de puissance ne relève pas d'une règle fixe et absolue, ce qui rend cette approche encore moins fonctionnelle dans le cadre de notre problématique de puissance.

En effet, jusqu'à la fin du 20ème siècle, l'ordre mondial a été orchestré par une hiérarchie de puissances dont la légitimité - et par

américain", A. Valladao montre l'avantage culturel dont dispose les États-Unis, en plus de leur puissance économique et militaire. Il met l'accent sur le fait que les États-Unis sont une terre d'immigration; or, selon lui, l'immigration et l'apport de sang neuf, en dépit du racisme et des exclusions de toute sorte, sont toujours considérés comme un facteur positif et dynamique. Il semblerait qu'à l'heure actuelle, les immigrants arrivent de tous les coins du globe et que la société américaine soit passée de l'état melting-pot à celui de salad-bowl. Loin de constituer un handicap, cette grande salade ethno-culturelle universelle est un atout: entre crises et réussites, les États-Unis font l'apprentissage, à domicile, de la gestion d'une planète qui se globalise. Bill Clinton, avec son gouvernement franchement "arc-en-ciel", a nettement réaffirmé cette volonté de gérer la coexistence et l'interdépendance des différentes communautés. Selon Valladao, cet état d'esprit est essentiel comme fondement de la prétention américaine à une culture à vocation universelle. marché: "est culture tout ce qui trouve un public solvable".

Ainsi, la culture apparaît plus comme un vecteur de puissance que comme un de ses critères à proprement parler. Elle permet d'influencer la représentation qu'autrui se fera de cette puissance irradiante. La culture entoure la puissance et assure sa légitimité en imposant en quelque sorte un référentiel pour les sociétés recevant - subissant - ce messianisme culturel.

Alors que le rayonnement culturel sert de support à la propagation de l'image de puissance, Nye distingue aussi un catalyseur, voire même une condition sine qua non à l'expression efficace des différents critères de puissance: la cohésion nationale. C'est une notion proche du concept de "moral national" analysé par Clausewitz. Cette notion assez complexe est plurielle: elle fait référence, justement, à la cohésion nationale ainsi qu'à la qualité de la diplomatie et à la capacité à innover et à faire des sacrifices; mais par dessus tout, elle souligne le rôle fondamental de la détermination avec laquelle un peuple soutient ses dirigeants et leur politique, facteur essentiel dans la détermination de la capacité d'action collective d'un acteur international. Le "moral national" est une sorte de "super critère" de puissance en tant qu'il détermine l'effet de chacun des facteurs que nous avons distingués auparavant. Comme le rappelle le Livre Blanc sur la Défense publié par la France en février 1994: "La puissance provient moins de

militaire stricto sensu[7]. Ces facteurs sont au nombre de deux: le rayonnement culturel et la cohésion nationale. Soulignons dès à présent que l'on se situe toujours dans le cadre d'une description de la puissance par ses critères, en posant comme postulat que les États demeurent les détenteurs exclusifs de la puissance sur la scène internationale. C'est en ceci que la première partie de l'analyse de Nye s'inscrit en parfaite continuité avec celle de Aron puisqu'il ne fait qu'étoffer son "catalogue de critères".

Le rayonnement culturel joue un rôle bien particulier dans la détermination de la puissance. Plus qu'un critère, le rayonnement culturel agit sur les représentations. La puissance est subjective car elle dépend avant tout de la représentation qu'on s'en fait. Concept flou et difficilement quantifiable, la puissance est soumise à des critères d'évaluation personnels, ce qui ne manque pas de compliquer la tâche de celui qui cherche à définir cette notion ambiguë mais essentielle. Dans ce contexte, le rayonnement culturel apparaît comme un instrument de tout premier ordre car il permet, d'une part, de conforter un acteur dans la conception qu'il se fait de sa puissance et, d'autre part, de pousser les autres à se rallier à sa conception. "L'exceptionnalité française" à-travers le monde relève, pour beaucoup, de son foisonnement culturel, de son patrimoine et de la défense de la francophonie. Certes les intellectuels comme Bernard Henri Levy et autre Finkielkraut font pâle figure dans le Saint Germain des Sartre et Boris Vian, néanmoins, le mythe de l'intellectuel français perdure. Quant aux Japonais, un de leurs objectifs primordiaux et d'asseoir leur puissance économico-financière sur un réseau culturel mondial dans l'espoir de surmonter les obstacles à la diffusion de leur propre culture. Ainsi, lorsque Sony rachète Columbia Pictures, la statue de la liberté précédant chaque production fait place à une jolie geisha... Par conséquent, des acteurs étatiques (Alliance française) ou non-étatiques (cinéma, firmes multinationales...) imposent la présence de l'Etat par delà les frontières; ainsi, l'Etat influence la perception de sa puissance que peuvent avoir les autres États et les peuples qui les constituent. Ainsi, Coca-Cola a souvent précédé le libéralisme ou la démocratie dans bien des pays, comme un signe avant-coureur informant les peuples du débarquement prochain du "modèle américain". Le cas des États-Unis est particulièrement éloquent. Dans son ouvrage intitulé "Le XXIème siècle sera

plus conséquent!plus généralement, l'arme économique est peu efficace quand elle vise des objectifs aussi ambitieux que le renversement d'un régime (échec du blocus contre Cuba) ou le retournement d'une politique (invasion de l'Afghanistan). Il est vrai que la défaite par épuisement de l'URSS face aux États-Unis apparaît comme l'exception majeure à cette thèse, sans pour autant sembler l'infirmer totalement(5). On constate donc qu'il est difficile de transférer la puissance d'un domaine à un autre (fungibility): du politique vers l'économique tout comme de l'économique vers le politique. Quoi qu'il en soit, si l'on adopte une approche par critères, le facteur économique demeure à n'en pas douter l'une des plus importantes composantes de la puissance actuelle.

La question cependant est de savoir ce qui fait cette fameuse puissance économique. Alors que naguère la réponse aurait été la possession de ressources naturelles, il semblerait aujourd'hui que cette condition ne soit plus d'actualité. La maîtrise technologique paraît bien plus significative tant il est vrai que les secteurs clés de l'industrie actuelle sont des secteurs à haute technologie (informatique, télécommunications...), des "industries à matière grise". Dès lors, comme le souligne L. Thurow, "c'est l'homme par la technique qui crée l'avantage concurrentiel, la recherche-développement devient un facteur essentiel"(6), d'où l'importance accordée à la R&D en Allemagne et au Japon ainsi que les ébauches de politiques industrielles allant dans ce sens au niveau européen (EUREKA, ESPRIT...). Aussi, le niveau d'éducation et de formation de la main d'oeuvre devient un critère décisif de puissance. En outre, à l'heure de la globalisation des marchés financiers et des places boursières, la puissance économique ne saurait être dissociée de la puissance financière.

A ces critères matériels de la puissance sont venus se greffer des critères immatériels grâce à l'apport conceptuel de spécialistes des relations internationales comme J. Nye ou R.O. Keohane. Selon eux, la vision réaliste adopte un spectre trop réducteur car elle se place essentiellement dans un contexte de guerre et considère par conséquent la puissance comme étant quasi-entièrement le fruit de sa composante militaro-économique. Aussi, J. Nye propose une nouvelle typologie. Aux facteurs matériels et traditionnels précédemment cités, il ajoute des facteurs immatériels qui ne sont pas orientés vers la puissance

300 millions de citoyens dans une guerre nucléaire si les États-Unis en perdait 50 millions! Cependant, on conçoit aisément qu'une telle affirmation ne puisse être prononcée par un dirigeant d'un pays démocratique. Ainsi, le facteur démographique comme critère essentiel de puissance relève d'une approche relativement surannée, celle du passé où les combats étaient essentiellement terrestres et où, par conséquent, la population déterminait la taille des armées. Or nous l'avons vu, la puissance militaire est plus fonction de la technologie que du format des forces, ce qui relativise fortement la pertinence du facteur population en tant que critère de puissance.

Si l'importance de ces deux premiers critères de puissance est contestable, on ne peut que souligner le caractère essentiel du facteur économique en tant que déterminant de la puissance des acteurs internationaux. Dans un article publié en commun, les deux anciens secrétaires d'Etat américains Cyrus Vance et Henry Kissinger écrivaient: "La persistance du déficit budgétaire américain est devenue une source d'inquiétude internationale (..). La puissance économique est désormais au coeur de la perception de l'Amérique aussi bien par ses amis que par ses adversaires. Le leadership américain dans le monde ne pourra pas être maintenu si la confiance dans l'économie américaine continue d'être entamée par des déficits budgétaires et commerciaux substantiels"(4). En outre, on conçoit aisément que l'indépendance stratégique repose principalement sur des conditions économiques: un pays riche n'aura pas besoin de faire appel à la solidarité internationale et ne sera donc pas soumis aux conditions politiques qui accompagnent généralement les crédits accordés par le FMI.

Au sein du critère économique, la structure commerciale semble représenter un des éléments clés de la puissance: en effet, le Japon dépend beaucoup des États-Unis pour ses importations, d'où une certaine dépendance qui pousse Tokyo à faire quelques concessions économiques à l'égard de Washington, comme en juin 1991 où le Japon a dû laisser 20% de son marché intérieur de composants électroniques aux États-Unis.

Il convient toutefois de relativiser l'importance du facteur économique en tant que critère de puissance: en effet, les États-Unis n'ont pu empêcher le Vietnam du Nord d'envahir celui du Sud, et ceux malgré une population dix fois plus importante et un PIB 2000 fois

grandissante, elle ne cède pas aux pressions de ses pairs et refuse - pour l'instant - de mettre un terme à ses essais. Quant aux "pays du seuil" (Inde, Pakistan, Iran, Israël), ils représentent sans doute le plus grand danger nucléaire; n'étant pas officiellement reconnus comme détenteurs de l'arme nucléaire, ils ne font partie d'aucune instance majeure de concertation sur l'armement atomique. Or c'est précisément de ces pays que vient le plus grand risque de conflit: la tension s'est renforcée récemment entre l'Inde et le Pakistan au Cachemire (fin janvier 1996), la paix est loin d'être faite au Proche-Orient et l'Iran ne présente pas tous les gages démocratiques nécessaires à la modération nucléaire (rappelons cependant qu'en France, pays reconnu comme étant démocratique, le Président de la République, et non pas le Parlement, est désigné personnellement, depuis 1963, comme seul détenteur de la force de frappe nucléaire française...). Le rôle du nucléaire en tant que facteur de puissance est par conséquent fonction du contexte géopolitique et du régime politique en place dans le pays considéré.

De manière plus générale sur le critère militaire, on peut donc dire qu'il reste essentiel et que sa pertinence en tant que facteur de puissance repose sur l'armement conventionnel, la maîtrise des technologies nouvelles et, dans un cadre bien précis, la détention de l'arme nucléaire.

B - Le facteur démographique et humain

Parmi les autres critères traditionnels de la puissance internationale, on cite communément l'effectif démographique: force est de constater à l'heure actuelle la préoccupation des grandes puissances face à leur manque de dynamisme démographique (Allemagne fédérale d'avant l'unification, Japon); Selon H. Le Bras, on peut même dire que l'évolution de la population est vécue au Nord comme une arme, puisque les pays du Nord craignent le déferlement démographique des pays du Sud, et comme un drame au Sud parce que ces pays ne sont pas en mesure de nourrir leur population. La menace militaire de l'Est aurait donc été remplacée par la menace démographique du Sud. En outre, il est vrai qu'un pays extrêmement peuplé et extrêmement totalitaire jouit d'un avantage certain sur la scène stratégique internationale; l'exemple caricatural de cette affirmation est fourni par Chou Enlaï lorsqu'il déclarait que peu importait à la Chine de perdre

crédible? A ce titre, il convient de distinguer deux grands types de puissances nucléaires. Tout d'abord, les puissances nucléaires officielles, à l'exception de la Chine, qui s'apprêtent à entériner la fin des expérimentations nucléaires et qui ont déjà ratifié le Traité de non-prolifération. Pour ce qui les concerne, le nucléaire demeure l'instrument clé de leur dissuasion. Cependant, l'exercice nucléaire n'étant plus centralisé, la dissuasion a beaucoup plus de mal à jouer. En outre, la dissuasion doit s'appuyer sur une force de frappe conventionnelle qui autorise un premier échelon de riposte ou d'attaque sans pour autant sombrer dans le désastre nucléaire. Or c'est précisément cette capacité conventionnelle qui fait défaut à un pays comme la France qui a trop misé sur son parapluie nucléaire sans prendre en compte son caractère foncièrement inutilisable en dehors du cadre de la guerre froide (cf. infra).

Pour synthétiser la place du nucléaire en tant que composante de puissance, il convient de rappeler qu'il demeure l'apanage des États; que son poids géopolitique, même s'il est indéniable, semble s'être fortement affaibli; enfin, que l'usage du nucléaire semble trop irrationnel pour être utilisé comme argument de guerre. Le nucléaire perd donc tout caractère opérationnel et ne peut servir de moyen de projection à l'extérieur (Grande-Bretagne face à l'Argentine; États-Unis contre l'Irak). En outre, lorsqu'il s'agit d'une puissance nucléaire certes, mais d'une puissance aux abois sur le plan économique comme l'est la Russie à l'heure actuelle, le potentat nucléaire est d'autant plus nuancé - si quelques centaines de soldats russes ont été incorporés dans les bataillons de l'IFOR, ce fut plus pour faire en sorte que la Russie ne se sente pas exclue du concert des "grands" de ce monde, que pour s'assurer de sa puissance et de sa bienveillante approbation:. Qui plus est, l'arme nucléaire semble trop radicale pour s'adapter aux conflits actuels qui relèvent plus de la guérilla que de la confrontation globale. Enfin, l'heure semble plus à la concertation entre acteurs rationnels et raisonnables qu'à la folie meurtrière. Il n'en demeure pas moins que la détention de l'arme nucléaire décuple la liberté d'action hors des frontières en développant notamment l'autonomie de décisions devant les menaces des autres puissances nucléaires dans le cadre de l'équilibre de la terreur, ce qui est resté, jusqu'à présent, le monopole des grandes puissances.

Le cas de la Chine est particulier: forte de sa puissance économique

programmes d'armement. L'armement français est inadapté à la nature actuelle des conflits: des Jaguars non-équipés de vision nocturne durant la guerre du Golfe; des (futurs) Rafales à 300 millions l'exemplaire pour le combat air-air afin de répondre à des situations de guerre froide telles qu'elles ont été pensées en 1986 lorsque le programme fut lancé... des appareils désuets ou bien trop perfectionnés, trop chers pour être descendus par le moindre Stinger, incapables de répondre aux besoins actuels du type attaque air-sol (Somalie, Bosnie). Le comité stratégique pour l'armement, actuellement à l'oeuvre sous la coordination de J. Picq, devrait cependant mettre de l'ordre dans les priorités de la Délégation Générale de l'Armement.

Quoi qu'il en soit, la technologie militaire a supplanté le format des forces en tant que facteur de puissance. L'arme nucléaire s'inscrit tout naturellement dans cette problématique car elle représente l'archétype même de l'arme technologique. Quelle importance doit-on accorder cependant à cette arme de destruction massive dans notre problématique de puissance? Il existe en effet un paradoxe décrit par Aron sous l'intitulé "d'impuissance de la puissance", selon lequel le pouvoir de destruction mutuel est si grand que les grandes puissances ne peuvent l'utiliser, même lorsque la tension atteint son paroxysme (Berlin, Cuba). Ainsi la guerre froide a-t-elle été perçue par beaucoup comme un facteur essentiel de stabilité globale dans le monde. Il convient certes de nuancer ce propos "occidentalo-centriste" car le monde a connu 160 conflits faisant près de 40 millions de morts de 1945 à 1990. Cependant, il demeure que la détention de l'arme nucléaire par chacun des deux blocs a permis d'éviter une escalade vertigineuse qui aurait pu être fatale à l'humanité.

Cependant, avec la fin de cette logique bipolaire, le nucléaire semble redevenir un facteur de puissance plus opérationnel. En effet, les grandes puissances nucléaires que sont les membres permanents du Conseil de Sécurité de l'ONU ne sont plus tenus à cet antagonisme directeur. En outre, il y a eu décentralisation de la décision nucléaire (Ukraine, Russie). Il semblerait donc que la stabilité de guerre froide ait vécu pour laisser place à une ère profondément instable où les conflits locaux se multiplient dans des zones du globe où certains Etats pourraient bien disposer officieusement d'armements nucléaires. Le nucléaire est-il pour autant devenu un instrument de puissance

relations internationales: le "nouvel ordre mondial" semble en effet être un ordre globalement coopératif (cf. supra). De plus, on semble être entré dans une période où les guerres, lorsqu'elles adviennent, sont souvent "identitaires": à de rares exceptions en effet, les conflits sont aujourd'hui intra-nationaux et non plus inter-étatiques (Rwanda; Bosno-Serbes contres Bosniaques...) et les guerres ne sont plus véritablement liées entre elles. Ainsi, pour ce qui concerne les États, acteurs internationaux uniques dans l'approche réaliste, la guerre et la violence sont des modes relationnels de moins en moins privilégiés. Par conséquent, le critère militaire stricto sensu a perdu beaucoup de sa superbe en tant que facteur de puissance de premier rang. Certains auteurs comme B. Badie ou P. Kennedy2 vont même jusqu'à suggérer que l'importance du pôle militaire dans un État peut être une source de faiblesse: à trop accorder d'importance au secteur militaire, un pays épuise ses ressources au détriment d'investissements civils plus rentables; l'exemple de l'URSS, superpuissance militaire qui s'est effondrée en quelques mois à cause d'une économie dévastée par la priorité donnée à la course aux armements le montre bien. En effet, la combinaison de différents éléments tels la fin de la guerre froide, la disparition de la menace soviétique ou l'émergence de nouveaux risques (mafias, terrorisme...) aurait achevé de dévaluer la puissance militaire.

Selon M. Touraine cependant, il n'y aurait pas de corrélation directe et absolue entre la croissance économique d'un pays et la part de son PNB attribuée à la défense. En outre, si la puissance militaire avait perdu toute son importance, on ne comprendrait pas pourquoi Bonn et Tokyo n'ont cessé de postuler à un titre de membre permanent du Conseil de Sécurité. Le facteur militaire n'est donc plus le facteur unique ou primordial de la puissance. Il en demeure cependant l'un des principaux et il convient par conséquent d'éviter tout manichéisme.

En actualisant notre critère, il apparaît que le décompte numérique des forces a moins de sens qu'auparavant. Les derniers conflits tels la guerre du Golfe ont bien montré l'importance des technologies nouvelles: les puces dominent les chars! On peut cependant nuancer cette affirmation en soulignant qu'à force de rechercher la technologie, les puissances militaires moyennes, telles la France, qui n'ont pas les moyens d'entretenir un panel d'armement aussi complet que celui des États-Unis, se sont trouvés piégées du fait d'une mauvaise gestion des

le plan international, c'est pouvoir "imposer sa volonté aux autres unités" (Aron).

La puissance est une notion assez floue. Il s'agit donc nécessairement ici de la définir. La conception réaliste, nous l'avons dit, tente de définir la puissance internationale par ses moyens en "cataloguant" un ensemble de facteurs censés rendre compte de cette notion. Pour R. Aron1, il existe trois facteurs principaux de la puissance que sont le milieu, les ressources et la capacité d'action collective[1]. L'internationaliste français met aussi l'accent sur la capacité de transformation des ressources en capacités militaires. Si la puissance ne peut se résumer à une liste, si précise fut-elle, il n'en demeure pas moins que cette approche du concept de puissance par ses composantes permet de cerner plus concrètement cette notion qui, au premier abord, relève plus des fantasmes et reliquats de la guerre froide que d'une réalité saisissable. Quels sont donc les facteurs qui font la puissance? Soulignons tout d'abord que la puissance n'est jamais une accumulation, mais le produit d'une combinaison de facteurs, qui, par eux-mêmes, peuvent aussi bien agir comme des atouts que comme des handicaps, mais qui, sous l'effet d'une configuration historique, s'épanouissent en un tout cohérent et se cristallisent en une volonté collective. En effet, le facteur démographique, par exemple, peut être tout à fait neutre s'il est pris séparément: les Anglais tenaient les Indes avec 6000 soldats et fonctionnaires au début du 19ème siècle. La superficie d'un État pour sa part n'apparaît comme un critère de puissance que si elle est encadrée par d'autres facteurs essentiels tels un État solide ou la mise en valeur du potentiel économique qui réside dans cette étendue.

Parmi les facteurs classiques de la puissance, la capacité militaire est sans doute celui qui, de tout temps, s'est imposé dans les esprits. En effet, Pascal Boniface rappelle que pendant longtemps les guerres étaient considérées comme un moyen légitime de régler les différends entre États. "Etre une puissance militaire était donc la première précaution"[2]. Dans son cours magistral, il explique comment la puissance militaire a été dévaluée lorsque la guerre est devenue hors-la-loi (Pacte Briand-Kellog et charte de l'ONU). Même si nous sommes loin d'une ère sans conflit, comme celle décrite par Fukuyama dans son ouvrage intitulé "La Fin de l'histoire", il demeure toutefois que les guerres ne sont plus perçues comme une phase normale des

aux États-Unis, ils doivent trouver une nouvelle ligne directrice à leur action extérieure après la disparition de l'antagonisme Est-Ouest. Dans ce monde en mutation, il convient d'essayer de cerner la notion de puissance en prenant en compte la nouvelle donnée internationale qui s'est fait jour à la fin des années 1980, afin de conclure sur l'existence à l'heure actuelle de grandes puissances sur la scène internationale. Faut-il encore penser le monde en termes de primauté et d'hégémonie?

I – Définition de la puissance sous l'approche théorique classique

Pendant longtemps, les relations internationales ont été envisagées avant tout comme des relations entre États, baptisés génériquement unités politiques: ce fut la période dominante de l'école réaliste. Le titre de l'ouvrage de Morgenthau "Politics among Nations" (1948) est clair sur ce point. Le succès des écoles réalistes est initialement lié au contexte de la guerre froide et au désenchantement à l'égard de l'idéalisme wilsonien et même rooseveltien. C'est l'époque où l'on s'interroge sur les conditions de la puissance et sur la conduite d'une politique conflictuelle. L'influence des écoles réalistes est considérable. En France, R. Aron en apparaît le principal représentant.

A - Le facteur militaire et nucléaire

La réflexion aronienne sur la puissance a pour cadre un système inter-étatique où la guerre est un mode relationnel établi; en bref, l'analyse aronienne est une analyse de guerre froide. Le courant réaliste, plus globalement, se caractérise par différents éléments. L'accent est mis sur les relations politiques, entendues comme des relations de puissance. Ces relations se nouent entre États, acteurs individuels, et surtout entre les grandes puissances. La société internationale est donc perçue comme fondamentalement interétatique. Dans ces conditions, la compétition entre États est naturelle et les conflits n'en sont que l'une des expressions. Enfin, ce courant insiste sur l'importance des facteurs matériels de la puissance, surtout ses aspects militaire et diplomatique. Ainsi, pour Aron par exemple, les relations internationales s'expriment dans et pour des conduites spécifiques: celles des personnages symboliques que sont le diplomate et le soldat. Aussi, selon l'acception réaliste du terme, être puissant sur

Qu'est ce qu'une grande puissance ? Un parcours théorique remis à jour

*Bachir el-KHOURY**

Les relations internationales sont avant tout des relations entre puissances qui cherchent à s'affirmer, ou du moins à se maintenir, les unes par rapport aux autres. La puissance est donc une notion centrale des relations internationales dont vont dépendre les choix des décideurs: elle détermine les possibilités d'action d'un acteur au plan mondial ou régional. Par conséquent, la puissance est le mode d'existence sur la scène internationale: dans ce monde par essence relationnel, nul acteur ne peut exister s'il ne dispose pas d'une capacité de négociation que lui confère sa puissance

A la question "qu'est-ce qu'une grande puissance?", on serait tenté instinctivement de répondre: les États-Unis voire le Japon ou l'Allemagne. Derrière ce réflexe conditionné par une certaine litanie véhiculée par les médias et l'opinion publique, il s'agit de découvrir d'une part ce qui fait la puissance et, d'autre part, ce qui sous-tend les hiérarchies de puissances. "La puissance n'est pas un absolu mais une relation humaine", qui, par essence, est relative: c'est à l'aune de la puissance des autres (ou du moins de la représentation qu'on s'en fait) que se mesure la puissance d'un acteur international. On peut donc tout simplement caractériser une grande puissance comme étant une puissance plus puissante que les autres. Or cette notion a précisément été bouleversée: avec la fin de la guerre froide, les différentes puissances ont du redéfinir leurs objectifs. La France cherche à maintenir son particularisme alors que l'Allemagne et le Japon tentent de transformer leurs atouts économiques en puissance politique. Quant

* *Chercheur*

شرف. تضحية. وفاء

طبعت في مطابع الجيش اللبناني - مديرية الشؤون الجغرافية - ٢٠٠٣

DEFENSE NATIONALE LIBANAISE

Comité Consultatif

Dr. Nassim EL-KHOURY
Dr. Adnan AL-AMIN
Dr. Ilham MANSOUR
Dr. Michel NEHME
Dr. Hassan MNEIMNE
Dr. Abdallah FARHAT

Rédacteur en chef: Mahmoud Berry

● The aftermath of Saddam: Arab aprehensiveness about the United States ____ *Josiane FEGHALY, Dr. Simon HADDAD 150*

● Qu'est-ce qu'une Grande Puissance? Un parcours théorique remis à jour ____ *Béchir el KHOURY 176*

DEFENSE NATIONALE LIBANAISE

LEBAN LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

DEFE NATIONAL LEBANESE NATIONAL DEFENCE

NAT

LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

L DEFENCE LEBANESE NA

AL DEFENC LEBANESE TIO